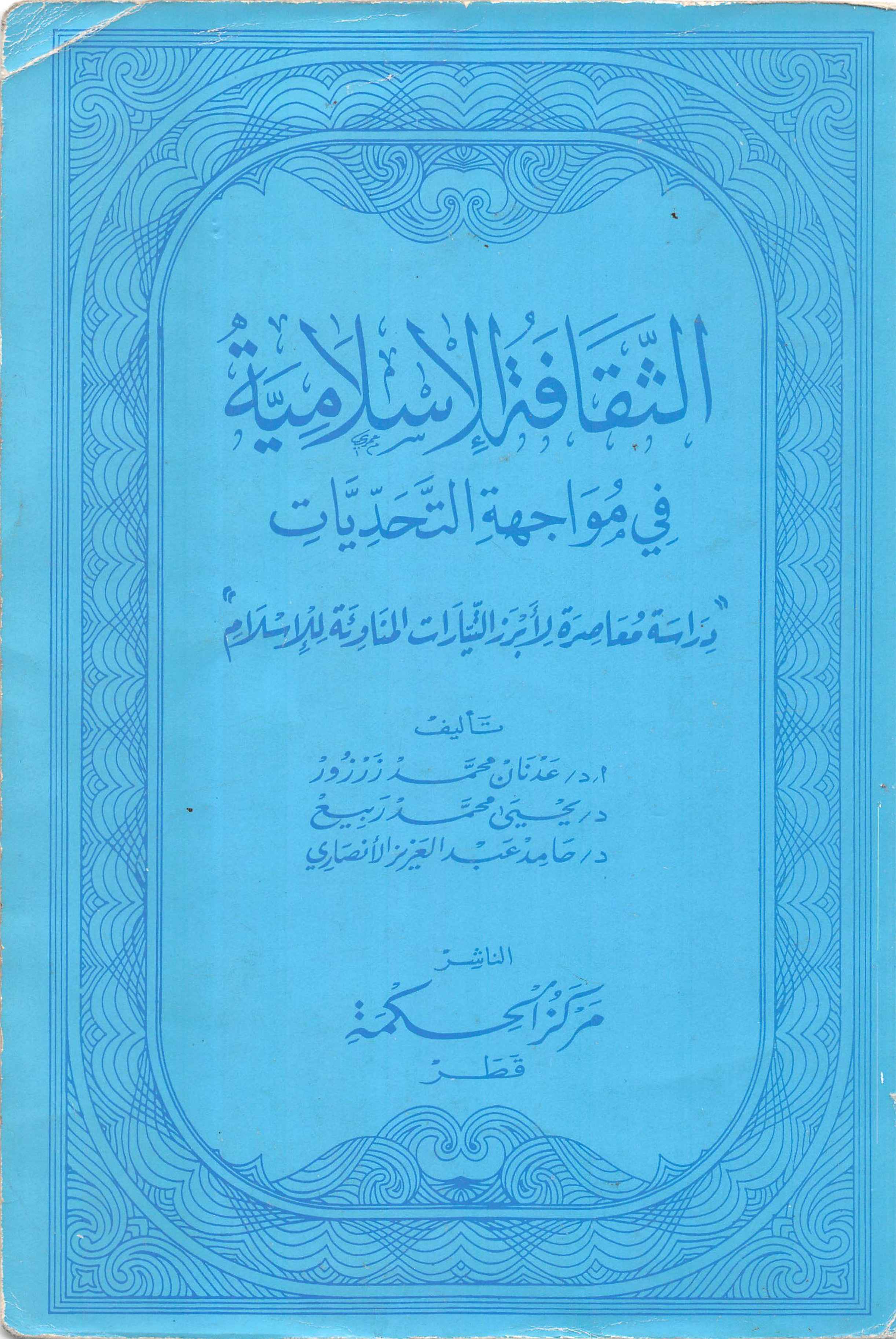


الثقافة الإسلامية

في مواجهة التحديات

"دراسة معاصرة لأبرز التيارات المناوئة للإسلام"

تأليف

أ.د/ عدنان محمد زرزور

د/ يحيى محمد ربيع

د/ حامد عبد العزيز الأنصاري

الناشر

مركز الحكمة

قطر

الثقافة الإسلامية في مواجهة التحديات

«دراسة معاصرة لأبرز التيارات المناوئة للإسلام»

تأليف

أ. د. عدنان محمد زرزور

د. يحيى محمــد ربيــع

د. حامد عبدالعزيز الأنصاري

الناشر

مركز الحكمة

القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الفهرس

المحتوى	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

(١)

تقوم جامعة قطر بتدريس «الثقافة الإسلامية» على مرحلتين أو في مقرّرين جامعيين اثنين، انطلاقاً من الهدف الذي جُعلت هذه المادة العلمية من أجله قدراً مشتركاً بين جميع طلاب الجامعة وطالباتها .. على اختلاف كلّياتهم ومعاهدهم وحقول تخصّصهم.

ويتمثل هذا الهدف، باختصار شديد، في تشكيل «**قناعة**» عند الطالب بأولوية نظام الحياة في الإسلام، أو بأولوية الإسلام بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة، من جهة. وتشكيل «**مناعة**» ضد ما يخالف هذا النظام أو يناقضه ويحادّه من الفلسفات والعقائد والنظم الأخرى، من جهة ثانية.

وغني عن البيان أن هذا الهدف قد جرت بلورته من خلال حاجة طلبة الجامعات العربية والإسلامية لتشكيل هذه القناعة والمناعة، أمام الروح

العلمانية أو المناخ العلماني السائد الذي لا يزال، منذ أيام الاستعمار والاحتلال، يفصل في واقع المجتمعات الإسلامية بين «الدين» و«نظام الحياة». وأمام هذا القدر الهائل من العقائد والمذاهب والآراء التي يعج بها العالم المعاصر، والتي تحملها إلى جيل الشباب وإلى سائر الأجيال: المؤلفاتُ والمترجمات والدّوريات ووسائل الإعلام التي بلغت ذروتها في القنوات الفضائية؛ حتى بات التحصين الثقافي مطلباً مهماً وضرورياً للغاية.. على مستوى الشباب وطلبة الجامعات بوجه خاص، وعلى مستوى سائر أجيال الأمة بوجه عام.

(٢)

ويمثل هذا الكتاب الحلقة الثانية، أو المقرر الثاني الخاص بتشكيل تلك المناعة، ولهذا فقد تم اختيار موضوعاته في ضوء هذا الهدف، الأمر الذي استلزم أن تأتي على هذا النحو من التنوع، الذي قد يبدو للوهلة الأولى أنه يفتقر إلى الوحدة والانسجام.. ولكنَّ هذا التنوع قُصد به كما هو واضح: استعراض أبرز المبادئ والعقائد التي شكّلت تحدياً للثقافة الإسلامية، أو انطوت على تناقض مع أحكامها ومسلّماتها.. أو تلك التي حاول أصحابها تشويه الثقافة الإسلامية، أو تفسيرها على نحوٍ لا يتصف بالحِيَدة أو الموضوعية.

(٣)

أما طريقتنا في تناول هذه الموضوعات، فقد رُسمت بدورها في ضوء هذا الهدف، من جهة، وفي ضوء ما تسمح به أو تتسع له ساعات التدريس،

من جهة أخرى. فقد عوّلنا على ذكر الأصول والمناهج والمنطلقات، دون الذهاب وراء الفروع والجزئيات. أو استقصاء الردود والشبهات، حتى يقوى الطالب على ملاحظة أوجه التحدي الجديدة أو الطارئة، أو التي سوف يراها أو تعرض له فيما بعد، وحتى يملك القدرة على الرد والتقويم، والمناقشة والحوار، كما أننا لم نعوّل في الوقت نفسه على المعارف الإسلامية التراثية، أو تلك التي تُعطى أو ينهض بها طلاب الشريعة والدراسات الإسلامية، لأن معظم موضوعات الكتاب ليست تراثية، ولأن هذا القدر الجامعي المشترك ليس من باب التخصص، ولا تقتضي طبيعة معالجته، أو طبيعته ذلك.

هذا، وقد جاءت مشاركتنا في تأليف هذا الكتاب على النحو التالي:

١ - الأستاذ الدكتور عدنان محمد زرزور: كتب موضوعي: القومية والعلمانية.

٢ - السيد الدكتور يحيى محمد ربيع: كتب عن المسيحية والاستشراق والتبشير.

٣ - السيد الدكتور حامد عبدالعزيز الأنصاري: كتب عن اليهودية والماسونية والصهيونية.

ونشير أخيراً إلى أن الآراء التي وردت في كل فصل أو موضوع من هذه الموضوعات جاءت تعبيراً عن وجهة نظر كاتبه دون سائر المشاركين في وضع هذا الكتاب.

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل، وأن يجنّبنا الزّلل ، إنه سميع قريب مجيب (ربَّنا اغفرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعلْ في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ربَّنا إنّك رؤوفٌ رحيم).

الدوحة في: ٢٤ من صفر الخير ١٤١٧ هـ
١٠ تموز «يوليو» ١٩٩٦ م

المؤلفون

الماسونية والصهيونية وصلتهما باليهودية العالمية

د. حامد عبدالعزيز الأنصاري

أولاً: لمحة تاريخية

ثانياً: مصادر التشريع عند اليهود

ثالثاً: من معالم الشخصية اليهودية

رابعاً: اليهود في العصر الحديث

خامساً: الماسونية

سادساً: الصهيونية

سابعاً: خطورة الصلح مع اليهود والآثار المترتبة على ذلك

ثامناً: الحكم الشرعي في التنازل عن أي جزء من فلسطين

تاسعاً: دور الشعوب الإسلامية في مقاومة التطبيع مع اليهود

ابراهيم

ساره — هاجر

إسحاق (جد بني إسرائيل) — إسماعيل (جد العرب)

يعقوب (إسرائيل)

أسباط بني إسرائيل

يوسف

لاوي

موسى - هارون

* دخل بني إسرائيل مصر على يد يوسف (عليه السلام)

* وخرجوا منها على يد موسى (عليه السلام) متجهين إلى الأرض المقدسة

اليهود: لمحة تاريخية

أنجب إبراهيم عليه السلام ولدين : إسماعيل من زوجه هاجر، وعلى كبر أنجب إسحاق من زوجه سارة حيث بشرته الملائكة به في قوله تعالى ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾ (هود: ٧١). ويعد إسماعيل عليه السلام جد العرب الذي جاء من نسله محمد ﷺ. أما إسحاق عليه السلام فيعد جد بني إسرائيل فقد أنجب يعقوب عليه السلام الملقب بإسرائيل، و أنجب يعقوب عليه السلام اثني عشر ولداً عرفوا ببني إسرائيل، كان من بينهم يوسف عليه السلام الذي حظي باهتمام خاص من أبيه مما أثار حفيظة إخوته عليه ففكروا في التخلص منه، فألقوه في غيابة الجب فالتقطته قافلة كانت متجهة إلى مصر وأصبح عبداً مملوكاً في بيت عزيز مصر إلى أن قدر الله له أن يدخل السجن، ليخرج منه وزيراً للخزانة، حيث أدارها بحكمة جنبت مصر هلاكاً محققاً إثر الجفاف الذي أصابها والمناطق المجاورة لها، مما جعلها قبلة الباحثين عن لقمة العيش من المناطق المجاورة. وكان إخوة يوسف من جملة من ورد مصر للسبب نفسه، فدخلوا على يوسف فعرفهم وهم له منكرون، وبعد قصة تفيض بالعبر والدلالات -فصلها القرآن الكريم في سورة يوسف- طلب يوسف عليه السلام من إخوته أن يأتوا بأهلهم أجمعين ليعيشوا معه في مصر، وكان ذلك بداية دخول بني إسرائيل مصر.

لم يشر القرآن الكريم إلى المدة التي أقامها بنو إسرائيل في مصر -لأن هذا لا يتحقق به غرض من أغراض القصة القرآنية-، في حين ذكرت التوراة أن المدة كانت ٤٣٠ سنة[1]!!، وقد عامل فرعون -الطاغية- بني إسرائيل أسوأ معاملة، وسامهم سوء العذاب، حيث قام بتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، قال تعالى: ﴿إنَّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين﴾ (القصص: ٤). فأرسل الله عز وجل لهم موسى

(١) سفر الخروج: ١٢/ ٤٠.

عليه السلام وشد عضده بأخيه هارون وأمره أن يخرج ببني إسرائيل من مصر إلى الأرض المقدسة، استنقاذاً لهم من بطش فرعون وقومه. قال تعالى: ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسولٌ من رب العالمين، حقيقٌ على ألا أقول على الله إلا الحق، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾ (الأعراف: ١٠٤، ١٠٥).

أسرى موسى -عليه السلام- ببني إسرائيل سراً من مصر قاصداً الأرض المقدسة فأدركه فرعون وجنوده على مشارف البحر الأحمر فأمر الله -عز وجل- موسى فضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، ومرَّ موسى مع بني إسرائيل وعبروا البحر إلى سيناء، فتبعهم فرعون وجنوده فأطبق الله عليهم البحر فأغرقهم أجمعين. ولما جاوز الله ببني إسرائيل البحر مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة، فكانت هذه أول ردة لهم ولما يمر على المعجزة الكبيرة والنعمة العظيمة التي أنعم الله -عز وجل- بها عليهم ساعات. وقد ذكر القرآن الكريم أن بني إسرائيل ارتدوا أكثر من مرة خلال وجودهم في سيناء في طريقهم إلى الأرض المقدسة، حتى إذا ما وصلوا مشارفها قال لهم موسى ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين، قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة، يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ (المائدة: ٢١-٢٦). وكانت هذه السنون الأربعون كافية لأن يفنى هذا الجيل المتصلب الرقاب وينشأ جيل جديد رباه موسى على يديه وهيأه لدخول الأرض المقدسة التي توفي موسى -عليه السلام- قبل أن يدخلوها.

تاريخ اليهود في فلسطين:

أما تاريخ إقامتهم في فلسطين فيمكن تقسيمه إلى أربعة عهود:

١- **عهد القضاة** ويمتد من القرن الثالث عشر ق.م إلى سنة ١٠٩٥ ق.م.

٢- **عهد الملوك الأول:** ويمتد من ١٠٩٥ق.م. إلى ٩٧٥ق.م.

٣- **عهد الملوك الثاني:** ويمتد من ٩٧٥ق.م. إلى ٥٨٦ق.م.

٤- **فترة ما بعد خراب أورشليم الأول** سنة ٥٨٦ق.م. إلى سنة ١٣٥م.

١- عهد القضاة:

بعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام ترأس يوشع بن نون بني إسرائيل وقادهم لدخول الأرض المقدسة حيث أغاروا على الكنعانيين العرب واحتلوا فلسطين وسكنوا فيها بعد أن أبادوا معظم أهلها واستعبدوا من أبقوا منهم على قيد الحياة. ولكن لم يقم اليهود لهم -خلال هذه الفترة- دولة وإنما كانوا يعيشون في مناطق أشبه ما تكون بولايات يسكن في كل ولاية سبط من أسباط بني إسرائيل، يحكم هذه الولايات كبار العشائر الذين سُمّوا بالقضاة وسمي عصرهم بعصر القضاة.

ومن يقرأ «سفر القضاة» يتضح له أن عهد القضاة كان من أسوأ عهود بني إسرائيل حيث ارتدوا فيه عن عبادة الله، وعبدوا الأصنام، وقتلوا الأنبياء والمصلحين، وانتشرت بينهم الفواحش والموبقات، وفشا فيهم الزنى، فكان من نتيجة ذلك أن سلط الله عليهم الشعوب المجاورة لهم فتعرضوا لغارات وغزوات كثيرة كان من بينها غزو شعنائيم ملك النهرين، وحجلون ملك المؤابيين، ويابين ملك الكنعانيين وغيرهم.

وكان آخر قضاة بني إسرائيل هو صموئيل الذي كثرت في عهده الفوضى والمفاسد، لأنه -بعد أن شاخ- أوكل إلى أبنائه القيام بشؤون القضاء نيابة عنه، لكنهم ارتشوا وجاروا في أحكامهم، مما دفع بني إسرائيل إلى الثورة على صموئيل وأبنائه، هذه الثورة التي كان نتيجتها زوال عهد القضاة[1].

٢- عهد الملوك الأول:

يبدأ عهد الملوك الأول بتأسيس مملكة يهود عام ١٠٩٥ق م على يد أول ملوكهم: طالوت، الذي اختاره الله عز وجل لهم، وزاده بسطة في العلم والجسم، وإن لم يكن من أشرفهم نسباً، ولا من أكثرهم مالاً، مما جعل الكثير من اليهود يعترضون عليه. وبعد وفاة طالوت، الذي دام حكمه قرابة أربعين سنة، خلفه داود عليه السلام وقد دام ملكه حوالي أربعين سنة أيضاً، خاض فيها معارك مع الشعوب المجاورة، وقد عم الرخاء مملكة يهود في عهده، واتسع نشاطها الاقتصادي مع الدول المجاورة وكانت لها الغلبة على من حولها من الشعوب في شرق الأردن وغربه. ثم تولى ملك بني إسرائيل من بعده ابنه سليمان عليه السلام فحكمهم أربعين سنة، وامتاز عهده بالاستقرار والرخاء، انتهت بوفاته سنة ٩٧٥ق م، وانتهى بذلك كذلك عهد الملوك الأول[2].

---

(١) محمد سيد طنطاوي، بنو إسرائيل في الكتاب والسنة، الزهراء للإعلام العربي، مصر، ط١، ١٩٨٧م، ص ٣٠ - ٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣ - ٤١. وعبدالله التل، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٢٣.

٣- عهد الملوك الثاني:

بعد وفاة سليمان -عليه السلام- أعلن ابنه رحبعام نفسه ملكاً على بني إسرائيل، فبايعه سبطا يهوذا وبنيامين، اللذين كانا يقيمان في منطقة أورشليم وما حولها بالإضافة إلى جنوب فلسطين، ورفض الأسباط العشرة الآخرون مبايعته لخلاف نشب بينه وبينهم، بعد أن رفض الاستجابة لبعض مطالبهم، وبايعوا يربعام ملكاً عليهم.

وهكذا انقسمت مملكة بني إسرائيل -بعد وفاة سليمان عليه السلام إلى مملكتين:

أ- مملكة إسرائيل في الشمال: وكان أول ملوكها يربعام بن نباط، وهو ليس من بيت داود، وعاصمتها الأولى السامرة (نابلس)، وهذه المملكة كانت الأكبر من حيث المساحة ومن حيث عدد السكان إذ كانت تضم عشرة أسباط من أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وقد أشرك يربعام، وبنى أوثاناً وهياكل، ودعا بني إسرائيل لعبادتها بدلاً من الذهاب إلى هيكل سليمان في أورشليم، فأجابوه و أعانوه وتسارعوا إلى باطله. وقد دامت مملكة إسرائيل نحو ٢٥٠ سنة وانتهت سنة ٧٢١ ق.م حينما غزاها سرجون ملك آشور، واستولى على السامرة، وسبى الأسباط، وأجلى اليهود إلى ما وراء نهر الفرات، وقضى على تلك المملكة فلم تقم لها قائمة بعدها[١].

ب- مملكة يهوذا في الجنوب: وكان أول ملوكها رحبعام بن سليمان -عليه السلام- وعاصمتها أورشليم، وقد عاشت مملكة يهوذا أكثر من أختها إسرائيل، وتعرضت

---

(١) عبدالله التل، المصدر السابق، ص ٢٤. ومحمد سيد طنطاوي، المصدر السابق ص ٤١ - ٤٧. ومحمد عبدالله الشرقاوي، في مقارنة الأديان؛ بحوث ودراسات، دار الهداية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص٢٤٥.

إلى غزوات عديدة من الشرق ومن الجنوب. ثم جاءت نهايتها على يد نبوخذ نصر ملك بابل الذي غزاها سنة ٦٠٦ ق. م وتغلب عليها ودفعت له الجزية. وثارت عليه فأعاد الكرة سنة ٥٩٩ ق. م فسبى من شعبها عشرة آلاف أسير من بينهم أعيانها وأشرافها وكنوز الهيكل. وثارت عليه سنة ٥٩٣ ق. م فأتاها هذه المرة سنة ٥٨٦ ق. م وهدم أسوارها، وأحرق الهيكل، وسبى اليهود إلى بابل[١].

وفي كلتا المملكتين لم يتمتع اليهود برغد العيش والاستقلال، إلا فترات وجيزة، فقد تعرضوا للاحتلال من قبل الشعوب الأخرى، بحيث أصبح تاريخ ملوك إسرائيل ويهوذا (تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقي الرحى، تعركهما على التوالي سوريا ثم بابل من الشمال، ومصر من الجنوب) ويصف أحد الكتاب الغربيين نهاية الدولتين فيقول: «هي قصة نكبات، وقصة تحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية، هي قصة ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ق. م، حت يد الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من الوجود، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ ق. م»[٢].

ويصور المؤرخ البريطاني هـ. ج. ولز حالة المملكتين الإسرائيليتين فيقول: «كانت حياة العبرانيين في فلسطين تشبه حالة رجل يصر على الإقامة وسط شارع مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار . . . ومن المبدأ إلى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا، ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم»[٣].

---

(١) عبدالله التل، المصدر السابق، ص٢٤. ومحمد طنطاوي، المصدر السابق ص٤١-٤٧.
(٢) أحمد شلبي، اليهودية، ص٦٣، نقلاً عن محمد سيد طنطاوي، المصدر السابق، ص٤٦.
(٣) هـ. جـ. ولز، موجز التاريخ.

٤- فترة ما بعد خراب أورشليم الأول:

أ- خلت فلسطين تقريباً من اليهود بعد سقوط أورشليم سنة ٥٨٦ق . م ، في يد نبوخذ نصر وقد عاشوا أسارى في بابل قرابة خمسين سنة ، قلدوا فيها عادات البابليين وأخذوا عنهم الكثير من شعائرهم و آدابهم ، واشتركوا في وظائف الدولة وأعمالها تحت رقابة البابليين .

ب- وأعيد اليهود من السبي سنة ٥٣٦ ق . م على يد قورش الذي تولى ملك فارس وغدت يهوذا ولاية من ولايات الفرس حتى سنة ٣٣٢ ق . م حيث انتقلت إلى ملك الإسكندر المكدوني ، بعد أن هزم الفرس واحتل سورية وفلسطين .

جـ- وبعد وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ ق . م اقتسم قواده الملك فحكم سلوقس سورية وأسس فيها دولة السلوقيين ، وحكم بطليموس مصر وأسس فيها دولة البطالسة وكانت يهوذا من نصيب البطالسة . وحكم البطالسة اليهود رغم مقاومتهم العنيفة التي أكرهت بطليموس الأول على هدم القدس ودك أسوارها ، وإرسال مائة ألف أسير من اليهود إلى مصر سنة ٣٢٠ ق . م .

د- وفي سنة ١٦٨ ق . م انتقلت يهوذا إلى حكم السلوقيين حينما احتلها انطوخيوس وهدم أسوارها ونهب هيكلها وقتل من اليهود ٨٠ ألفاً في ثلاثة أيام . وفي تلك الأثناء برز فريق من اليهود اتصفوا بالحنكة وسعة الحيلة والشجاعة ويدعون «المكابيون» ، استفادوا من الخلافات التي وقعت بين البطالسة والسلوقيين فاستقلوا بحكم يهوذا «أورشليم» مرة ثانية . بيد أن حكمهم لم يدم طويلاً ، ودب بينهم الخلاف وضعف مركزهم فتدخلت روما واحتل الجيش الروماني بقيادة بومبى سنة ٦٣ ق . م مدينة القدس واستباح الهيكل وفتك بالسكان .

هـ- وخضعت فلسطين منذ سنة ٦٣ق . م للحكم الروماني ، حيث كان الرومان

يستعملون عليهم أحياناً ولاة يختارونهم من اليهود، وكان هؤلاء يخضعون في تصرفاتهم للدولة الرومانية، إلا أن اليهود كثيراً ما كانوا يشقون عصا الطاعة على الرومان فيقوم الرومان بتأديبهم بالطريقة التي يرونها مناسبة. وقد تعاقب عليهم ولاة رومانيون كان من بينهم القائد المحنك تيطس الذي خلف أباه في حصار أورشليم سنة ٧٠م وفي عهد هذا القائد الروماني تم تدمير «أورشليم» وهيكلها وذبح اليهود فيها، وأسر من أسر من شعبها، وذاق اليهود على يده الذل والهوان.

و- وفي عهد الإمبراطور تراجان (١٠٦ م) عاد بعض اليهود إلى القدس وأخذوا في الإعداد للثورة وأعمال الشغب من جديد، فلما تولى أدريانوس عرش الرومان (١١٧ - ١٣٨م) حول المدينة إلى مستعمرة رومانية وحظر على اليهود الاختتان وقراءة التوراة واحترام السبت. وثار اليهود بقيادة باركوخيا (١٣٥م). وأرسلت روما والياً حازماً هو يوليوس سيفيروس فاحتل المدينة وقهر اليهود، وقتل باركوخيا، وذبح من اليهود في تلك الموقعة ٥٨٠ ألف نسمة. وتشتت الأحياء من اليهود تحت كل كوكب. ولكي ينسى اليهود «أورشليم» دمرها أدريانوس وأنشأ مكانها مدينة جديدة أسماها «إيلياء»)[١]. وكان هذا آخر عهد اليهود بفلسطين حيث تشتتوا بعدها في الأرض ولم تقم لهم قائمة إلا في القرن الحالي بعد أن اغتصبوا فلسطين نتيجة الضعف والخور والتفرق الذي أصاب الأمة الإسلامية بعد سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية وعودة دول الطوائف مرة أخرى.

---

(١) عبدالله التل، الصدر السابق، ص ٢٤ - ٢٦. ومحمد سيد طنطاوي، المصدر السابق ص ٤٧ - ٥٥.

مصادر التشريع عند اليهود

تنقسم مصادر التشريع عند اليهود قسمين: العهد القديم والتلمود

أولاً: العهد القديم:

يتكون العهد القديم من تسعة وثلاثين سفراً تنقسم أربعة أقسام:

١- الأسفار الناموسية (التوراة): ويؤمن اليهود بأنها التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام وعددها خمسة أسفار هي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية:

أ- سفر التكوين: ويتكون من خمسين إصحاحاً، ويتحدث عن قصة خلق الكون، وقصة آدم وحواء، ونوح والطوفان، وأبناء نوح سام وحام ويافث، وقصة إبراهيم عليه السلام و سلالته، مع التركيز على إسحاق الذي ينتمي إليه الإسرائيليون، ويعقوب بن إسحاق الملقب بإسرائيل، وأبنائه الاثني عشر، ودخولهم مصر بدعوة من أخيهم يوسف عليه السلام، وينتهي السفر بوفاة يوسف عليه السلام.

ب- سفر الخروج: يتكون من أربعين إصحاحاً، ويتحدث عن قصة بني إسرائيل في مصر واضطهاد الفراعنة لهم على مر العصور، وقصة أعظم أنبيائهم موسى عليه السلام ودعوته لفرعون إلى الإيمان بالله وأن يسمح لبني إسرائيل بالخروج معه من مصر إلى الأرض المقدسة ورفض فرعون لدعوة موسى عليه السلام وخروج موسى مع بني إسرائيل من مصر واتباع فرعون لهم وانفلاق البحر لموسى ومن معه وعبورهم البحر الأحمر إلى سيناء وغرق فرعون وجنوده، كما يتحدث عن تصلب رقابهم على موسى عليه السلام وارتدادهم عن عبادة الله وعبادتهم العجل ورفضهم دخول الأرض المقدسة وعقاب الله لهم بالتية في أرض سيناء أربعين سنة.

جـ- **سفر اللاويين:** ويتكون من سبعة وعشرين إصحاحاً، ويحتوي على الأحكام المتعلقة بشؤون الذبائح والقرابين وطقوس تقديمها، ودور الكهنة في أداء رسومها وطقوسها، وأحكام المذبح، والمحرمات من الذبائح وغيرها. واللاويون نسبة إلى لاوي بن يعقوب أحد إخوة يوسف عليه السلام، ومنهم موسى وهارون عليهما السلام، وقد كان اللاويون سدنة الهيكل والمشرفين على شؤون الذبح والقرابين، والقوامين على الشريعة اليهودية، وقد أناطت بهم التوراة مهام دينية رفيعة ومن ثم سمي السفر باسمهم.

د- **سفر العدد:** ويتكون من ستة وثلاثين إصحاحاً، وقد شغل معظمه بإحصاءات لقبائل بني إسرائيل ورؤوسهم وجيوشهم وأموالهم، وإحصاء ما يمكن إحصاؤه مما يتعلق بهم، وبأحكام تتعلق بطائفة من العبادات والمعاملات.

هـ- **سفر التثنية:** ويتكون من أربعة وثلاثين إصحاحاً، ويحتوي على أحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب والسياسة وشؤون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات وغيرها. وسمي بالتثنية لأنه يثني ويعيد ذكر التعاليم التي تلقاها موسى من ربه وأمر بتبليغها إلى بني إسرائيل[1]. وهذا السفر الذي ينهي التوراة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، يعبر -دينياً واجتماعياً- أصدق تعبير عن الفكر الإسرائيلي القح، وينتهي هذا السفر بالآيتين أو الفقرتين ٥-٦: «فمات هناك موسى، عبدالرب، في أرض مؤاب: بأمر الرب. وتم دفنه في الوادي، في أرض مؤاب، تجاه بيت فاعور، ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا»[2].

---

(١) علي عبدالواحد وافي، اليهودية واليهود: بحث في ديانة اليهود وتارخهم ونظامهم الاجتماعي والاقتصادي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، بدون تاريخ الطبع، ص١١.

(٢) حسن ظاظا، الفكر الديني اليهودى: أطواره ومذاهبه، دار القلم، دمشق، ودار العلوم والثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ص١٤-١٦.

٢- **الأسفار التاريخية:** وموضوع هذه الأسفار عرض تاريخ بني إسرائيل لفترة ما بعد موسى عليه السلام، وقصة حروبهم ودخولهم الأرض المقدسة، واستقرارهم فيها كما أنها تقص تاريخ قضاتهم وملوكهم وأبرز أيامهم وحوادثهم وتتكون من اثني عشر سفراً هي: سفر يوشع بن نون، سفر القضاة، سفر راعوث، سفر صموئيل الأول، سفر صموئيل الثاني، سفر الملوك الأول، سفر الملوك الثاني، سفر أخبار الأيام الأول، سفر أخبار الأيام الثاني، سفر عزرا، سفر نحميا، سفر أستير[1].

٣- **الأسفار الشعرية:** وموضوع هذه الأسفار مواعظ وأناشيد بعضها ديني وبعضها غزلي فاحش، وهي مصوغة صياغة منظومة، وتتكون من خمسة أسفار هي: سفر أيوب، مزامير داود، أمثال سليمان، الجامعة من كلام سليمان، نشيد الإنشاد لسليمان[2].

٤- **أسفار الأنبياء:** وموضوع هذه الأسفار عرض لتاريخ بعض أنبياء بني إسرائيل الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام، ويتكون هذا القسم من سبعة عشر سفراً هي: سفر أشعياء، سفر أرمياء، سفر مراثي أرمياء، سفر حزقيال، سفر دانيال، سفر هوشع، سفر يوئيل، سفر عاموس، سفر عوبديا، سفر يونان، سفر ميخا، سفر ناحوم، سفر حبقوق، سفر صفُنيا، سفر حجّاي، سفر زكريا، سفر ملاخيا.

متى ألفت أسفار العهد القديم؟

يذكر الأستاذ علي عبدالواحد وافي في كتابه القيم: اليهود واليهودية، أنه ظهر للمحدثين من الباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها الأسفار

---

(١) محمد عبدالله الشرقاوي، المصدر السابق، ص١٦ - ١٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨، ١٩.

الناموسية (التوراة التي يزعم اليهود نسبتها إلى موسى)، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام ،وتشاريع ، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير، (يقع عصر موسى على الأرجح حوالي القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد)، وأن معظم سفري التكوين والخروج قد ألف حوالي القرن التاسع قبل الميلاد (أي بعد موسى بنحو خمسة قرون أو ستة)، وأن سفر التثنية قد ألف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وأن سفري العدد واللاويين قد ألفا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، أي بعد الأسر البابلي، وأنها جميعاً مكتوبة بأقلام اليهود، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل. فهي إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التي يذكر القرآن أنها كتاب سماوي مقدس أنزله الله على موسى عليه السلام. وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ (البقرة: ٧٩).

أما بقية أسفار العهد القديم فإن الباحثين يرجحون أن قسماً منها قد ألف في الفترة الواقعة بين النصف الأخير من القرن التاسع وأوائل القرن السادس قبل الميلاد. وأما القسم الآخر فقد ألف في الفترة الواقعة بين أوائل القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل الميلاد[1].

---

(١) على عبدالواحد وافى، المصدر السابق، ص١٤-١٧.

ثانياً: التلمود:

يُعَدُّ التلمود المصدر الثاني من مصادر التشريع عند اليهود من حيث المنزلة الدينية، لكنه الأول من حيث التطبيق والالتزام، وهو عبارة عن تعاليم ومبادئ وضعها الحاخامات عبر فترة زمنية لاقى فيها اليهود الذل والهوان على أيدي الشعوب المجاورة لهم، وتشتتوا في بقاع الأرض -على النحو الذي أشرنا إليه في اللمحة التاريخية قبل قليل-، فقام هؤلاء الحاخامات بوضع هذه التعاليم التي توجب على اليهود العمل على العودة إلى فلسطين، فوضعوا نصوصاً تفيد بأن الله عز وجل قد ندم على قراره بطرد اليهود من فلسطين، وأنه يعيش الآن حزيناً تعيساً، فهو (لم يلعب مع الحوت بعد هدم الهيكل، كما أنه منذ ذلك الوقت لم يمل إلى الرقص مع حواء بعدما زينها بملابسها، وعقص لها شعرها، وقد اعترف الله بخطئه في تصريحه بتخريب الهيكل، فصار يبكي ويمضي ثلاثة أجزاء الليل يزأر كالأسد قائلاً: تباً لي لأني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي، وشغل الله مساحة أربع سنوات فقط بعد أن كان ملء السموات والأرض في جميع الأزمان، . . . وأن الله يتندم على تركه اليهود في حالة التعاسة حتى إنه يلطم ويبكي كل يوم، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر، فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه، وترتجف الأرض في أغلب الأحيان، فتحصل الزلازل)[1]، وبالتالي فإنه يجب على اليهود أن يعملوا على العودة إلى فلسطين بأي وسيلة ممكنة لكي يرضى الله وتزول عنه حالة الكآبة والتعاسة والحزن. اللهم إنا نبرأ إليك من كل هذه السخافات والأباطيل والترهات، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وخوفاً من أن يذوب اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها، وتنطمس آثارهم، وتذهب ريحهم، وتندثر الديانة اليهودية، وضع هؤلاء الحاخامات

(١) يوسف نصرالله، الكنز المرصود في قواعد التلمود، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، ص٥٦.

نصوصاً في التلمود تغرس في اليهود العنصرية واحتقار كل من عداهم من بني البشر (الأمميين) حتى لا يتأثروا بهم، ولا يخالطوهم إلا لجلب منفعة أو درء مفسدة. فيعتقد اليهود -وفق ما سطره لهم حاخاماتهم- أن اليهودي جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه، ولذلك ورد في التلمود: أنه إذا ضرب أمي إسرائيلياً فالأمي يستحق الموت، وأنه لو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش. والفرق بين درجة الإنسان والحيوان يساوي الفرق بين اليهود وباقي الشعوب!!

وجاء في تلمود أورشليم (ص٩٤): أن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان!!!.

وقال الحاخام أباربانيل: الشعب المختار (أي اليهود) فقط يستحق الحياة الأبدية، أما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير، ... وخلق الله الأجنبي (غير اليهودي) على هيئة الإنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا لأجلهم، لأنه لا يناسب لأمير أن يخدمه -ليلاً ونهاراً- حيوان وهو على صورته الحيوانية. كلا ثم كلا، فإن ذلك منابذ للذوق والإنسانية كل المنابذة[1].

ولكي يضمن رجال الدين اليهودي التزام اليهود بتعاليم التلمود أضفوا عليه وعلى أنفسهم هالة من القداسة جعلت تعاليم التلمود مقدمة على تعاليم التوراة، وكلام الحاخامات مقدماً على كلام الأنبياء، بل إن كلام الحاخامات لا يمكن نقضه ولو بأمر الله!! فقد ورد في التلمود أن من درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها، ومن درس المشناة (أحد قسمي التلمود) فعل فضيلة استحق أن يكافأ عليها، ومن درس الجمارة (القسم الثاني من التلمود) فعل أعظم فضيلة. بل ادعوا أن الله لا شغل له في الليل غير تعلمه التلمود مع الملائكة ومع أسموديه ملك

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٣ - ٧٥.

الشياطين في مدرسة في السماء!!. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وأما الهالة التي أضفاها رجال الدين اليهودي على أنفسهم فتتلخص في أنهم أعطوا أنفسهم سلطة إلهية جعلتهم معصومين من الخطأ الذي يثبتونه لله عز وجل، بل إنهم ذهبوا أبعد من ذلك فقال بعضهم «إن الله تعالى يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد معضلة لا يمكن حلها في السماء!. وقد جاء في كتاب حاجيجا: «من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت أكثر ممن احتقر أقوال التوراة، ولا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى.»

وقال كرافت: «إعْلم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء، وزيادة على ذلك يلزمك اعتبار أقوال الحاخامات مثل الشريعة، لأن أقوالهم هي قول الله الحي، فإذا قال لك الحاخام إن يدك اليمنى هي اليسرى وبالعكس فصدق قوله ولا تجادله، فما بالك إذا قال لك إن اليمنى هي اليمنى واليسرى هي اليسرى».

وقال موسى بن ميمون: «مخافة الحاخامات من مخافة الله». وورد في التلمود «ومن يجادل حاخامه أو معلمه فقد أخطأ، وكأنه جادل العزة الإلهية»[1].

أقسام التلمود: وينقسم التلمود قسمين:

١- المشناة: وهي عبارة عن بحوث أحبار اليهود وربانييهم وفقهائهم المنتمين إلى فرقة الفريسيين، في شؤون العقيدة والشريعة والتاريخ المقدس عند اليهود وتتكون من ثلاثة وستين سفراً جمعت في القرنين الأول والثاني الميلاديين. والمشناة تعني

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٠ - ٥٥.

المثنى أو المكرر، أي أنها تكرار وتسجيل لشريعة موسى عليه السلام[1].

٢- الجمارا: وهي عبارة عن شروح للنصوص التي وردت في المشناة، وألفت هذه الشروح في فترة امتدت من القرن الثاني إلى أواخر القرن السادس الميلادي[2].

وقد ألفت تلك الشروح في مدارس فلسطين وفي مدارس بابل في فترة الأسر البابلي، مما أدى إلى وجود تلمودين: تلمود فلسطين أو أورشليم، وهو الأقدم والأقل حجماً، وتلمود بابل ويبلغ حداً كبيراً في الحجم[3] وهو المراد عند الإطلاق.

ولم يسلم التلمود من التحريف على مر العصور، شأنه في ذلك شأن العهد القديم، وفي القرن السابع عشر الميلادي، وبالتحديد في عام ١٦٣١م قرر المجمع الديني لليهود الذي انعقد في مدينة بولونيا حذف الألفاظ التي فيها سب للمسيح وأمه وأتباعه، وتركوا أماكنها بياضاً أو دوائر صغيرة تدل على هذا الحذف. ولم تبق هذه النصوص المحذوفة إلا في نسخة واحدة فقط هي النسخة المطبوعة في البندقية والتي يحتفظ بها اليهود في أماكن سرية لا يطلع عليها إلا كبار أحبارهم[4].

---

(١) علي عبد الواحد وافي، المصدر السابق، ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦، ٢٧.

(٣) بكر زكي عوض، المصدر السابق، ص ٢٠.

(٤) علي عبدالواحد وافي، المصدر السابق، ص ٤٨، ٤٩.

من معالم الشخصية اليهودية

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم التي تتحدث عن تاريخ بني إسرائيل، ومواقفهم من أنبيائهم وعلاقاتهم بغيرهم من الأمم والشعوب، ومن خلال تعاملهم مع أحكام شرائعهم، وتربية الأجيال على نهج محدد، يستطيع -من خلال ذلك- أن يتعرف على معالم الشخصية اليهودية وملامحها، من طبائع وعادات وأخلاق، تتوارثها أجيال يهود جيلاً بعد جيل، على تباين الزمان والمكان.

وتكمن أهمية معرفة معالم الشخصية اليهودية في أنها تكشف حقيقة هؤلاء القوم، وعناصر تكوين شخصيتهم، فتنير لنا سبل التعامل معهم، كما أنها تعطي المسلم ثروة ثقافية، ووعياً سياسياً، يحفظ له كيانه المتميز، كما يحفظ لأمته سيادتها واستقلالها.

وليس المراد من عرض هذه المعالم مجرد تقديم معرفة ثقافية أو تاريخية عن هذه الشخصية، وإنما نهدف إلى بيان منهج التعامل معها بطريقة تُمكِّننا من مواجهتها مواجهة يسقط معها كل خداع نفسي أو ديني.

وليس المقام هنا مقام عرض لجميع مقومات الشخصية اليهودية، وإنما سنكتفي بذكر بعض النماذج التي تشير إلى جوامع خصائصهم النفسية والخلقية[1].

---

(١) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى : عبدالستار فتح الله سعيد، معركة الوجود بين القرآن والتلمود، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ، ص ١١٦ - ١٩٤ . ومحمد عبدالله الشرقاوي، المصدر السابق، ص ٢٣٤ - ٢٦٦ . ومصطفى مسلم محمد، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ص ١٦٢ - ٢٦٢ .

١- الإلحاد المطلق في العقائد:

إن الإلحاد في العقائد من أبرز مقومات الشخصية اليهودية، والذي يتمثل في تطاولهم على العزة الإلهية، وعلى رسل الله عليهم السلام، وعلى ملائكته وكتبه.

وقد جعل القرآن الكريم هذا المعلم مفتاح فهم الشخصية اليهودية وتفسير عقدة الضلال التي لازمتهم عبر العصور.

فقد ارتد اليهود عن منهج الله عز وجل عدة مرات وموسى عليه السلام بين ظهرانيهم، وارتدوا في العصور التالية له كذلك، وعبدوا الأصنام من دون الله وذبحوا لها القرابين.

أما في العصر الحديث فيعد اليهود أئمة الإلحاد في العالم وأصحاب معظم النظريات الإلحادية مثل فكرة تطور الأديان وأنها اختراع بشري. وهم الذين أسسوا الحركة الشيوعية التي لا تؤمن بالله وتقول بأنه «لا إله والحياة مادة» وأن الدين أفيون الشعوب.

وفيما يلي نماذج مما ذكره القرآن الكريم من فساد عقائدهم:

ففي نظرتهم إلى الله يقول: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء . . .﴾ (آل عمران: ١٨١). ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . . .﴾ (المائدة: ٦٤).

وفي نظرتهم إلى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم يقول الله عز وجل: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ (المائدة: ٧٠). ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا

تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ (البقرة: ٨٧).

ويحدثنا القرآن عن نظرتهم إلى الملائكة فيقول: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه، وهدى وبشرى للمؤمنين. من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾ (البقرة: ٩٧، ٩٨) وقد وردت هذه الآيات في سياق الرد على اليهود حيث زعموا أن جبريل عدو لهم.

وأما عن استخفافهم بوحي الله عز وجل وكتبه فيحدثنا القرآن الكريم عنهم قائلاً: ﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ (آل عمران: ٧٨).

٢- قسوة القلوب إلى حد الهمجية والوحشية:

لقد احترف اليهود الذنوب حتى رانت الذنوب على قلوبهم فأظلمت وقست. ومن ثم فقد اقتحم اليهود الكثير من ضروب الكفر، ثم جعلوه دينهم وديدنهم، وطال عليهم الأمد في هذا الضلال فتوارثته الأجيال. وقد أكثر القرآن الكريم من بيان هذه القسوة في قلوبهم لينبه المؤمنين إلى حقيقة هذا الشعب الكنود، فقال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ (المائدة: ١٣). وقد اعترف اليهود أنفسهم بهذه الخصلة فيهم، فقد ذكر القرآن الكريم على لسانهم قولهم: ﴿وقالوا قلوبنا غلف، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾ (البقرة: ٨٨).

بل إن القرآن الكريم كشف لنا عن أغوار النفسية اليهودية واستخرج لنا من مكنوناتها أقسى درجات القساوة حيث فاقت في قساوتها الصخور الصماء، فيقول

مخاطباً اليهود: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله . . .﴾ (البقرة: ٧٤).

«واليهودي إذا وجد الفرصة، وأمن النقمة، تفجرت قساوة قلبه على حقيقتها، واندلعت على هيئتها التي وصف الله عز وجل: عمياء، صماء، تستخف بالحق، وتقتل الأنبياء بغير حق، وترجم الآمرين بالقسط من الناس»[١].

٣- احتراف التزييف والتحريف والجدل:

«لليهود مقدرة عارمة على تزييف الوقائع واختلاقها، وتحريف الحقائق عن مواضعها، حتى كأنها حرفة حياتهم، أو سجية في تركيبهم الخلقي والنفسي، لا يستشعرون في مزاولتها ما يستشعره غيرهم من تأنيب الضمير، ولوم النفس»[٢].

ومعرفة هذه الصفة فيهم أمر في منتهى الأهمية في فهم الشخصية اليهودية لكي نتعامل معهم على بينة. ولذلك فقد بينه القرآن الكريم تبياناً لا يدع مجالاً لريبة مرتاب. قال تعالى: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ (المائدة: ١٣). وقال: ﴿ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك، يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ (المائدة: ٤١). ويؤكد القرآن الكريم على أن هذا التزوير والتحريف ليس عن جهل وغفلة، بل هو متعمد مع سبق الإصرار فيقول: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا﴾ (النساء: ٤٦). ولكي لا يبقى أي شك لدى بعض المترددين المتشككين من أبناء جلدتنا، ويقطعوا الأمل فيهم تماماً، يقول تعالى: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٣.

منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ (البقرة: ٧٥).

وقد بلغوا القمة في التحريف والتزوير حين اختلقوا التلمود وملؤوه بالأكاذيب والأباطيل والكفر والضلال، ونسبوه إلى الله عز وجل بهتاناً وزوراً. وقد ندد القرآن الكريم بهم وبفعلتهم هذه فقال تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون﴾ (البقرة: ٧٨، ٧٩).

وقد كانت جناية اليهود الكبرى في التحريف والتزوير أن أباحوا لأنفسهم الخيانة والقتل والسرقة، والتعامل بالربا، وسائر الموبقات، وجعلوها دينا ونسبوها للوحي الإلهي، حيث صارت الجرائم عندهم قربات، والمفاسد عبادات، والكبائر والفواحش ضرباً من ضروب التقوى، أو -في أقل الأحوال- حلالاً مباحاً لا تثريب على اليهودي في ارتكابه[1]. قال تعالى: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ (آل عمران: ٧٥).

٤- نقض العهود والمواثيق:

عندما يوقع اليهود عهداً مع غير اليهودي فإنهم ينظرون إليه على أنه حالة اضطرارية لتحقيق مصلحة آنية، أو ضرورة مرحلية لتحقيق مكاسب لا يستطيعون تحقيقها بالخداع والتزوير، أو أنه أمر مضطرون إلى توقيعه خشية البطش بهم أو حتى

---

(١) المصدر السابق، ص ١٢٨، ١٢٩.

لا تتعرض مصالحهم المادية للخطر. وبمجرد أن يستنفد هذا العهد أغراضه، وتنتهي الظروف التي اضطرتهم إلى توقيعه، فإنهم سرعان ما يبادرون إلى نقضه، دون النظر لأي اعتبارات خلقية أو أدبية، لأنهم ينظرون إلى هذا العهد على أنه قيد يقيد تصرفاتهم ويحد من حرية حركتهم للوصول إلى أهدافهم التي يسعون لتحقيقها.

وهذا الأمر ليس أمراً عابراً، أو صفة طارئة في مرحلة من مراحل تاريخهم، بل هو دينهم وديدنهم، منذ وجدوا على ظهر هذا الكوكب وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الصفة فيهم، وبين استمرارها وتكرارها، يقول تعالى: ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون﴾ (الأنفال: ٥٦).

يقول الأستاذ الدكتور عبدالستار فتح الله سعيد: (ومن يقرأ «التلمود» الحقود يعرف البواعث المحركة والمهيجة لهذا الأسلوب اليهودي المنكر، بل يرى أن هذا الإجرام الخطير هو «دين التلمود»، يعد بالثواب الجزيل على فعله، ويتوعد بالإثم والعذاب المهين على تركه!! إن «الجوييم» - غير اليهود - في نظرهم كفرة، ووثنيون، بل هم بهائم وحمير خلقت لخدمة «الشعب المختار»!! وهي لم تُعْطَ هذه الصورة تكريماً لها، وإنما لإيناس «السادة من بني إسرائيل»، ولهذا فلا عهد ولا حرمة، ولا عقد ولا وفاء!! هذه هي عقيدة التلمود التي أشربتها نفسية اليهود)[1].

وقد بلغ بهم اللؤم في نقض العهود والمواثيق مبلغاً جعلهم يتبعون سياسة خاصة، بحيث تنبذ العهد طائفة منهم وتبقى طائفة أخرى محافظة عليه، حتى لا يتعرضوا للاستئصال، كما وصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿أوَ كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم، بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ (البقرة: ١٠٠).

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٧.

لقد نقض اليهود عهدهم مع الله عز وجل، ومع أعظم أنبيائهم موسى عليه السلام والنبيين الذين أرسلوا إليهم من بعده، ومع نبينا محمد ﷺ، ولا يزالون ينقضون العهود والمواثيق حتى اليوم، فكم هدنة وقعها العرب معهم فنقضوها! ولن تكون معاهدات السلام -أو الاستسلام- التي توقعها الحكومات العربية مع العدو اليهودي إلا حلقات في سلسلة نقض العهود والمواثيق التي عرف بها يهود، ولن تعود الحكومات العربية من وراء هذه المعاهدات إلا بالذلة والمهانة والخزي، والأيام بيننا وبينهم.

٥- الحقد والحسد:

تنطوي شخصية اليهودي على حقد أسود وحسد عارم للناس عامة، وللمؤمنين على وجه الخصوص. والطامة الكبرى تكمن في أنهم جعلوا هذا الحقد والحسد ديناً يتقربون به إلى الله تعالى.

وقد كشف لنا القرآن الكريم عن هذه الصفة المتأصلة في الشخصية اليهودية فقال تعالى مستنكراً عليهم هذا الأمر: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ (النساء: ٥٣، ٥٤).

وقال تعالى مؤكداً هذه الصفة فيهم: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ (البقرة: ١٠٥).

لقد استقرت قبائل من اليهود في يثرب انتظاراً لظهور النبي الخاتم الذي ذكرت كتبهم المقدسة أنه سيظهر في جزيرة العرب وسيكون مهاجره منطقة رأى هؤلاء اليهود أن أوصافها المذكورة في كتبهم تنطبق على يثرب (المدينة المنورة)، وكانوا كلما تعرضوا لإيذاء أو مضايقة من الأوس والخزرج يقولون لهم: إنه سيظهر نبي في آخر الزمان وسيهاجر إلى هنا وسنؤمن به ونتبعه، ونقاتلكم معه وننتصر

عليكم. فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به. وكان الحقد والحسد السبب الوحيد لكفرهم لأن هذا النبي ^ لم يكن من بني إسرائيل. ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ (البقرة: ٨٩).

ولم يقف حقدهم عند حد كفرهم بهذا الدين الحق، بل تعدى الأمر إلى حسد المؤمنين على هذه النعمة التي أنعمها الله عز وجل عليهم فتمنوا أن تزول عنهم. قال تعالى كاشفاً عمّا تنطوي عليه نفوسهم من حسد للمؤمنين: ﴿ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ (البقرة: ١٠٩).

بل بلغ بهم الحقد والحسد مبلغاً جعلهم يخونون الرسالة الإلهية ويسجدون للأصنام لإقناع مشركي العرب أن ما هم عليه من الضلالة أفضل من الهدى الذي جاء به محمد ﷺ، ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾ (النساء: ٥١).

لقد أعلنها القرآن الكريم صيحة عالية مدوية، تُسمع آذاناً صما، وتبصر أعيناً عميا، وتفهم قلوباً غلفاً ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود . . .﴾ (المائدة: ٨٢).

وحذرنا من موالاتهم والثقة بهم واتخاذهم بطانة ومستشارين فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (المائدة: ٥١)، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً، ودوا ما عنتم، قد

بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ (آل عمران: ١١٨).

وقد خرج من بين ظهرانينا أناس من بني جلدتنا - في قلوبهم مرض -، يدَّعون أن اليهود أصدقاء لنا، وأنه من الممكن أن نتخذهم أولياء، وأن نتعايش معهم في سلام ووئام ومحبة.

فالله عز وجل يقول إن اليهود أشد الناس عداوة لنا ويحذرنا من أن نتخذهم أولياء وبطانة، وهؤلاء القوم الذين في قلوبهم مرض من بني جلدتنا يقولون عكس ذلك، ويسعون إلى اتخاذهم أولياء وبطانة وأصدقاء. فمن نصدق؟!! ومن نتبع؟!! اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهو والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين. فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين. ويقول الذين آمنوا: أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم؟! حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين. يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم. إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (المائدة: ٥١ - ٥٦).

٦- الإفساد في الأرض:

يقول الدكتور أوسكار ليفي اليهودي: (نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه، ومحركي الفتن فيه وجلاديه).

وهذا أمر متوقع من أناس قلوبهم أقسى من الحجارة، وأحبار السوء فيهم يمدونهم في الغي، ويضعون لهم الخلفية الدينية التي تبرر كل منكر، وتسوغه للضمير اليهودي بنسبته إلى الوحي الإلهي. فما حل اليهود في مكان إلا وأثاروا فيه الفتن، وأوقدوا فيه الحروب، وسيطروا على خيراته بالربا، ونشروا فيه الفواحش والرذائل، وكانوا أداة إفساد وتدمير لا تعرف خلقاً ولا رحمة، ولا عهداً ولا ذمة[1].

وقد بين القرآن الكريم -في مواضع شتى- إفساد اليهود في الأرض وأن هذا الأمر فيهم قديم، وأنه مستمر فيهم إلى يوم القيامة، منها قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون. قل هل أنبؤكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل. وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون. وترى كثيراً منهم يسارعون في الأثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون. لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت، لبئس ما كانوا يصنعون. وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، ويسعون في الأرض فساداً والله لايحب المفسدين﴾ (المائدة: ٥٩ - ٦٤).

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٢.

يبين الله عز وجل في الآيات السابقة أن سر نقمة اليهود على المؤمنين يكمن في إيمانهم بالله ورسالاته، وأنهم «شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل» أي أنهم أصل الشر وقاعدته، وأنهم منافقون يتلونون بألوان المواقف والأحداث، مع الإصرار على الكفر الباطني في كل حال، وأنهم متهافتون في التخريب والاعتداء وأكل الحرام في أبشع صوره، ولا يزيدهم الحق إلا طغياناً وكفراً، فهم أعداء الحق دائماً، وهم وقادوا الفتن والحروب بين الشعوب، وأنهم يجدون دائماً في الإفساد في الأرض[1].

والمتتبع لتاريخ الحروب في العالم والأسباب الخفية لإثارتها يجد أنها لم تخل -في أي فترة زمنية- من دسائس يهودية وأصابع لرجالاتهم وعملائهم في إشعال شرارتها. فقد استطاع اليهود أن يجندوا طاقات الملوك والأباطرة والشعوب في أوروبا لمحاربة المسلمين قرابة قرنين من الزمان (١٠٩٥ - ١٢٧١م) تحت شعار تخليص الديار المقدسة من أيدي المسلمين، هذه الحروب التي عرفت بالحروب الصليبية، وكانت هذه فرصة ذهبية لهم لإقراض الدول الأوروبية والكنيسة أموالاً بالربا الفاحش والمتاجرة بالعتاد والأسلاب، إلى جانب المكاسب السياسية التي حققوها المتمثلة في إضعاف قوة الإسلام والمسيحية معاً[2].

وفي العصر الحديث خطط اليهود لثلاثة حروب عالمية: تؤمن الحرب العالمية الأولى الإطاحة بالحكم الملكي في روسيا، وتجعل تلك المنطقة من العالم المعقل المركزي للحركة الشيوعية الإلحادية. وتؤمن الحرب العالمية الثانية اجتياح الحركة العالمية الهدامة الأولى (الشيوعية) لنصف العالم ووصولها إلى درجة من القوة تعادل

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٣ - ١٤٧.

(٢) وليم كار، اليهود وراء كل جريمة، شرح وتعليق خيرالله الطلفاح، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص ٦٠ - ٦٣.

مجموع قوى العالم الغربي مما يمهد للمرحلة الثالثة[1]. أما الحرب العالمية الثالثة «فينص مخططهم لهذه الحرب على التمهيد لهذه الكارثة الشاملة عن طريق تصدي الصهيونية السياسية للزعماء المسلمين في العالم الإسلامي وشنها حرباً ساحقة على الإسلام باعتباره القوة الأخيرة التي ستقف اتجاه قوى الشر. ويرمي المخطط إلى تدمير العالم الإسلامي وعقيدته بواسطة الصهيونية السياسية التي ستدخل هي الأخرى في هذه الحرب ومعها دولة النورانيين في فلسطين. وسيكون من شأن هذه الحرب التي ستزج فيها شبكات النورانيين الخفية دول العالم أجمع لتؤدي بالإنسانية بأكملها إلى هوة عميقة تودي بالأخلاق والفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والمادي»[2].

وقد كان اليهود وراء فكرة إنشاء عصبة الأمم ومن بعدها هيئة الأمم المتحدة ليتمكنوا من السيطرة على العالم من خلال السيطرة على مؤسسات هذه الهيئات أو من يسيرونها. يقول وليم كار: (ولم تنس المؤامرة الالتفات إلى عصبة الأمم التي نصت معاهدة فرساي على إنشائها، فبثت عملاءها وخلاياها في أوساط هذه العصبة منذ منشئها حتى استطاعت فيما بعد أن تجعلها آلة بيد مجموعة المرابين العالميين اليهود.. وهذا ما سمح فيما بعد للصهيوني المعروف ناحوم سوكولوف رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيوني المعروف بالمفاخرة في هذا المؤتمر قائلاً يوم ٢٥/أغسطس/١٩٥٢م: إن عصبة الأمم فكرة يهودية.. وقد نقل هذا القول عنه حرفياً الكولونيل م. هـ. سين الأمريكي ونشره في كتابه «اليد الخبيثة» الذي ألفه لتحذير الشعب الأمريكي من الخطر الصهيوني..

ونشير بهذ المناسبة بصورة خاصة إلى ما قاله واحدٍ من أكثر الأشخاص اطلاعاً في العالم، هو رئيس تحرير جريدة التايمز الإنجليزية الكبرى (ويكهام سيد)،

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٦، ٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨.

وقد أشار عدة مرات إلى النفوذ الخفي الذي يمارسه سادة المال العالميون اليهود، وأصدر بشأنهم الحكم التالي في مؤلفه الضخم بعنوان «عبر ثلاثين عاماً» ص ٣٠١ - ٣٠٢ : «إنني ألح بصورة خاصة في القول بأن الذين يسيطرون على القضايا العالمية هم سادة المال العالميون، وبأن محركي الأحداث بصورة خاصة كانوا أثناء مؤتمر السلام يعقوب شيف ومجموعة واربورغ وبعض الماليين الآخرين الذين لا يهدفون إلا إلى شيء واحد: وهو تأمين هيمنة اليهود على أوروبا وعلى ألمانيا خاصة»[1].

ومن أراد الاطلاع على المزيد عن دور اليهود في إيقاد الفتن وإشعال الحروب في العالم ومخططاتهم للسيطرة عليه سياسياً واقتصادياً، فعليه أن يرجع إلى الكتاب القيم الذي كتبه وليم كار تحت عنوان : «اليهود وراء كل جريمة».

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩٦ .

٣ - خطط اليهود (ع)

اليهود في العصر الحديث

دفعت التعاليم اليهودية الواردة في التوراة المحرفة والتلمود اليهود إلى السعي الدائم من أجل السيطرة على العالم وتسخيره لخدمة الشعب المختار! ومن أجل تحقيق أهدافهم الشريرة أنشأوا الجمعيات والمنظمات السرية التي تولت أمر التخطيط ورسم الطريق أمام اليهود للوصول إلى أهدافهم.

ويكوّن اليهود في العالم حكومة خفية يديرها ثلاثمائة يهودي ممن أطلقوا على أنفسهم لقب (حكماء صهيون) ينتخبون دائماً شخصاً يعدونه ملكاً وارثاً لملك داوود وسليمان، ولا يعلنون عن اسمه، وكلما مات ملك عينوا بدلاً منه من بين أحبار اليهود. ولا يخفي اليهود خططهم هذه، واعترف بها كثير من كتابهم، ورجال الدين والمال فيهم، وقد ذكر المليونير اليهودي ولتر راثنو Walter Rathenau في جريدة The Wiener Press الألمانية بتاريخ ١٩٠٩/١٢/٢٥م:

«هنالك ثلاثمائة رجل كل منهم يعرف جميع زملائه الآخرين، يتحكمون في مصير أوروبا، إنهم ينتخبون خلفاءهم من الأشخاص المحيطين بهم، وهؤلاء اليهود يملكون الوسائل التي تمكنهم من القضاء على أية حكومة لا يرضون عنها»[1].

ولقد شبه اليهود أنفسهم حكومتهم المستورة بالأفعى السامة التي بدأ

---

(١) نقلاً عن: عبدالله التل، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، المكتب الإسلامى، بيروت، ط٣، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م، ص١٣٥.

رأسها المميت من فلسطين بعد خراب الهيكل سنة ٧٠م لتخريب العالم، وذنبها باق في فلسطين، ولا يعود الرأس للالتقاء بالذنب إلا بعد تدمير العالم والتربع على أنقاضه تحت حكم ملك يهودي يحكم العالم من القدس.

وبناءً على ما تقدم فإننا أمام صورة واضحة لليهود في العصر الحديث، إنهم القوة الخفية التي تحاول أن تتحكم في مقدرات العالم من أجل السيطرة عليه. ويمكننا القول إن اليهود استطاعوا أن يصلوا إلى هذا الهدف الكبير من خلال عدة مخططات نفذوها بعقول شيطانية، وأهم هذه المخططات:

١- السيطرة المالية والاقتصادية عن طريق البنوك الربوية التي يسيطر عليها اليهود.

٢- هدم الأديان.

٣- تزييف التاريخ.

٤- نشر الدعوات الهدامة التي تدعو إلى المادية والإلحاد والإباحية، مثل دعوات ماركس ولينين وفرويد وداروين وغيرهم.

١- السيطرة المالية والاقتصادية:

وأما عن السيطرة المالية والاقتصادية، فقد كان عن طريق الربا الذي كان مدخلاً أساسياً لمخططهم، فقد كان التركيز شديداً على فتح الباب أمام إغراء الربا بالاستدانة، والإشراف، وكان لابد من تبرير هذه المفاهيم وإغراء الأمم والشعوب بها حتى تندفع إليها، وقد استطاعت اليهودية التلمودية فعلاً

محاصرة المجتمع الغربي والسيطرة عليه ونقله من مفاهيم المسيحية التي تحرم الربا والحرب والفساد إلى الاندفاع شوطاً بعيداً في السيطرة الاستعمارية والإبادة وقتل الأبرياء والسيطرة على مقدرات الأمم.

ولقد عثر على نص خطبة ألقاها الحاخام Reichorn في اجتماع سري عقده اليهود على قبر قديسهم سيمون بن يهودا في مدينة براغ سنة ١٨٦٩م، ونشرت هذه الوثيقة في مجلة Cantemporain بتاريخ ١/ ٧/ ١٨٨٠م، ومما جاء فيها:

(الذهب أعظم قوة في عالم الذهب، إنه قوة وفي الوقت نفسه هبة، إنه يؤَمِّن جميع أنواع السعادة . . . هنالك يكمن السر، وعمق المعرفة بالروح التي تحكم العالم! هنالك نملك المستقبل!)[1].

٢- هدم الأديان:

وهدم الأديان هي وسيلة اليهود المهمة، فمنذ أن حرفت اليهود توراة موسى، وهم يسعون إلى تحريف الأديان التي جاءت بعده، لذلك عملوا على تحريف المسيحية، وأرادوا تشويه صورة الإسلام بعد أن فشلوا في تحريفه . . ومن هذا المنطلق كانت حملتهم على الدين بعامة، فهم الذين حملوا لواء محاربة الأديان وتصويرها بأن البشرية لم تعد في حاجة إليها وأنها كانت مرحلة في تاريخ البشرية.

يقول الحاخام Reichorn: (قيل بأن عدداً من إخواننا اليهود

---

(١) نقلاً عن: عبدالله التل، المصدر السابق، ص١٣٨.

تنصروا. وماذا يضيرنا؟! إن هؤلاء اليهود الذين يتعمدون بأجسادهم ستظل أرواحهم يهودية، وسوف يكونون مشعلاً نستنير به في اكتشاف خبايا النصرانية، ومساعدين لنا على رسم الخطط التي تدمر المسيحية)[1].

٣- تزييف التاريخ:

وإذا ما جئنا إلى تزييف التاريخ فقد كان قائماً على أمرين رئيسين:

أولها: إنكار حق آل إبراهيم من الوعد الإلهي وقصره على بني إسرائيل، وإنكار رحلة إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز وبناء الكعبة.

ثانيها: تزييف تاريخ السلطان عبد الحميد ووصفه بالسلطان الأحمر والحاكم المستبد وتأليب القوى المختلفة عليه، لأنه وقف دون تمكين اليهود من إقامة وطن قومي لهم في فلسطين.

٤- نشر الدعوات الهدامة:

ولما كانت الحكومة اليهودية المستورة غير قادرة على التحكم في مصائر الشعوب والحكومات مادام هناك دين وأخلاق، فقد كان من أول أعمال تلك الحكومة القضاء على الدين والأخلاق عند شعوب العالم.

فقد حمل اليهود كل الفلسفات الهدامة القديمة إلى العصر الحديث، وابتعثوها وفق منهج محدد يقوم على العلم والعقلانية التجربة العلمية،

---

(١) مجلة Cantemporain بتاريخ ١/ ٧/ ١٨٨٠م، نقلاً عن: عبدالله التل، المصدر السابق، ص١٤٠.

وكان هدف نشر هذه الدعوات :

١- هدم الأخلاق والأسرة.

٢- التفسير المادي للتاريخ.

فجاء فرويد بنظريته عن الجنس والنفس، وقام ماركس بإعلان الشيوعية في نظريته عن التاريخ والمادة، وأعلن دارون نظريته التي تزعم أن أصل الإنسان كان حيواناً، لذلك فلا شيء يمنع من عودته في أخلاقه إلى تلك الأصول الحيوانية.

يقول الحاخام Reichorn : (إذا كان الذهب هو القوة الأولى، فإن الصحافة هي القوة الثانية، ولكن الثانية لا تعمل من غير الأولى. فعلينا بواسطة الذهب أن نستولي على الصحافة، وأن نبذل المال لمن نجد نفوسهم مفتوحة لتقبل الرشوة، وحينما نسيطر على الصحافة نسعى جاهدين إلى تحطيم الحياة العائلية والأخلاق والدين والفضائل. شعبنا محافظ مؤمن متدين، ولكن علينا أن نشجع الانحلال في المجتمعات غير اليهودية، فيعم الفساد والكفر، وتضعف الروابط المتينة . . . فيسهل علينا السيطرة عليها وتوجيهها كيفما نريد)[1].

ونظرية فرويد من أهم النظريات التي أثرت في الفكر الغربي في العصر الحديث، وفرويد يزعم أن كل الميول والآداب والدين والخلق والأحداث التاريخية والعلاقات الأسرية تعود إلى الغريزة الجنسية . . واستطاع بذلك أن ينفث السم في أرجاء المعمورة بالقول بأن الجنس البشري

---

(١) عبد الله التل، المصدر السابق، ص ١٤١.

متحلل ينطوي على أسوأ النوايا وأخس الرغبات.

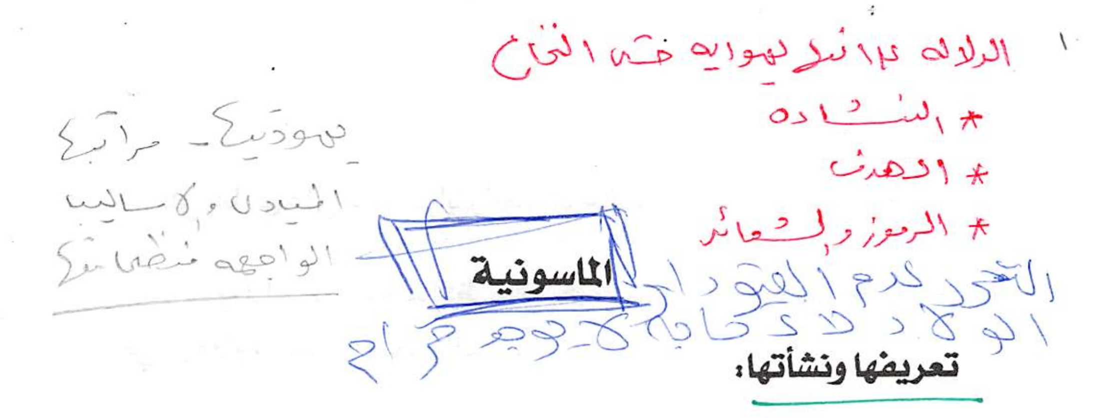
وقد استطاعت هذه النظرية السيطرة على الفكر الغربي، وهذا يتضح في الإعلام والصحافة وغير ذلك[1].

واستطاع اليهود تنفيذ هذه المخططات والوصول إلى الكثير من الأهداف عن طريق منظمتين سريتين ، الأولى خارجية ، وتعمل على تأمين عمل غير اليهود في نفس المخطط اليهودي والتي أطلق عليها اسم (الماسونية). والثانية داخلية وتعمل على تأمين عمل اليهود في تنفيذ المخطط، وهي الحركة الصهيونية.

ومن خلال هاتين المنظمتين استطاع اليهود في العصر الحديث أن يسيطروا على مقدرات الأمم والشعوب، وأن يسخروها لخدمة أهدافهم في إقامة مملكة إسرائيل لتكون بعد ذلك سيدة العالم -كما يحلمون ويخططون.

---

(١) أنور الجندي، المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م، ص ١١٣ - ١٦٧.



الماسونية

تعريفها ونشأتها:

جاءت تسمية الماسونية من كلمة Mason التي تعني بالإنجليزية والفرنسية (البنّاء)، وتضاف إليها عادة لفظة أخرى هي Free ومعناها بالإنجليزية (حر) فتصبح Freemason أي (البنّاء الحر)[١].

والماسونية تنظيم يهودي له طابع عالمي، يندس في المجتمعات بقصد التحكم في مقدراتها ومصائرها، ويكوّن حكومة عالمية سرية تعمل على تمكين اليهود من تحقيق حلمهم المنتظر في إقامة دولة «إسرائيل الكبرى» (من الفرات إلى النيل)، وإعادة بناء هيكل سليمان (معبده) على أنقاض المسجد الأقصى، ثم الانطلاق -بعد ذلك- إلى حكم العالم كله، وإخضاع كافة الشعوب الأممية (غير اليهودية) لحكم ملك من بني صهيون[٢].

يقول المستشرق الهولندي (دوزي): إنها جمهور كبير من المذاهب المختلفة يعملون لغاية واحدة هي: إعادة هيكل سليمان وإقامة دولة إسرائيلية[٣].

---

(١) حمود الرحيلي، الماسونية وموقف الإسلام منها، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ص١١.

(٢) سعد الدين السيد صالح، الماسونية في أثوابها المعاصرة، مكتبة الصحابة، جدة، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ص١٧ - ١٨.

(٣) محمد علي الزعبي، الماسونية في العراء، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٨هـ، ص٢٢.

والواقع أن إطلاق اسم الماسونية على هذا التنظيم إطلاق حديث يعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي، وأما الاسم الأصلي لها منذ نشأتها فهو: «**القوة الخفية**».

ولا نستطيع أن نجزم بتاريخ محدد لنشأة الماسونية، بل إن الماسون أنفسهم لا يستطيعون ذلك لأن تاريخها مرتبط بتاريخ كثير من الدعوات التي أسسها اليهود في العصور القديمة[1].

إلا أننا نجد كثيراً من الباحثين يذكرون أن أول من أنشأها هو (هيرودس إكريبا) الثاني الذي كان والياً يهودياً على القدس من قبل دولة الرومان، حيث أسس بالاشتراك مع مستشاريه اليهوديين (أحيرام) و(موآب) جمعية سرية باسم (القوة الخفية). وكان هدفها مقاومة دعوة المسيح عليه السلام، لأنه كان يبشر بزوال هيكل سليمان، حتى لا يبقى فيه حجر يلامس حجراً. وكان هدفها -أيضاً- ملاحقة الفئة المؤمنة بذلك الرسول، وتشريدها، وكان لهذه الجمعية مجلس سري مؤلف من تسعة أعضاء على رأسهم المذكورون الثلاثة[2].

وقد مرت الماسونية بعد ذلك بمراحل عديدة تهمنا منها مرحلة القرن الثامن عشر، الذي شهد -مع القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين- تطور النفوذ اليهودي وتغلغل سلطانهم عن طريق الماسونية في جميع الحكومات الأوروبية والأمريكية.

---

(١) سعيد عبد الله حارب، أضواء على الحركة الماسونية، مكتبة الأمة، دبي، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، ص١٧.

(٢) حمود الرحيلي، المصدر السابق، ص٢٠.

ففي سنة (١٧١٧م) أعاد اليهود النظر في تعاليم الماسونية ورموزها وغيروا فيها لتناسب الجو البروتستانتي في بريطانيا والولايات المتحدة. وأسسوا في ذلك العام محفل بريطانيا الأعظم وأطلقوا على أنفسهم اسم (البنائين الأحرار). وجعلوا من أهداف الماسونية الخادعة (الحرية والإخاء والمساواة). وهي أهداف زائفة لا هدف لها إلا خدمة اليهودية العالمية وتأمين سيطرتها على العالم، ثم ما لبث المحفل الماسوني الأعظم في بريطانيا أن كشف عن بعض نواياه حين جعل من أهداف الماسونية:

١- المحافظة على اليهودية.

٢- محاربة الأديان.

٣- بث روح الإلحاد والإباحية بين الشعوب.

ومن بريطانيا انتشر أخطبوط الماسونية، فتأسس بإشراف محفل بريطانيا الأعظم العديد من المحافل في أوروبا وأمريكا وآسيا[1].

حقيقتها:

ينكر بعض المنتسبين إلى الماسونية أية صلة لها باليهودية والصهيونية، ويدعون بأن الماسونية جمعية خيرية لا علاقة لها بالأديان ولا بالسياسة. لكن الحقيقة -كما ذكرنا سابقاً- أن الماسونية منظمة يهودية من رأسها إلى قدمها، يهودية أماً وأباً، وروحاً ونشاطاً، فهي: (١) يهودية النشأة، (٢) يهودية الغاية والهدف، (٣) يهودية الرموز والشعائر.

---

(١) عبد الله التل، المصدر السابق، ص ١٤٣- ١٤٤.

أما عن كونها **يهودية النشأة** فقد أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن نشأة الماسونية.

وأما عن كونها **يهودية الغاية والهدف**، فمما لا يخفى على أحد أن الهدف الأساسي لليهود هو إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، وهو أيضاً الهدف الرئيس للحركة الماسونية. ذكر أحد كبار الماسونيين (أ. س. ماكبرايد) في كتابه: (الماسونية التأملية: رسالتها وتطورها ومعالمها) فقال: «لأن رسالة الماسون هي بناء المعبد، فالماسوني الحق هو الذي يعمل بصدق لإقامة هذا المعبد، إن هذا هو المحفل الحقيقي للأخوة الإنسانية، وهو موجود من أجل بناء المعبد (هيكل سليمان)، إنه المصنع الذي تصاغ فيه أرواح الناس وتُشكَل لتلائم المعبد المثالي الأعظم، هذه هي الغاية الرئيسة ألف ياء المحفل. إن معبد سليمان هو أنموذج المثل الأعلى والهدف المركزي في التراث الرمزي للماسونية»[1]

وقد جاء في البروتوكول الرابع من بروتوكولات حكماء صهيون ما يلي: «إن المحفل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم ليعمل في غفلة كقناع لأغراضنا، ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا وفي مركز قيادتنا ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيراً»[2]

وورد في النشرة اليهودية "La Verite Israelite" عام ١٨٦١م: « إن

(١) محمود ثابت الشاذلي، الماسونية؛ عقدة المولد وعار النهاية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) محمد خليفة التونسي، الخطر اليهودي: بروتوكولات حكماء صهيون، مؤسسة دار العلوم، الكويت، ١٩٧٧م، ص١٦٣.

روح الماسونية الأوروبية هي روح اليهودية في معتقداتها الأساسية، لها نفس المثل واللغة، وفي الأغلب نفس التنظيم والآمال التي تنير طريق الماسونية وتدعمها، وهي الآمال التي تنير طريق إسرائيل وتدعمه، ومكان تتويجها هو بيت العبادة البديع حيث تكون القدس رمزاً وقلباً منتصراً».

وقد ورد في النشرة اليهودية «الماسونيون الأوروبيون» "European Freemason's" الصادرة في نيويورك عام ١٩٠١م: «إن الماسونية الأوروبية تشيد بناءً حيث يعيش إله إسرائيل إلى الأبد».

وقالت إحدى النشرات اليهودية "Le Symbolisme" في عدد يوليو ١٩٢٨م: «إن أعظم واجب للماسوني الأوروبي هو تمجيد الجنس اليهودي».

وأما عن كونها **يهودية الرموز والشعائر**: فيقول الحاخام الدكتور إسحاق وايز Isaac Wise في مجلة «إسرائيليو أمريكا» "The Israelite of America"، عدد ٣/٨/١٨٦٦م: «الماسونية مؤسسة يهودية في تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها، وفي إيضاحاتها. يهودية من البداية حتى النهاية».

وقد ورد في دائرة المعارف اليهودية، طبعة ١٩٠٣م، الجزء الخامس، صفحة ٥٠٣ النص التالي: «إن اللغة الفنية والرموز والطقوس التي تمارسها الماسونية الأوروبية ملأى بالمثل والاصطلاحات اليهودية. ففي محفل اسكوتلندا تجد التواريخ الموضوعة على المراسلات والوثائق الرسمية، كلها بحسب تقويم العصر والأشهر اليهودية، وتستعمل كذلك الأبجدية

العبرية»[1].

وهكذا نجد من اعترافات اليهود أنفسهم أن الماسونية وجدت لخدمة أهداف اليهود الشريرة، وتسهيل عملية استيلائهم على عقول القادة والرؤساء وتحطيم نفوسهم وتحويلهم إلى عبيد يؤمنون بالماسونية ويكفرون بالله وبالوطن، ويتنكرون لأمتهم ويضعون أنفسهم تحت تصرف الماسونية تستخدمهم معاول هدم في كيان الشعوب والأوطان والحكومات غير اليهودية.

شعار الماسونية:

ترفع الماسونية شعاراً مخادعاً هو: «الحرية والإخاء والمساواة» بين جميع الناس بصرف النظر عن دينهم أو عقيدتهم أو جنسهم، بالإضافة إلى شعار الخدمة الاجتماعية ومساعدة المحتاجين.

ولقد انطلت ألاعيب الماسونية (في الحرية والإخاء والمساواة) على الغرب والشرق وانضم إليها كثير من قادة العالم ورؤسائه ومفكريه. وتغلغلت الماسونية في الأسر المالكة في أوروبا.. وانساق كثير من العرب البارزين في تيار الماسونية إما عن جهل أو عن طمع في مساعدة لتحقيق مأرب. ورغم كل الذي نشر عن تاريخها وأسرارها ودسائسها وأخطارها، سمحت بعض الحكومات الغربية بتغلغل محافل الماسون في البلاد

---

(١) الاقتباسات السابقة منقولة من: عبدالله التل، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، ص ١٤٨ - ١٤٩.

العربية[1].

ولم تكن الماسونية تهدف من رفع هذه الشعارات البراقة إلى تطبيق حقيتها، وإنما كانت تهدف إلى تحقيق أهداف أخرى منها:

١- تذويب الفوارق والحواجز بين اليهود وغيرهم، خصوصاً وأن اليهود - في أوروبا- كانوا يعيشون معزولين عن الناس، لا يسمح لهم بالاختلاط بالمجتمعات، وذلك بسبب أخلاقهم الذميمة، فرفعوا هذه الشعارات لكي يعطوا أنفسهم فرصة الدخول إلى المجتمعات والتحكم في مقدراتها.

٢- خداع الناس بإظهار الماسونية على أنها مركز خدمة الإنسانية.

٣- محاولة جمع الناس حول هذه الشعارات البراقة، لأن من الناس من تستهويه هذه الشعارات، فينضم إلى هذه الأوكار، ثم يستخدم -بعد ذلك- في تحقيق الأغراض الحقيقية التي من أجلها أنشئت الماسونية.

وإذا كانت الماسونية جمعية خيرية -كما يزعمون- فهل عمل الخير وخدمة المجتمع يحتاج إلى كل هذا التنظيم والسرية والأيمان التي يحلفها العضو على عدم إفشاء الأسرار؟!!.

وإذا كانت الماسونية تدعو إلى المساواة والإخاء بين الجميع، وعدم التفرقة، فلماذا تصر على ألا ينضم إليها إلا علية القوم الذين يُختارون بمواصفات خاصة؟!.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٥١.

وأما الحرية التي رفعتها الماسونية كشعار لها، فلم يكن الهدف منها الحرية الحقيقية، بل حرية الهدم والفوضى التي تجعل من كل فرد عالَماً مستقلاً، كما كان يقول روسو -أحد أعضاء المحفل الماسوني الفرنسي-: «إن كل الناس أحرار بالطبيعة، وعلى ذلك فيجب ألا يخضع إنسان لآخر، أو ينتحل لنفسه حقاً في حكمه»، ومعنى ذلك أن يتفكك المجتمع، لأن كل فرد يبحث عن حريته بصرف النظر عن حق الآخرين[1].

وتنص تعاليم الماسونية السرية على تقديس الجنس والحرية التامة لنشر الإباحية، فقد ذكر آرنولد ليسي Arnold Leese في كتابه «البناء الحر» ما يلي: «إن أمنيتنا هي تنظيم جماعة من الناس يكونون أحراراً جنسياً، نريد أن نوجد الناس الذين لا يخجلون من أعضائهم التناسلية .. لابد من النصر المحقق إذا استطعنا أن نغذي الشباب منذ سنوات أعمارهم الأولى بأسس هذه الآداب الجديدة، على الشباب أن يدركوا منذ ولادتهم أن أعضاء التناسل مقدسة»[2]

مراتب الماسونية:

والماسونية لا تفتح أبوابها لكل الناس، إنما تختار صفوتهم، فالأعضاء الذين يختارهم القائمون على المحفل الماسوني هم جماعات مختلفون في المشارب، وكذا في الأهواء والاتجاهات .. يتخيرهم اليهود من بين رجالات السياسة والاقتصاد، ومن بين الشبان والشيوخ .. ومن بين

---

(١) سعد الدين السيد صالح، المصدر السابق، ص ٣٣ - ٣٥.

(٢) Arnold Leese, Freemasonry, London. نقلاً عن: عبدالله التل، المصدر السابق، ص١٥٠.

هؤلاء الأعضاء يُعد الماسون رجال الحكم في الدولة من القادة السياسيين، وكذلك قادة الرأي وحملة الأقلام. . ولكي يضمن اليهود آخلاص هؤلاء لهم، والاستجابة من غير مراجعة، يعمد اليهود إلى إغراق هؤلاء التلاميذ في بحر من الشائنات والفضائح يسجلونها عليهم، مسموعة، أو مصورة، ويحتفظون بها ، ليبقى كل عضو تحت التهديد بتلك الفضائح[1].

وعندما يقرر قبول أحد الأفراد في الماسونية ، يتقدم ليقسم قسم الماسون ونصه كما يلي:

«أقسم بمهندس الكون الأعظم، أنني لا أفشي أسرار الماسونية، ولا علاماتها ولا أقوالها، ولا تعاليمها ولا عاداتها، وأن أصونها مكتومة في صدري إلى الأبد. أقسم بمهندس الكون الأعظم ألا أخون عهد الجمعية وأسرارها، لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحركات، وألا أكتب شيئاً منها ، ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير. وأرضى -إن حنثت في قسمي- بأن تحرق شفتاي بحديد محمي، وأن تقطع يداي ويجز عنقي، وتعلق جثتي في محفل ماسوني ليراها طالب أخر ليتعظ بها، ثم تحرق جثتي ويذر رمادها في الهواء ، لئلا يبقى أثر من جنايتي»[2].

وبعد أن يتدرج الماسوني في المرتبة الأولى تبدأ عملية تدمير شخصيته وفصله عن مجتمعه وأسرته وتحطيم الروابط المقدسة التي تربطه بوالديه وبأسرته وعشيرته وحكومته ووطنه. فيكون القسم على الشكل التالي: «أقسم على أن أقطع كل الروابط التي تربطني بمطلق كل إنسان ، كالأب والأم

(١) حمود الرحيلي، المصدر السابق ، ص ٥٠، ٥١

(٢) عبد الله التل، المصدر السابق، ص ١٤٥ .

والإخوة والأخوات ، والزوج والأقارب والأصدقاء ، والملوك والرؤساء، وكل من حلفت له بالأمانة والطاعة، وعاهدته على الشكر والخدمة»[١].

وللماسونية مراحل أو مراتب ثلاث هي[٢]:

١- **الماسونية الرمزية العامة:** ويدخل بها أتباع الديانات المختلفة، ويباشر هؤلاء بها طقوساً وحركات لا يفهم مغزاها ، وفي داخل هذه المرحلة يوجد ثلاث وثلاثون درجة يترقى فيها العضو درجة بعد درجة بمقدار إخلاصه. . وإذا وصل العضو إلى الدرجة الثالثة والثلاثين يسمى بـ (الأستاذ الأعظم) وسميت هذه المرحلة بالرمزية لأن جميع خطواتها تخدم بالرموز، وسميت بالعامة لأن أبوابها مفتوحة للجميع.

وهدف هذه المرحلة:

١- جمع المعلومات السياسية والاجتماعية والاقتصادية عن الدول، والتعرف على أحوالها وأفكارها وكل كبيرة وصغيرة فيها حتى ولوكانت تافهة.

٢- ضم المخدوعين بشعارات الخدمة العامة من الوجهاء وأصحاب المراكز المرموقة، ثم انتقاء من يصلح منهم لترقيته إلى درجات الماسونية العليا، وإعطائه قدراً أكبر من المعلومات والمسئوليات.

٢- **الماسونية الملوكية:** وأكثر أعضائها من اليهود، ولا يسمح لغير اليهود بالدخول فيها إلا لمن وصل لأرقى درجات الماسونية الرمزية.

---

(١) عبدالله التل، المصدر السابق، ص١٤٦.

(٢) حمود الرحيلي، المصدر السابق، ص٥٧-٥٩.

وهدف هذه المرحلة هو العمل على إعادة بناء هيكل سليمان وإقامة دولة «إسرائيل الكبرى».

٣- **الماسونية الكونية:** وهي أرقاها، وأعضاؤها من اليهود الخلص، وهدفها تحقيق حلم اليهود الأخير وهو حكم العالم كله وإخضاع الأمم لملك من بني صهيون.

وهذه الدرجة هي مصدر التوجيه لكل المحافل الماسونية الأخرى، وليس لها إلا مركز واحد في نيويورك، وعدد أعضاء هذه المرتبة ثلاثمائة رجل يطلقون على أنفسهم لقب «حكماء صهيون» يعرفون بعضهم حركياً وتنظيمياً ويشكلون «الحكومة السرية» التي تحكم العالم، وينتخبون من بينهم شخصاً يعدونه ملكاً وارثاً لحكم داود وسليمان، ولا يعلنون عن اسمه. وهم يتحركون باستعدادات خاصة ومكونات عالية تؤهلهم للعمل في هذه الحكومة السرية، وعندما يموت واحد منهم أو يسقط يتم تعيين غيره على الفور من الصف الثاني[1].

* المبادئ والأساليب:

تعاليمها ومبادئها:[2]

١- تمجيد الجنس اليهودى: «إن أعظم واجب للماسوني الأوروبي هو تمجيد الجنس اليهودي وعبادته، لأنه حافظ على المستوى الكهنوتي للحكمة».

٢- إشاعة الفاحشة وتقديس العمليات الجنسية: «وقد يعجب المرء إذا علم

---

(١) صابر طعيمة، الماسونية ذلك العالم المجهول؛ دراسة في الأسرار التنظيمية لليهودية العالمية، بدون الناشر، بدون سنة الطبع، ص١٥٤.

(٢) سعد الدين السيد صالح، المصدر السابق، ص ٣٦ - ٣٨.

أن السلوك العام في حركة أعضاء المحفل ونشاطهم -وهم يعبرون عن محافلهم وجمعياتهم بأنواع من الممارسة البهيمية- قد سجلته دائرة المعارف اليهودية على أنه أسلوب حياة للجمعيا ت والمحافل الماسونية، فقالت دائرة المعارف اليهودية (جـ ٥ ص ٥٠٣) ما يلي: (إن تعاليم الماسونية محوطة بالسرية الدائمة، وهي تنص في صلبها على تقديس الجنس والحرية التامة لنشر الإباحية، وآمال الماسونيين أمام هذا الجانب الأخلاقي من حياة الناس، هو تنظيم جماعة من الناس يرونهم أحراراً لا يخجلون من أعضائهم التناسلية حين يجتمعون في نوادي العراة ويلتقون على شواطئ المصايف)»[١].

٣- تجريد العضو من أي ولاء لوطنه أو دينه، بحيث يكون ولاؤه لليهود وحدهم.

٤- يجب على العضو أن يحافظ على الأسرار ولا يفشيها لأحد ولا حتى يعترف بها لأحد إن ووجه بها، بل ينفيها كلية عن الماسونية زاعماً أنها ليست أكثر من جمعية خيرية إنسانية.

٥- يتحتم على الماسوني في جميع الأحوال أن يساعد أخاه ويرشده ويدفع عنه ولو خاطر بحياته، بل إن القاضي الماسوني الذي ينظر قضية لأحد الماسونيين، عليه أن يبذل كل ما في وسعه من أجل تبرئة أخيه الماسوني وإدانة غير الماسوني.

٦- الحرب المستمرة للأديان حتى يتم القضاء عليها.

---

(١) خضر محمد، هذه هي الماسونية فاقتلعوا جذورها، ص١٢، نقلا عن: سعد الدين السيد صالح، المصدر السابق ص ٣٦، ٣٧.

أساليبها:



١- تجنيد الشباب في كل العالم لخدمة مصالح اليهود، وذلك بتوفير أسباب اللهو والعبث لهم والانغماس في الشهوات من خلال نشاطات الجمعيات الرياضية والموسيقية واستغلال وسائل النشر والإعلام ودور اللهو، والخمر، ونشر المخدرات وبيوت الدعارة.

٢- الدخول في الأحزاب السياسية لتسيير الاتجاهات السياسية في العالم حسب المصالح اليهودية، أو على الأقل لتضمن عدم مقاومتها لليهود، أو اعتراض مصالحهم.

٣- تأسيس وتشجيع النظريات والاتجاهات والجمعيات التي تنادي بالحرية، لأنها أسرع وسيلة لنشر الفوضى الخلقية وتقويض البناء الأسري والعائلي للأمم.

٤- تأسيس وتشجيع النظريات والاتجاهات والجمعيات التي تساعد على تقويض البناء الاقتصادي العالمي.

٥- اجتذاب أكبر عدد ممكن من الأتباع للانتماء للمحافل الماسونية والوقوع في شباكها، وخاصة أولئك النفعيين الذين يحبون الكراسي والتسلط، وتكثيف العمل في أوساط المفكرين والأدباء من ذوي الميول الفوضوية[1].

---

(١) حمود الرحيلي، المصدر السابق، ص٦١-٦٢.

أهم واجهاتها (منظماتها):

١- نوادي الروتاري:

والروتاريي منظمة ماسونية تسيطر عليها اليهودية العالمية تعرف باسم (نادي الروتاري)، وهي أنشطة علنية تؤدي مهماتها أو بعضاً منها تحت ستار الإخاء الإنساني.

والغرض الظاهري من هذه الأندية هو النظر في الشئون الاجتماعية والاقتصادية بإلقاء المحاضرات والخطب، والعمل على التقارب بين أتباع الأديان المختلفة والبلدان المتعددة.

أما الغرض الحقيقي فهو أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرى باسم الإخاء والود، ثم يحاول اليهود من هذا الطريق أن يصلوا إلى جميع المعلومات التي تساعدهم في تحقيق أغراضهم[١]

٢- نوادي الليونز:

ومعنى (الليونز) الأسود جمع أسد، وهي مجموعة نواد ذات طابع خيري اجتماعي في الظاهر، لكنها لا تعدو أن تكون واحدة من المنظمات العالمية التابعة للماسونية التي تديرها أصابع يهودية. وقد أنشئ نادي الليونز ليكون بديلاً عن النوادي السابقة في حالات انكشافها أو اضطهادها لما يتمتع به من مظهر اجتماعي إصلاحي خيري.

---

(١) المصدر السابق، ص٦٥-٦٦.

وتتمثل خطورة هذه النوادي في مايلي:

١ - نشاطاتها الخيرية في الظاهر مصيدة تخفي وراءها أهدافها الحقيقية .

٢ - أنهم يركزون في دعواتهم ومحاضراتهم على إبراز مكانة معينة لإسرائيل وشعبها ، كما يقومون بزراعة أفكار صهيونية في عقول أعضائها .

٣ - أنهم يقيمون حفلات مختلفة ماجنة تحت شعار (الحفلات الخيرية)[١] .

٣- شهود يَهْوَهْ:

وهي جمعية يهودية ترتدي ثوباً مسيحياً مزيفاً وهي في الواقع أخطر الجمعيات اليهودية في العالم، ذلك لأنها تقوم على مبدأ خداع الجماهير المسيحية الساذجة وإدخال نبوءات التوراة في النفوس المؤمنة ليصبح الاعتقاد جازماً عند المسيحيين بوجوب عودة اليهود إلى أرض الميعاد .

ولشهود يَهْوَهْ علامات تدل على أصولهم اليهودية هي :

١- الاهتمام بالكتب المقدسة في اليهودية .

٢- تبني (المينورا) أي الشمعدان السباعي الذي هو رمز اليهود الديني .

٣- تبني (ماكين داود) أي النجمة السداسية وهو الرمز الآخر لليهود .

٤- تبني اسم (يهوه) الذي هو اسم الله عند اليهود .[٢]

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٠-٧٤ .

(٢) المصدر السابق، ص ٧٦-٧٨ .

مبادئ وتعاليم هذه الجمعية[1] :

١- يؤمنون بيهوه إلهاً لهم وبعيسى رئيساً لمملكة الله .

٢- لا يؤمنون بالآخرة ولا بجهنم، ويعتقدون بأن الجنة ستكون في الدنيا في مملكتهم .

٣- لا يؤمنون بالروح وبخلودها .

٤- جميع الأديان وفي مقدمتها الإسلام والمسيحية وثنية .

٥- إقامة دولة لليهود في فلسطين .

٦- لا يمكن أن يكون محمد ﷺ نبياً لأنه ليس يهودياً

٧- العالم كله -سوى اليهود- عدو الله .

٤- بناي برث أو (أبناء العهد):

وهي جمعية من أقدم الجمعيات والمحافل الماسونية المعاصرة وذراع من أذرعها الهدامة، ولا تختلف عنها كثيراً من حيث المبادئ والغايات إلا أن عضويتها مقصورة على أبناء اليهود، وخدمتها موجهة أساساً لدعم الصهيونية في العالم .

---

(١) المصدر السابق، ص٧٨-٨٠ .

الحكم الشرعي في الانتماء للماسونية:

إن موقف الإسلام من الماسونية قد تحدد بشكل قطعي في العديد من الفتاوى والقرارات التي اتخذتها المؤتمرات الإسلامية أو الفقهية ففي قرار المجمع الفقهي المنعقد في مكة المكرمة عام ١٣٩٨هـ) عن الماسونية كان مايلي:

(اعتبار الماسونية من أخطر المنظمات الهدامة على الإسلام والمسلمين، وإن من ينتسب إليها وهو على علم بحقيقتها وأهدافها فهو كافر بالإسلام ومجانب لأهله).

وجاء في فتوى الأزهر عام ١٩٨٥م مايلي:

(يحرم على المسلمين أن ينتسبوا لأندية قد أنشأتها، وواجب المسلم ألا يكون إمعة وراء كل داع وناد)[1].

---

(١) المصدر السابق، ص١٦١-١٦٣.

الصهيونية

تعريفها ونشأتها:

وهي منسوبة إلى صهيون الجبل الذي يقع في جنوب بيت المقدس، وقد ورد ذكر جبل صهيون في التوراة في مواقع كثيرة.

وتعرف الصهيونية بأنها: الحركة اليهودية التي تسعى بكل الوسائل إلى إعادة مجد بني إسرائيل وبناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى المبارك، ومن ثم السيطرة على العالم وحكمه من القدس على يد ملك اليهود الذي هو المسيح المنتظر.

وقد بدأت الصهيونية على يد (تيودور هرتزل) وهو صحفي نمساوي يهودي، واستغل هرتزل موجة الكراهية لليهود في الغرب من أجل استدرار العطف على اليهود وادعاء أن ذلك من أعمال (اللاسامية).

أما أخطر ما تمخضت عنه حركة هرتزل الصهيونية فهي المؤتمرات الصهيونية السنوية التي أخذت تنعقد كل عام في بلد من بلاد العالم، وتضم كبار دهاة اليهود الذين يطلق عليهم لقب (حكماء) وقد بدأ هرتزل هذه المؤتمرات سنة ١٨٩٧م يوم عقد في بازل في سويسرا أول مؤتمر صهيوني لحكماء صهيون. وقد اتخذ ذلك المؤتمر قرارات علنية وسرية، أما العلنية فخلاصتها تأسيس دولة لليهود في فلسطين (أرض صهيون)، ويمهد لذلك بشراء الأرض ليهود في فلسطين، وإنعاش الثقافة العبرية والمشاعر الوطنية بين جميع اليهود.

وقد استعان هرتزل وحكماءه على تحقيق أهدافهم بحث الأغنياء من اليهود في العالم على البذل والتضحية من أجل تحقيق أهداف الصهيونية، وتقدمت الأسرة اليهودية الغنية على رأسها (آل روتشيلد) ويهود أمريكا بالمال اللازم لدعم خطط أكبر حركة يهودية تهدف إلى جمع اليهود وتأسيس دولة لهم[1].

أهدافها ووسائلها:

تعتبر أهداف ووسائل الحركة الصهيونية هي المقررات السرية لمؤتمر بازل سنة ١٨٩٧م والتي عرفت بـ(بروتوكولات حكماء صهيون)، والتي لم تعد سراً بعد أن نشرتها إحدى الصحف في أوائل هذا القرن بعد أن سرقت من أحد المحافل الماسونية.

وتعد هذه البروتوكولات: الخطة التي وضعت للسيطرة على العالم، وقد أشار القاضي (أرمسترونج) في كتابه «الخونة» إلى هذه المقررات وأهدافها بقوله: «إن فكرة قيام عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة، ويتبعها إمبراطورية عالمية، قد طرحت بهذا الترتيب الزمني على بساط البحث في المؤتمر الصهيوني الذي عقد في مدينة بازل عام ١٨٩٧م، لقد أعلن الصهيونيون المجتمعون في هذا المؤتمر أن هدفهم يرمي إلى إخضاع الشعوب المسيحية في العالم، وتأسيس امبراطورية صهيونية يرأسها ملك، يكون امبراطوراً على العالم كله»[2]

---

(١) عبدالله التل، المصدر السابق، ص١٦٣-١٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٥.

ووسائل الوصول إلى هذا الهدف الكبير كانت المقررات التي اتخذها هذا المؤتمر واعتبرت سرية، ومن أهم وأخطر ما جاء فيها :

١- إن جواز المرور لدينا هو القوة والكذب والادعاء أن حقنا في قوتنا .

٢- إن الحاجة اليومية إلى الخبز تضطر الجوييم (غير اليهود) إلى السكوت والرضوخ والرضى، وإلى أن يكونوا خدماً لنا ، أذلاء خاضعين في استسلام .

٣- إن خطباءنا سيباشرون مهمة تفسير المشكلات الكبرى وتأويلها حسب هوانا، تلك المشكلات التي قلبت الإنسانية رأساً على عقب .

٤- الصحافة كلها، وجميع وسائل الإعلام واقعة تحت سيطرتنا ، والأدب والصحافة قوتان في طليعة القوى التوجيهية المهمة .

٥- إننا نلمك بين أيدينا أعظم قوة في هذا العصر، وهي الذهب .

٦- يجب أن تكون الصحافة تافهة كاذبة بعيدة عن الحق، إنها تعمل لتحريض وإثارة المشاعر التي نحن في حاجة إليها من أجل أهدافنا، لا يمكن أن يصل إعلان إلى الجمهور دون أن يمر على رقابتنا .

٧- علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين .

٨- إن الغاية تبرر الوسيلة، وعلينا ونحن نضع خططنا ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد .

٩- لقد خدعنا الجيل الناشئ من (الجوييم) وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادئ ونظريات معروف لدينا زيفها التام .

١٠- إن الجوييم كقطيع من الغنم ونحن الذئاب.

١٢- إن المحفل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم يعمل في غفلة كقناع لأغراضنا.

١٣- عندما نصل إلى مملكتنا يصبح من غير المرغوب فيه لدينا وجود عقيدة غير عقيدتنا، وعلى ذلك يتعين علينا أن نكتسح جميع العقائد والأديان الأخرى، وإذا كان هذا يؤدي إلى وجود ملحدين ينكرون وجود الخالق، فإن هذا مما لا يتعارض مع وجهة نظرنا، ويعتبر في حد ذاته مرحلة تطور وانتقال[1].

إن هذه القرارات الخطيرة تجعلنا ندرك أن الخلق اليهودي الإجرامي ليس طارئاً أو ناجماً عن الاضطهاد، ولكنه وليد الديانة اليهودية نفسها، تلك الديانة المبنية على التوراة والتلمود المحرفين، وهي التي غرست في نفوس اليهود بذور الإجرام والحقد والفساد والرذيلة والوحشية والانحلال والتعصب والغرور والوقاحة. وهذه الديانة هي التي أحلت لهم سفك الدماء، وشجعتهم على البطش بالأبرياء، وأباحت اغتصاب مال غير اليهود وأعراضهم، وهي التي تتولى تدمير الأخلاق في العالم ونشر الرذيلة والفجور والإباحية.

فالصهيونية واليهودية شيء واحد، لأن الحركة الصهيونية هي الجهاز التنفيذي لليهودية العالمية التي تسعى إلى تدمير العالم والتحكم في مصائره، ولا يكاد يوجد يهودي واحد يعارض الصهيونية وأهدافها التي ترمي إلى إعادة اليهود إلى فلسطين.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٦-١٧٠.

آثارها :

١- هدم الخلافة الإسلامية، وذلك بعد أن رفض السلطان عبدالحميد عرض (هرتزل) بالسماح لليهود باستيطان فلسطين مقابل كميات كبيرة من أموال اليهود، فوجد اليهود أن الخلافة العثمانية ستكون حجر عثرة أمام مخططاتهم، فعملوا على عزله عن طريق حزبي تركيا الفتاة والاتحاد والترقي من يهود الدونمة، واللذان عملا على تقويض دولة الخلافة وفتح المجال للدول الاستعمارية لاستعمار البلاد العربية وعلى رأسها فلسطين تمهيداً لإقامة دولة يهودية عليها.

٢- الحصول على وعد من بريطانيا لإقامة دولة يهودية في فلسطين ، وقد استطاع اليهود ذلك عن طريق الإغراءات التي قدموها لبريطانيا، وصدر وعد بلفور لليهود عام ١٩١٧م بالعمل على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

٣- إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين بمساعدة صليبية وقد استطاعوا ذلك عام ١٩٤٨ بعد مساعدات كبيرة من بريطانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا وغيرها من بلاد الغرب الصليبي وباعتراف من الأمم المتحدة. وقد أخذت هذه الدولة الجزء الأكبر من فلسطين، وبقي الجزء الآخر بيد العرب وانضم إلى الأردن عام ١٩٥٠ وهو ما عرف (بالضفة الغربية) وفي عام ١٩٦٧ استطاعت هذه الدولة أن تحتل هذا الجزء وتضمه إلى أراضيها.

خطورة الصلح مع اليهود
والآثار المترتبة على ذلك

إن ما يسمى (بالصلح مع إسرائيل) لم يأت تبعاً لتغير الظروف الدولية وانحسار مرحلة الحرب الباردة وفقاً لمقتضيات الوفَاق الدولي كما يصور ذلك الإعلام الغربي وذيله الإعلام العربي، فهذه التغيرات نفسها أعراض للمتغير الأساسي وهو الخطة الصهيونية للسيطرة على العالم كافة والمنطقة الإسلامية خاصة.

إن هذه الخطة ببساطة، قد عدلت عن فكرة إقامة دولة إسرائيل الكبرى جغرافياً، وبعبارة أصح قد عدَّلت هذه الفكرة لأسباب ذاتية ضرورية أهمها أن دولة اليهود وجدت نفسها بعد ٤٠ سنة من قيامها عبارة عن مركب من التناقضات وكائن غريب في محيط من العداوات.

فعلى المستوى الأمني لم تنجح في السيطرة على ما ابتلعته من أرض فلسطين، فكيف تسعى لمزيد من الأراضي؟

والمشكلة السكانية تشكل أعمق المشكلات وأبعدها تأثيراً، فكثير من اليهود لم تخدعهم الوعود المعسولة والإغراءات البراقة للهجرة إلى أرض الميعاد.

ولقد رعبت دولة العدو الإسرائيلي من ارتفاع مؤشر الهجرة المضادة وقلة استجابة السكان اليهود لدعوات تكثير النسل، وأظهرت الإحصائيات الرسمية أنه مقابل كل شهيد من أبناء فلسطين المسلمة يولد عشرات وعشرات

من الفلسطينيين.

كما أن المقاطعة العربية -مهما بدت شكلية- توفر حاجزاً نفسياً لشعوب المنطقة، فلابد من افتعال حركة (تكتيكية) يتراجع فيها اليهود ويسلمون بما يسمى(الحكم الذاتي المحدود) لكي يتم الهدف الأكبر استراتيجياً (التخلي عن التوسع الجغرافي مقابل السيطرة السياسية والاقتصادية والثقافية).

وهكذا سيؤدي فتح الحدود الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وإعلان فتح القنوات السياسية إلى أن يصبح يهود دولة العدو الإسرائيلي في الشرق الأوسط كيهود نيويورك في أمريكا، وتصبح ثروات المسلمين ركازاً لهم، وجامعاتهم ومؤسساتهم الثقافية أوكاراً لفكرهم . . ويصبح عامة الشعوب العربية عمالاً كادحين لخدمة شعب الله المختار؟!

هذا هو هدف السلام المزعوم مهما غلفوه أو قنعوه ، والتخطيط الصهيوني لم يتغير ارتجالاً . . بل إن أسبابه وجذوره تمتد إلى ما هو أعمق من ذلك إلى خبثية النفسية اليهودية وحقيقة الجبلة اليهودية، وواقع التاريخ اليهودي القديم والحديث.[1]

وقد تميزت مشاريع التسوية السياسية بين أنظمة الحكم في البلدان العربية وبين دولة العدو اليهودي في فلسطين وما تبعها من مفاوضات مباشرة وغير مباشرة بأمرين اثنين:

---

(١) سفر الحوالي، القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ص٩، ١٠.

الأولى: هي الإيقاع السريع والإهتمام العالمي (لحل أزمة الشرق الأوسط) - كما يقولون- بحيث لا تكاد تمضي فترة زمنية قصيرة على فشل مشروع سلام قدمته هذه الدولة، أو تلك حتى يتم الإعلان عن طرح مشروع جديد.

الثانية: التنازلات الدائمة من قبل العرب والفلسطينيين الممثلين في منظمة التحرير الفلسطينية، واكتفاء اليهود بالحديث عن السلام الذي تريده «إسرائيل»، والذي يقتصر على اعتراف العرب بدولتهم وعلاقات اقتصادية مميزة وحدود مفتوحة[١].

وحتى يتم تحقيق ما يريده اليهود من الهيمنة الاقتصادية والثقافية والسياسية، وحتى تتقبل الشعوب العربية والإسلامية وجود الكيان اليهودي على أرض فلسطين، ويتحول الاعتراف السياسي الذي قدمته الأنظمة الى اعتراف شعبي ضارب الجذور في المجتمعات العربية والإسلامية، عمل اليهود على تحقيق الخطوات التالية بالتعاون مع عملائهم:

الخطوة الأولى: تكريس الانفصال بين الدول العربية وعزل مشاعر الشعوب عن الاستجابة لأشكال المعاناة التي تقع على أي جزء من بلاد العرب والمسلمين.

الخطوة الثانية: تجريد المجتمع العربي من إرادة القتال وحوافزه بقصد الإبقاء على المجتمع بعيداً عن حالة اليقظة والاستعداد وليكون في وضع الفريسة السهلة.

---

(١) غسان حمدان، التطبيع استراتيجية الاختراق الصهيوني، دار الأمان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ١٣٧.

الخطوة الثالثة: إلغاء حالة العداء الكامنة في مفاهيم المسلمين ومشاعرهم للوجود اليهودي[١].

وبناء على ذلك فإن الآثار المترتبة على الصلح مع اليهود، هي نفسها الأهداف والنتائج التي يسعى اليهود لتحقيقها، ويمكننا أن نجمل أهم هذه الآثار فيما يلي: -

١- القضاء على روح الجهاد في الأمة، وكانت بداية ذلك القضاء على الانتفاضة الفلسطينية، ومن ثم تصوير العمليات الجهادية ضد اليهود إرهاباً.

٢- تدمير القوة العربية المحيطة بدولة العدو الإسرائيلي، على الرغم من أنها حالياً لا تشكل خطراً عليهم، وقد دمر العراق، وسوف تكون الخطوة الثانية تدمير الجيش السوري، وذلك لأن الجيش السوري يملك بعض القوة والتدريب.

٣- ضرب الحركة الإسلامية في كل مكان والتضييق على الدعوة الإسلامية بدعوى التصدي للأصولية والإرهاب، وتجفيف منابعهما.

٤- إخضاع المنطقة للرهبة اليهودية العسكرية وفرض الحماية الأمريكية على المنطقة ومنع تطوير أي جيش من جيوش المنطقة، وإنما يراد بقاء الجيوش للمحافظة على الأمن الداخلي فقط، ومبرراتهم في ذلك أنه في ظل النظام الدولي الجديد ليس هناك حاجة إلى أن تطور جيشاً؟! فإذا كنت

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٨.

تريد الأمن والحدود فإن النظام الدولي يكفل ذلك .

٥- تغيير المناهج الإعلامية والتعليمية لمحو ما يثير العداء نحو اليود ، وهذا ما أعلنه شامير في مؤتمر مدريد حيث قال : «لابد من تغيير ثقافتكم العدائية نحو اليهود» فعلى مراحل تنتهي كل شعارات العداء لليهود ، بل ينتهي حتى كل ما يثير العداء دينياً؟! وقد عمل بهذا في مصر وغيرت المناهج وحذفت معارك اليهود مع النبي ﷺ وحذفت الإشارات إلى عداواتهم للنبي من مناهج التعليم .

٦- فرض السيطرة المالية الاقتصادية اليهودية على المنطقة كلها ، وقد سيطر اليهود على الاقتصاد الغربي عن طريق الربا والبنوك الربوية ، فكيف إذا أطلقت أيديهم في منطقتنا!؟ سوف يتحكمون في سنوات قلائل في كل الدورة الاقتصادية لدول المنطقة جميعها .

٧- اجتياح المنطقة بالثقافة اليهودية والنصرانية ، وكذلك تشويه صورة الإسلام على كل المستويات والدعوى بأنه دين إرهابي .

٨- نهب ثروات المنطقة النفطية والمائية وتسخيرها لليهود والأمريكان .

٩- إفساد المنطقة أخلاقياً ، عن طريق السياحة والآثار ، وعن طريق المخدرات والدعارة والأفلام القذرة . ١٠- فتح الباب لغزو الجاسوسية اليهودية لأماكن ما كانت تحلم بها[١] .

---

(١) سفر الحوالى ، المصدر السابق ، ص ٧٧ ، ٨١ .

حكم التنازل عن أي جزء من فلسطين

لقد صدرت فتاوى عديدة من علماء المسلمين والدعاة إلى الله تحرم التنازل عن أي جزء من فلسطين. أبرز هذه الفتاوى: الوثيقة التي وقع عليها ما يقرب من مائة عالم وداعية من مختلف أقطار العالم الإسلامي وعلى رأسهم فضيلة الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- وفضيلة شيخنا الأستاذ الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي -حفظه الله-، هذه الوثيقة تنص على عدم جواز الاعتراف لليهود بشبر واحد من أرض فلسطين بأي حال من الأحوال. وتذكر الوثيقة أنه لا يحق لأي شخص أو أية جهة أن تقر اليهود على أرض فلسطين أو تتنازل لهم عن أي جزء أو تعترف لهم بأي حق فيها.

وتصف هذه الوثيقة هذا النوع من الاعتراف بأنه خيانة لله والرسول وللأمانة التي وكل إلى المسلمين المحافظة عليها.

وفيما يلي نص الوثيقة كاملاً نعرضه كما هو، تنبيهاً للغافلين، وتعليماً للجاهلين، وإبراءً للذمة، وأداءً للأمانة، وإعذاراً إلى الله تعالى:

«الحمد لله الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والصلاة والسلام على من أسري به إلى الأرض المبارك فيها للعالمين، قبلة المسلمين الأولى، وأرض الأنبياء، ومهبط الرسالات، وأرض الجهاد والرباط إلى يوم الدين، وعلى آله الأخيار، وصحبه الذين عطروا بدمائهم الزكية تلك الأرض الطيبة حتى أقاموا بها الإسلام، ورفعوا فيها راية رايته خفاقة عالية، وطردوا منها أعداءه الذين دنسوا قدسه بالشرك والكفر، وعلى الذين ورثوا هذه الديار فحافظوا على ميراث المسلمين، ودافعوا عنه

بأموالهم وأنفسهم، وبعد:

فإن مهمة علماء المسلمين وأهل الرأي فيهم أن يكونوا عصمة للمسلمين، وأن يبصروهم إذا احتارت بهم السبل، وادلهمت عليهم الخطوب.

ونحن الموقعين على هذه الوثيقة، نعلن للمسلمين في هذه الظروف الصعبة أن **اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا**، اغتصبوا فلسطين، واعتدوا على حرمات المسلمين فيها، وشردوا أهلها، ودنَّسوا مقدساتها، ولن يقر لهم قرار حتى يقضوا على دين المسلمين، وينهوا وجودهم، ويتسلطوا عليهم في كل مكان.

ونحن نعلن -بما أخذ الله علينا من عهد وميثاق في بيان الحق- أن الجهاد هو السبيل الوحيد لتحرير فلسطين، وأنه لا يجوز -بحال من الأحوال- الاعتراف لليهود بشبر من أرض فلسطين، وليس لشخص أو جهة أن تقر اليهود على أرض فلسطين، أو تتنازل لهم عن أي جزء منها، أو تعترف لهم بأي حق فيها.

إن هذا الاعتراف خيانة لله والرسول وللأمانة التي وُكِلَ إلى المسلمين المحافظة عليها، والله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾، وأي خيانة أكبر من بيع مقدسات المسلمين، والتنازل عن بلاد المسلمين إلى أعداء الله ورسوله والمؤمنين.

إننا نوقن بأن فلسطين أرض إسلامية، وستبقى إسلامية، وسيحررها أبطال الإسلام من دنس اليهود، كما حررها الفاتح صلاح الدين من دنس الصليبيين، ولتعلمُنَّ نبأه ولو بعد حين، وصلى الله على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

دور الشعوب الإسلامية

في مقاومة التطبيع مع اليهود

يتضح مما سبق أن معاهدات السلام العربية الإسرائيلية ذات مضامين خطيرة بالنسبة لأمن المنطقة العربية والإسلامية واستقرارها، وكذلك بالنسبة لاستمرارية الوجود الحضاري للعرب والمسلمين كأمة لها خصوصياتها الذاتية، ولذا فلابد من استنفار الهمم في الشعوب الإسلامية رسمياً وشعبياً لتحمل المسؤولية في مواجهة هذا التحدي..

على المستوى الرسمي، نجد أن غالبية الحكومات العربية قد ركبت قطار السلام مع اليهود، فما هو -إذن- دور الشعوب في درء هذه الأخطار؟

إن الرؤية العربية للمواجهة مع العدو الإسرائيلي حكمتها عدة أخطاء منهجية، أبرزها اعتماد استراتيجية الحرب النظامية والتفوق العسكري فقط، دون الاستناد إلى قوة الجماهير وحشدها في صيغة الحرب الوطنية الشعبية طويلة المدى.

لقد جاءت اتفاقيات السلام في وقت وصل فيه العالم العربي والإسلامي إلى حالة من الترهل والوهن الشديد، واستطاعت دولة العدو الإسرائيلي أن تستفيد من ضعف القوة المادية والمعنوية[١].

---

(١) توفيق القصير، «اتفاقيات السلام بين الدول العربية وإسرائيل: إنعكاسات واثار»، مجلة شؤون الشرق الأوسط، المؤسسة المتحدة للدراسات والبحوث، الولايات المتحدةالأمريكية، السنة الثانية-عدد٢، ٣/ ١٩٩٥.

إن الشعوب العربية والإسلامية لديها طاقات عظيمة وقدرة على العطاء والإنجاز لا يستهان بها، ويجب عليها أن تعي بأن التحدي اليهودي قادم لا محالة، وهو تحد حضاري عقائدي، فمشروع السوق الشرق أوسطية يراد به تذويب النظام الإقليمي العربي في النظام الشرق أوسطي.

إن الشعوب الإسلامية هي صاحبة الكلمة الأخيرة في اتفاقيات التطبيع التي توقعها حكوماتها مع العدو الإسرائيلي. وإن هذه الاتفاقيات لن تعدو أن تكون حبراً على ورق إذا قامت الشعوب الإسلامية بدورها، وأدت واجبها في مقاومة التطبيع مع اليهود.

إن الثقة كبيرة في القوى الإسلامية من علماء وجماعات وهيئات ومؤسسات في إبقاء روح الجهاد في نفوس المسلمين.

لذا فإن من أهم واجبات الشعوب الإسلامية وعلى رأسها هذه التنظيمات الاضطلاع بمسؤولياتها لمواجهة التحدي اليهودي الحضاري على الأمة الإسلامية بعد أن انصرفت النظم الحاكمة عن ميدان المعركة واستسلمت للواقع، ومن أهم تلك المسؤوليات :-

(١) المقاطعة الشعبية الشاملة للمنتجات اليهودية، فمن أهم أهداف السلام اليهودي المفروض على الأمة الإسلامية هو السيطرة الاقتصادية على المنطقة عن طريق ترويج منتجاتها، مما يجعل المنطقة العربية والإسلامية سوقاً للمرابي اليهودي.

(٢) المقاطعة الشعبية من قبَل الشعوب العربية والإسلامية للسياح اليهود عند زيارتهم للسياحة في المناطق العربية، فمن شأن ذلك إبقاء الحاجز

النفسي بين أمتنا واليهود.

(٣) مقاومة التطبيع الثقافي بيننا وبين اليهود، وذلك عن طريق تثقيف الجيل الجديد من هذه الأمة على حالة العداء لليهود، والاهتمام بتدريس الأجيال القادمة الآيات المتعلقة باليهود في القرآن الكريم، وكذلك سيرة اليهود مع الرسول ﷺ، حتى تبقى الأمة في حالة مواجهة بينها وبين من اغتصب أرضها ومالها.

(٤) عدم زيارة فلسطين المحتلة من قبل الشعوب العربية والإسلامية، باعتبار أنها أرض مغتصبة من قبل أعداء الأمة لا يجوز زيارتها حتى يتم تحريرها.

(٥) دعم الروح الجهادية في فلسطين، وذلك عن طريق الدعم المادي والمعنوي للكتائب المجاهدة هناك.

المسيحية والاستشراق والتبشير

د. يحيى محمد ربيع

أولاً: المسيحية: لمحة تاريخية

ثانياً: أسباب فساد المسيحية

ثالثاً: الحروب الصليبية

رابعاً: استمرارية روح الحقد الصليبي

خامساً: الاستشراق

سادساً: التبشير المسيحي (أو التنصير)

كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا)) فيعد الرزق الذي هو مفعل
فقال : أنى لك هذا .. قالت : هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير
حساب .))
(يفيد الاستبعاد)
سيدنا زكريا لم يتعجب وعايش المشكلة / ارجعت نظره الى هذه المشكلة وهو الولد
((لا يرد القضاء الا الدعاء)) فدعا ربه فبشره الله بيحيا
وعندما كبرت .. اتخذت حجاباً ـ فأرسل الله لها الملائكة في شكل بشر فيه
من جمال .. دخول جبريل ـ مريم وهو في تمام جماله .. في صورة البشر الجميل
علشان هل ستلتفت هل ستشغل كما تشغل النساء او لا تنظر اليه
قالت : ((انى اعوذ بالرحمن منك .. ان كنت تقيا))
قال : ((انما انا رسول الله لك ..
انا يكون لي غلام ولم يمسسني بشر
كذلك قال ربك .. وكان أمراً مقضيا))
(ف) (فحملت فانتبذت به مكانا) العطف بالفاء ـ يفيد التعاقب
فأجاءها ـ ألجأها أى اضطرها ـ فقالت يا ليتني مت
فناداها من تحتها ـ الطفل ـ الا تحزني .. فهز النخل وان وجد كل
واصبح تحتك نهر وقال لها انذرى لله صوماً لا تكلمي أنسي
(فريا) ـ يعنى كذب وافتراء ـ فأشارت اليه فرد عليها

المسيحية: لمحة تاريخية

ولد المسيح عليه السلام- بطريقة معجزة وغير مألوفة- وبعد أن اتهم القوم أمه مريم بالبهتان، كان المسيح الذي ظنوا أنه دليل الاتهام، هو دليل البراءة، فنافح ودافع عن نفسه وعن أمه، وهو في المهد، وشاء الله تعالى أن يكون هذا الدفاع جزءاً من الذكر الحكيم يتلى إلى يوم الساعة.

﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب، وجعلني نبيا، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت، ويوم أبعث حيا، ذلك عيسى بن مريم﴾ (مريم: ٣٠ - ٣٤).

وبعد بلوغه واكتمال كماله، شاءالله أن يرسله إلى بني إسرائيل مكملاً للتوراة ومتمماً شريعة موسى عليه السلام، فأنزل عليه الإنجيل، وأمره أن يرد بني إسرائيل إلى عقيدة التوحيد بعد ما ارتكسوا في حمأة الوثنية بعد وفاة كليم الله موسى عليه السلام.

ويحكي لنا القرآن ملامح تلك الرسالة التي تتلخص في الإنجيل الصحيح كتاباً مقدساً، والعقيدة الصحيحة وهي عبادة الله وحده، والدعوة إلى الأخلاق الحميدة، خاصة جوانب اللين والتسامح والعفو والمحبة. وليس أمامنا مصدر يعطي معلومات صادقة عن دين وكتاب المسيح سوى القرآن الكريم.

أولاً: الإنجيل:

ورد ذكره في القرآن اثنتا عشرة مرة. يتبين من خلالها أن هذا الإنجيل كتاب منزل من السماء، على نبي الله عيسى - وأن الله تعالى هو الذي علمه هذا الكتاب بل وعلمه التوراة والحكمة، ﴿وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل﴾ (الحديد: ٢٧)، ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ (آل عمران: ٤٨)، كما أن القرآن وصف هذا الكتاب بخمسة أوصاف جليلة في سورة المائدة، يقول تعالى: ﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ (المائدة: ٤٦).

وعلى الجملة فهذا الكتاب كان يشتمل على توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الضد والمثل، والصاحبة والولد، كما كان يشتمل على النبوة، وعلى المعاد، ثم على الأحكام الشرعية وتفاصيل التكاليف الإلهية الخاصة ببني إسرائيل، كما كان يحوي على الدلالات الظاهرة على نبوة نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ (الصف: ٦).

ثانياً: العقيدة (التوحيد):

إن التوحيد هو العقيدة التي كلف المسيح بتبليغها، وهي التي دعا إليها، والمسيح ليس بدعاً من الرسل بل هو حلقة من تلك السلسلة المباركة التي ما أرسلت إلا بالتوحيد ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ (الأنبياء: ٢٥).

ودين الله الذي أنزل على جميع الأنبياء كان واحداً في ثلاثة أشياء:

١- في المصدر فهو من الله ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك﴾ (الشورى: ١٣).

٢- في المنهج: التوحيد، فما من نبي إلا وقال لقومه ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.

٣- في التسمية: الإسلام، فالإسلام دين الله إلى خلقه أجمعين ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (آل عمران: ١٩).

من هذا المنطلق دعا المسيح قومه إلى عبادة الله وحده، ﴿وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾ (المائدة: ٧٢).

وسيسأل عن ذلك يوم القيامة ليكون حجة على بني إسرائيل ﴿وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ وسوف يكون جوابه: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ (المائدة: ١١٦ - ١١٧).

واقرأ إن شئت في الأناجيل التي بأيديهم الآن(إن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد)[1] (قد أتت الساعة، وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك)[2] (اذهب ياشيطان لأنه

(١) مرقس ١٢: ٢٨-٣٢

(٢) يوحنا ١٧-١-٥

مكتوب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد)[1]

ولذا كانت نظرة القرآن إلى المسيح: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه، وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ (الزخرف: ٥٩).

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون﴾ (آل عمران: ٥٩).

ونظرة القرآن لأمّه مريم عليها السلام أنها صدِّيقة، وطاهرة ومصطفاة على نساء العالمين، ﴿ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمّه صدِّيقة كانا يأكلان الطعام﴾ (المائدة: ٧٥)، فلم يكن عيسى -عليه السلام- إلهاً أو ابناً للإله، ولم يكن الإله -جل في علاه- ثالث ثلاثة كما لم تكن مريم إلها -كما زعم بعضهم- ولا صاحبة اختارها الله لنفسه- جل الله عن قولهم.

تلك حقيقة دين عيسى، لكن الذي حدث أن القوم نقلوا التقديس من الله إلى البشر، وصنعت عقائد ما أنزلها الله تعالى، ولا دعا إليها المسيح، لكن هذه العقائد الباطلة هي التي بقيت والتف حولها المسيحيون ولا زالوا حتى اليوم يعتقدون صحتها.

كان المدخل لتلك العقائد هو تحريف الإنجيل المنزل على المسيح -عليه السلام- كما كان الطابع الذي طبعت به هو تقديس البابوات، وعصمة رجال الدين، وتحول التوجه من الله إليهم، فهم الذين يملكون الغفران،

---

(١) متى ٤: ١٠

ويتحكمون في الجنة والنار، فوضعوا هالة من القداسة على أنفسهم، وارتكب رجال الدين أبشع الجرائم في حق شعوبهم وفي حق الإنسانية تحت ستار القداسة والعصمة، وظل الأمر هكذا حتى وصل السيل الزبى، فقامت العلمانية لتصفع رجال الدين على وجوههم، وتجعلهم يدخلون كنائسهم وأديرتهم.

وفيما يلي سنركز على كيفية تحول المسيحية من دين ينزه الإله ويقدسه، إلى أهواء تحول هذا التقديس وذلك التنزيه إلى رجال الدين، مما أدى إلى فساد الدين المسيحي.

أسباب فساد المسيحية

أولاً : التحريف: ويشمل تحريف النص، وتحريف العقيدة.

وتحريف النص: قسمان لفظي ومعنوي: اللفظي يكون بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان والتبديل. والمعنوي: يكون بصرف الألفاظ عن المعاني التي وضعت لها إلى معان أخرى باطلة.

والآيات التي وردت في القرآن تدل على وقوع القسمين معاً فيما يتعلق بالإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، وهذه الآيات كثيرة، وأساليب التعبير فيها متعددة، فقد عبر القرآن عن ذلك بالتحريف، وبالكتمان، وبلبس الحق بالباطل، وبليِّ ألسنتهم بالكتاب، ونبذه وراء ظهورهم، وبتحريفه عن مواضعه، وبتحريفه من بعد مواضعه، وبنسيانهم حظاً مما ذكروا به[1].

هذه التعبيرات المتنوعة التي ساقها لنا القرآن الكريم تدل على ثلاثة أمور:

الأول: أن التحريف والتبديل وقع لهذه الكتب لا محالة، وأن التحريف الذي وقع فيها يشمل اللفظي والمعنوي.

الثاني: أنهم استخدموا في سبيل تحقيقه كل الوسائل وجل الأساليب.

الثالث: أنهم إنما حرفوا الكتب السماوية عن علم وعن سبق إصرار لا جهلاً أو نسياناً.

---

(١) راجع: سورة: البقرة ٧٥ ، ١٧٤ ، آل عمران ٧١ ، ٧٨ ، النساء ٤٦ ، المائدة ١٣ ، الأنعام ٩١.

لهذا تغيرت مصادر المسيحية عن زمن عيسى والحواريين، فبعدما كان المصدر هو الإنجيل الصحيح صار الآن عدة أناجيل لا تمت إلى المسيح بصلة.

يضاف إلى ماذكر أنهم لا يستطيعون أن يثبتوا لمصادرهم الموجودة حالياً سنداً يصلها بعيسى أو بتلاميذه، كما أنهم عاجزون عن الإتيان بنسخة الأناجيل الأصلية، وتعدد الأناجيل واختلافها أضحى قوياً على أن إنجيل عيسى لا وجود له، فليس هو كلمات متى ومرقس ولوقا ويوحنا، كما أنه ليس رسائل بولس.

يدل على ذلك أيضاً التناقضات الصارخة التي تملأ كتبهم المقدسة ومصادرهم المزيفة والتي أصبحت حديث المتخصصين في علم مقارنة الأديان من المسيحيين وغيرهم، وما كان ينبغي لدين أن تتصادم رواية مصادره وتختلف نصوصه.

يقول شارل جنيير: «إن أغلب الفقرات التي يظهر فيها أنها من الأناجيل يبدو أنها صدرت عن محرري الأناجيل لا عن عيسى، أما تلك التي نرجح أنها مبنية على حديث صحيح له فلا تعدو الأربع أو الخمس فقرات، ولا يمكن أن نصفها بأقل من أنها خاطئة أساسا في ترجمتها للنص الأصلي، ويجب ابدال تعبير «ابن الإنسان» فيها بكلمة«إنسان»[1].

ويقول: «ويجب علينا أن ننظر إلى الكتب التي تدعي سرد سيرة عيسى

---

(١) راجع الكتاب القيم للأستاذ شارل جنيير: المسيحية نشأتها وتطورها ص٣٤-٥٢، دار المعارف.

على أنها مؤلفات تستند إلى الكثير من التحكم والنزعات الذاتية»[1].

بل ذكر أن الأحداث الخاصة بالصلب قد تأثر كتّاب الأناجيل فيها بالأساطير الشائعة في الشرق[2].

هذه شهادة أحد الباحثين الفرنسيين المتخصصين في تاريخ المسيحية، وغيرها كثير، يذكر القس حنا جرجس الخضري أن مدرسة ألمانية ظهرت تعتنق أفكاراً خاصة عن المسيحية والأناجيل، من بين هذه الأفكار عدم اعتبار الأناجيل كمستندات تاريخية بحته، لأنها لم تؤلف وتحفظ كي تعطي فكرة عن يسوع الذي عاش وعلم في الجليل وفلسطين والذي مات في اورشليم.

ولقد كتب بولتمان يقول: «لا يمكن أن نثبت صحة أي كلمة من كلام المسيح، وكل ما يمكن أن نقوله عن حياة يسوع وشخصيته هو ألا نقول شيئاً، يرجع ذلك إلى عدم التأكد من الوثائق التي لدينا»[3].

يمكن القول إذن: إن تحريف الإنجيل المنزل على نبي الله عيسى أصبح حقيقة تستعصي على الإنكار من قبل القساوسة أو سواهم، ويكفينا ذلك.

وقد أدّى هذا التحريف إلى تحول المصدر الوحيد في المسيحية «الإنجيل» إلى عدة مصادر. فما هي مصادر المسيحية بعد التحريف؟ هذه المصادر هي:

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.
(٣) تاريخ الفكر المسيحي للدكتور القس حنا جرجس الخضري جـ١ ص١٦، دار الثقافة المسيحية بالقاهرة.

العهد القديم، والعهد الجديد، وقد جمعهما النصارى في كتاب واحد أطلقوا عليه «الكتاب المقدس».

ومن هنا بدأت أسباب فساد المسحية.

ويمكن أن نجمل هذه الأسباب فيما يلي:

(١) المصادر المحرفة. (٢) بولس.

(٣) قرارات المجامع. (٤) قداسة البشر.

وسنتحدث عن كل واحدة بإيجاز:

أولاً: المصادر المحرفة:

قلنا إنها تتمثل في العهدين القديم والجديد:

١- العهد القديم:

كلمة العهد تعني الميثاق، فالقديم ميثاق الله إلى موسى -عليه السلام- والجديد ميثاق الله إلى عيسى -عليه السلام- على حد زعمهم.

والعهد القديم يقدسه النصارى لاعتقادهم أن المسيح ما جاء لينقض التوراة بل جاء ليكملها.

وقد سبق الحديث عن العهد القديم مفصلاً في مصادر التشريع عند

اليهود فارجع إليه.

٢-العهد الجديد:

يحتوي على أناجيل ورسائل المسيحية المقدسة، وينقسم إلى قسمين:

الأول: اتفق جمهور قدماء المسيحيين على صحته، ويشتمل على عشرين كتاباً: الأناجيل الأربعة، ثلاث عشرة رسالة كتبها بولس، وتسمى (الرسائل التعليمية) ويضاف إلى ذلك ثلاثة أسفار، الأول لبطرس، والثاني ليوحنا، وسفر أعمال الرسل للوقا.

الثاني: اختلفوا في صحته ويضم سبعة أسفار:

١- رسالة بولس إلى العبرانيين.

٢- الرسالة الثانية لبطرس.

٣- الرسالة الثانية ليوحنا.

٤- الرسالة الثالثة ليوحنا.

٥- مشاهدات يوحنا.

٦- رسالة يعقوب

٧- رسالة يهوذا.

ومجموع القسمين معاً سبعة وعشرون سفراً، وكلها موجودة بالعهد

الجديد المتداول بأيدي النصارى الآن.

ويلاحظ على العهد الجديد مايلي:

أن القسم المتفق عليه لا يحوي سوى الأناجيل ورسائل بولس، مما يدل على أن الأناجيل مع رسائل بولس هي القطب بالنسبة للمسيحية، أما عن بولس فستتحدث عنه على حدة على اعتبار أنه يمثل عاملاً أساسياً وهاماً في تحويل المسيحية إلى تقديس البشر.

أما الأناجيل فخلاصة القول فيما يتعلق بتحديد الزمان، والمكان والكيفية التي كتبت بها مجهولة؛ فلم ينته الخلاف بعد حول كاتب كل إنجيل وزمن كتابته، والمكان الذي كتب فيه واللغة الأصلية التي كتب بها والجهة التي كتب لها، لدرجة أن أحد قساوستهم عندما سئل عن مؤلف إنجيل يوحنا قال بالحرف الواحد«لا يعلم إلا الله وحده من الذي كتب هذا الإنجيل»[1] وما يقال عن إنجيل يوحنا يقال عن بقية الأناجيل، ناهيك عمّا دونها من الأسفار والرسائل.

من هذا العرض نستطيع أن نقرر أن الاعتماد على هذه المصادر المحرفة كان هو المدخل لإفساد دين عيسى، ثم تلته أسباب أخرى من أهمها بولس.

---

(١) القس عزيز فهيم، مدخل إلى العهد الجديد، ص٥٤٦، دار الثقافة المسيحية ١٩٨٥.

٤ / ١١ / ٩٦

ثانياً: بولس والمسيحية:

اتفق جمهور الباحثين في علم الأديان من مسلمين ومسيحيين على أن بولس هذا كان رجلاً يهودياً شجاعاً، وكان عدواً لدوداً لتلاميذ المسيح، وقاد أشرس الحملات ضد النصاري، فقد أنزل بهم من البلاء والمحن ما تعجز الأقلام عن وصفه، يقرر ذلك كاتب سفر أعمال الرسل إذ يقول: «وأما شارل (بولس) فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت، ويجر رجالاً ونساءً، ويسلمهم إلى السجن، فكان لم يزل ينفث تهدداً وقتلاً على تلاميذ الرب، فتقدم إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساءً يسوقفهم موثقين إلى أورشليم»[١]

- وفجأة تحول هذا العدو اللدود إلى قديس وملهم ينزل عليه روح القدس، ويؤلف من الرسائل ما يصبح -في نظر المسيحية- وحياً مقدساً!!

هذا التحول أثار الباحثين فكراً وتحليلاً، وانتهوا إلى أن هذا الرجل اخترع قصة لدخوله في المسيحية، مؤامرةً منه لإفساد دين المسيح لما عرف أن السيف لن يجدي معهم.

وبولس هذا هو الذي أدخل العقائد الوثنية في دين المسيح، وهو الذي حول المسيحية من تقديس الإله وتنزيهه إلى اعتقاد ذلك في البشر، بدءاً من تأليه المسيح واعتقاد حلول اللاهوت في الناسوت، وانتهاءً بتقديس البابوات وتقبيل أقدامهم. هذا هو الذي جعلنا نضعه سبباً رئيسياً في إفساد دين المسيح، ونستطيع أن نقول دون مبالغة أن المسيحية السائدة أو المعروفة

(١) لوقا: أعمال الرسل ٨:١-٣، ٩:١-٩

بعقائدها وبشعائرها تدين لبولس في نشأتها ووجودها. يقول«ما يكل هارت»: «أما مبادئ اللاهوت فهي من صنع القديس بولس»[1] ويقول الأستاذ محمد مرجان وهو مسيحي دخل الإسلام «وكم ألغى بولس وغيره من المبشرين تعاليم سماوية وأحكاماً إليهة من أجل استمالة الوثنيين كلما اصطدمت تلك التعاليم بعادات وتقاليد الشعوب الوثنية»[2].

يدل على كل هذا تلك الرسائل التي ألفها بولس وضمت إلى الأناجيل، وهي ليست قليلة، إنها تبلغ أربع عشرة رسالة، ولها في المسيحية شأن كبير، فهم يعتقدون أن بولس قد شرح المسيحية برسائله، وقد اقتفى المسيحيون خطاه، وتناقلوا أخباره وأقواله سواء ما دونه في رسائله أو ألقاه على الجموع، وتشتمل على مبادىء العقيدة وبعض الشرائع العملية، ولذا يطلق عليها الرسائل التعليمية.

ولذا يرى الباحثون أن مؤسس المسيحية المؤلهة للبشر هو بولس وليس المسيح المنزه عن ذلك عليه السلام، وهو الذي أقام المجامع وجعل قراراتها ملزمة ومقدسة، وقد فعل ذلك ليلغي أو يضيف من العقائد مايريد، فما هي تلك المجامع؟

ثالثاً: قرارات المجامع:

تنقسم المجامع إلى ثلاثة أقسام: مجامع مسكونية أي عالمية، نسبة إلى (المسكونة) وهي الأرض، ويمثل فيها مسيحيو العالم، ومجامع محلية أي

---

(١) الخالدون مائة ص٢٣، ت: أنيس منصور، المكتب المصرى الحديث.

(٢) الله واحد أم ثالوث، صـ٨٧، دار النهضة العربية.

إقليمية، وهي أقل سعة من الأولى، حيث يمثل فيها مسيحيو إقليم معين، ومجامع ملية تخص كل طائفة على حدة.

وعلى الرغم من اختلاف هذه المجامع فيما بينها، إلا أن العقائد المسيحية تشكلت بناء على قرارات تلك المجامع، فالمجامع هي التي اختارت الأناجيل والرسائل والأسفار من بين المئات، وهي التي اختارت العقيدة المسيحية القائمة على التثليث وحلول اللاهوت في الناسوت وتقديس البابوات، وكانت هناك معارضات لتلك القرارات إلا أن هذه الأصوات كانت تخمدها الكنيسة أو كانت قادرة على إسكاتها على الدوام!

وعلى هذا فالبشر هم الذين اختاروا النص المقدس من بين مئات الكتب، وهم الذين نسجوا خيوط دينهم وعقيدتهم حسب أهوائهم، ومن مصلحة أعضاء هذه المجامع أن يبالغوا في تقديس رجال الدين ووضع هالة من التعظيم والإجلال حولهم، لأنهم أولاً منهم، وثانياً لأن هذا يعود على قراراتهم بوضعها موضع التنفيذ والإلزام لا الأخذ والرد.

وهذا هو الذي جعلنا نقول: إن قرارات المجامع أحد الأسباب الرئيسية في إفساد الدين المسيحي. وقد استندوا في حجية هذه المجامع إلى نصوص نسبوها زوراً وبهتاناً إلى المسيح، مثل: «الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء»[1] خطاباً منه لتلاميذه -على حد زعمهم.

---

(١) متى: ١٦: ١٩، ١٨: ١٨-١٩

ونفس العبارة تقريباً قيلت لبطرس على ما ورد في إنجيل «متى»[1].

لقد تم فرض الوثنية في مجمع نيقية على المسيحيين فرضاً، وقد استخدم الامبراطور قسطنطين سلطانه في ذلك، أو في هذا التحريف والتبديل؛ فهو الذي دعا إلى عقد هذا المجمع عام ٣٢٥م، واتخذ صفة عالم اللاهوت، وتدخل في المناقشات وتوجيه القرارات لتكون حصيلتها: تقرير ألوهية المسيح، وأنه من جوهر الله، وأنه قديم بقدمه، وأنه غير مخلوق، وتم في هذا المجمع ادانة الراهب آريوس الذي كان يرفض تأليه المسيح، ويدعو إلى التوحيد، وإنسانية عيسى، كما تم احراق كتبه وكتب أتباعه.

رابعاً: تقديس البشر:

لقد استطاع بولس ومن بعده من معتنقي عقائده أن يصبغوا المسيحية بعقائد التثليث والحلول والتجسد والصلب والفداء والتحول، وهي عقائد يعتبر تقديس البشر القاسم المشترك بينها جميعاً، وهي تمثل العقائد الرئيسية في المسيحية. ولما كانت تلك العقائد مناهضة للعقل وغير متصورة، زعم النصارى أنها «أسرار» لا يعرفها إلا الرؤساء المعصومون، ولذا اشتهر في المسيحية عبارة: «آمن ثم فكّر»!.

وسنركز فيما يلي على عقيدتي التثليث والاعتراف.

---

(١) المرجع السابق، نفسه.

١- التثليث:

يقرر قانون الإيمان المسيحي عقيدة النصارى والتي تتلخص في الإيمان «بالآب والابن والروح القدس» ومع ذلك فالثلاثة واحد، وهذه العقيدة تجمع بين المتناقضات لأنها تحتوي على تأنيس الإله وتأليه الإنسان، وهذا هو الذي جعلهم يقررون أن التثليث سر يستحيل فهمه، يقول القس «توفيق حيد» إن الثالوث سر يصعب فهمه وإدراكه، وإن من يحاول إدراك الثالوث كمن يحاول وضع مياه المحيط في كفه»[١].

والسبب في هذا الغموض أنهم حاولوا أن يجمعوا بين عقيدة سماوية صحيحة وأخرى أرضية وثنية، فأدى ذلك إلى الجمع بين المتناقضات فقالوا بتثليث في وحدة، ووحدة في تثليث، وفي الوقت الذي يدفعون به هذا التناقض يقعون في تناقض أشد.

لقد فرضت عقيدة التثليث على مسيحي الأمبراطورية الرومانية. وباتت هي الصورة التقليدية التي تقدم بها المسيحية إلى العالم.

لقد ذكرنا على لسان باحثين مسيحيين أن بولس ومن بعده كانوا يقربون العقائد المسيحية من الوثنيات استمالة للشعوب الوثنية في عهدهم، وعقيدة التثليث من هذه العقائد التي قربت المسيحية من الوثنيين، بل إنها قد أخذت من العقائد الوثنية.

إن الثالوث كان معروفاً قبل المسيحية، كان هناك الثالوث المصري،

---

(١) سر الأزل ص١١

والثالوث الهندي، وقد عقد الأستاذ محمد مرجان مقارنة بين الثالوث المصري والمسيحي، وانتهى إلى أن التشابه بينهما كامل سواء في عدد الأقانيم أو في خاصية كل أقنوم[١].

والأستاذ «مالفير» عقد موازنة بين الثالوث الهندي والمسيحي ووجد التشابة كبيراً، بل إنه يقرر أن نص قانون الإيمان المسيحي، يكاد ينطبق على نص عقيدة الهنود[٢].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التشابه بين عقائد النصارى والوثنيات في قوله تعالى: ﴿ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنَّى يؤفكون﴾ (التوبة: ٣٠).

لقد لعب بولس الدور الأكبر في إلصاق الألوهية بالبشر بالدعوة إلى أُلوهية المسيح، وكانت رسائله أقدم كتب قبلتها المسيحية، ودعا فيها المسيح ابن الله بنوَّةً حقيقية لا مجازية، فكان بذلك أول دَعِيٍّ مسيحى يقول: لله ولد[٣]!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وإذا كان المسيحيون قد قبلوا أن يكون المسيح إلها أو ابناً للإله، أو قبلوا تجسد الإله في شخص المسيح، فلم يكن هناك مشكلة بعد ذلك أن يحاط رجال الدين بهالة من القداسة والطهارة تجعلهم في نظر المسيحيين

---

(١) الله واحد أم ثالوث ص ٧٩، دار النهضة العربية.

(٢) المصدر السابق، ص ٨١.

(٣) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر لأحمد عبدالوهاب، ص٤٨، مكتبة وهبة ط١ سنة ١٩٨١م.

معصومين، لقد كان تجسد الإله أو تأليه المسيح مدخلاً لأي عقيدة أضيفت بعد ذلك لتعمق في نفس المسيحي قداسة البشر، ومن ذلك عقيدة الاعتراف.

٢- عقيدة الاعتراف:

من العقائد المسيحية التي أعطت لرجال الدين سلطة أكبر، فالاعتراف أمامهم بالذنب مع دفع مبلغ من المال يؤدي إلى غفران الذنوب، فهم وحدهم الذين يملكون غفرانها، وإمعاناً في تثبيت هذه السلطة وتوسيعها أصبح رجال الدين لا يملكون مغفرة ذنوب الأحياء فحسب بل يغفرون للموتى أيضاً.

وماداموا يملكون المغفرة وهي ما تسمى بحق «الغفران» فهم يملكون «الحرمان» أيضاً، فقد زعم رجال الدين القدرة على منع أي إنسان من دخول الجنة، وهو ما يعرف عندهم «بالحرمان».

وبناء على ذلك كانت الكنيسة الأرثوذكسية تطبع مرسوماً يباع عن طريقها يطلق عليه صك الغفران، وليس في هذا المرسوم فراغ إلا لكتابة اسم الشخص الذي يريد المغفرة.

وهذه العقيدة لا تقبل الشك لديهم، خاصة عند الكاثوليك والأرثوذكس، لكي يضفوا عليها الشرعية والقداسة فقد استدلوا على حق رجال الدين في الغفران والحرمان بما نسبه يوحنا إلى المسيح حيث زعم أنه بعد قيامته قال للتلاميذ «من غفرتم خطاياه غفرت له، ومن أمسكتم خطاياه

أمسكت»[1]

تعقيب:

هذه العقائد التي حولت رجال الدين عندهم إلى آلهة، والتي حولت كلام البشر إلى مرتبة الكتب المقدسة، كانت إرهاصاً لظهور العلمانية، بل إن تسلط رجال الدين هؤلاء، وما فعلوه من إيهام المسيحيين أن بيدهم مفاتيح الدنيا والآخرة، كان هو السبب المباشر لظهور العلمانية التي أقصتهم عن مجال التأثير السياسي بوجه خاص، وما تبع ذلك من تأثيرات سلبية على العقيدة والدين بوجه عام.

ومن هنا يتبين لنا أثر تسلط الكنيسة وعصمة البابوات وقداسة رجال الدين في قيام العلمانية التي كان لليهود دور بارز في توظيفها والدعوة إليها، الأمر الذي ترك أبعد الأثر في الفكر الغربي حيث انطلق المذهب المادي في مجال الفكر والاجتماع والتربية والسياسة والاقتصاد.

وفي جميع الأحوال، فقد بقي العداء للإسلام كامناً في صدور الأوربيين حتى بعد تقليص دور المسيحية، وأخذ الصراع يأخذ أشكالاً جديدة وأساليب حديثة، كان الهدف منها السيطرة على العالم الإسلامي، وقد بدأ ذلك بالحروب الصليبية، وانتهى بالغزو الفكري. وهذا ما سنعرفه فيمايلي:

---

(١) يوحنا ٢٠:٢٣

الحروب الصليبية

اضطربت كلمة المؤرخين من العرب في بيان السبب الذي حدا بأولئك المغيرين إلى الخروج من بلادهم بهذه الشدة، وتلك الكثرة.

والذي عليه جمهور المؤرخين أن الغيرة الدينية التي أثارها في أوروبا بطرس الراهب بمساعدة البابا «أوربانس الثاني» هي التي أهاجت أنفس الإفرنج لهذه الغارة، فقد زار بطرس الراهب البيت المقدس، فعز عليه ما رآه من ملك المسلمين لهذا البيت الذي به آثار المسيح -عليه السلام- فعاد إلى أوروبا شاكياً باكياً مستغيثاً واستعان بسلطان البابا الذي كان إذ ذاك صاحب الكلمة العليا في أوروبا. فأعانه وعقد المؤتمرات لبث الحمية الدينية في قلوب المسيحيين فنجح في ذلك، ولاسيما أنه أعطى امتيازات لها قيمة لمن يتطوع في هذه الحروب، فتألفت جيوش عظيمة سارت إلى طلبتها سنة ٤٨٩ هـ يقدمها بطرس الراهب وغيره، إلا أن هذه الحملة لم تنجح في مسيرها.

ولكن قامت الحملات بعد ذلك على إثرها، فقد كانت الحملة الثانية يقدمها «نهود أفرودي بوليون» ومعه عدد وافر من قواد فرنسا والنمسا، وجيش آخر يقدمه «هوكز» أخو ملك فرنسا، ومعه عدد من القواد، وجيش ثالث يقدمه «بوهيمند» أمير تارنت الإيطالي.

وسارت تلك الجيوش حتى تم لها ما طلبت من الاستيلاء على بيت المقدس، وانتخبوا القائد «غوادفر» ليكون ملكاً هناك، ولم يرض أن يلقب بالملك بل بحامي قبر المسيح[1].

(١) راجع : الشيخ محمد الخضرى بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة

والتاريخ المسيحي يطلق على هذه المعارك، «الحروب المقدسة»[1] مما يدل على هبوب ريح التعصب الوحشي.

وقد تتابعت الحملات الصليبية على مدى قرنين من الزمان، استطاع فيها الصليبيون الاستيلاء على بلاد الشام بما في ذلك بيت المقدس، كما استطاعوا طرد المسلمين من الأندلس بصورة تعبر عن الوحشية، فقد لجأ المسلمون إلى بيت المقدس تعوذاً فقتلهم النصارى في صحنه حتى بلغ عدد القتلى سبعين ألفاً دون تمييز بين الرجال والنساء والشيوخ والأطفال والمرضى.

وقد نقضوا العهود وفرضوا الإتاوات، وقتلوا كثيرين حرقاً وصلباً، وقد صورت كتب التاريخ الحروب الصليبية بما يشيب منه الولدان يستوي في ذلك مؤرخوا الإسلام والمسيحية على حد سواء.

ومع ذلك فقد مُنِيَ الفرنج بهزائم ساحقة في هذه الحروب، ومن أعظم تلك الانتصارات ما كان على يد القائد صلاح الدين الأيوبي الذي أخذ كثيراً من البلاد الشامية التي كانت بأيديهم، واسترد منهم بيت المقدس بشجاعة نادرة، والبون الشاسع بينه وبين غزاة الصليبية كان في طريقة التعامل فبينما كتب التاريخ تصور هول ما صنعه الصليبيون بالمسلمين هي نفسها التي بينت كيف تعامل صلاح الدين مع النصارى المستعمرين بأخلاق الإسلام.

ولم ينسَ الصليبيون هزائمهم في تلك الحروب حتى اليوم، وكان

العباسية ص ٢٤٢-٢٤٤ بتصرف. المكتبة التجارية الكبرى.

(١) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، ص٥٧٥ تعريب: رياض رأفت، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٨م.

لاسترداد بيت المقدس أثره على الفرنسيين والألمان بخاصة، وسائر المسيحيين الأوربيين بعامة حيث تدفقت جموع المسيحيين في حملات متوالية حتى يئست النفوس، ووهنت القوى، وتضعضعت الهمم من جراء الفشل الذريع والخسائر المتوالية، وفقدت أوروبا زهرة شبابها، ونضب فيها معين المال حتى غدا الإفلاس يقرع أبوابها، والمجاعات تهددها، والخراب يقوض أركانها، فهلك الملايين في الوقائع الحربية وفتكت الأوباء والمجاعات برجال الصليب وحماة المسيحية، الذين ارتكبوا أفظع الجرائم التي يعجز عن وصفها الخيال»[1].

أثر هذه الحروب:

أحدثت تلك الحروب أثراً من أعمق الآثار في نفسية الشعب الأوروبي وإن الحمية الجاهلية العامة التي أثارتها تلك الحروب في زمنها لا يمكن أن تقارن بشيء خبرته أوروبا من قبل ولا اتفق لها من بعد[2].

وهذا الحقد الذي امتلأ به الأوروبي على الإسلام سيكون له أثره في كل حكم يصدر منه، فإذا ما حلت بالمسلمين نكبة على يد الأوروبيين فهذا أمر طبيعي، وقهر المسلمين واستذلالهم ليس شيئاً ضد الأخلاق، وإنما كان من أحكام الزمان القاضية بسيطرة القوي على الضعيف[3] ونتيجة لذلك فقد انعدم المنطق نهائياً عند إصدار الأحكام فيما يتعلق بالمسلمين، فليس هناك

(١) الشيخ محمد الخضري بك، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، ص ٢٤٢-٤٤٤ بتصرف.

(٢) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص٥٤ دار الاعتصام.

(٣) حاضر العالم الإسلامي جـ٤ ص١٠

سوى الدعوة باستعمال القوة واستئصال شأفة المسلمين .

كل هذا الحقد أنتج توحد أوروبا ضد الإسلام ، ووجدت أوروبا نفسها موحدة ضد العالم الإسلامي .

ويمكن أن نقول من غير أن نوغل في المبالغة : إن أوروبا ولدت من روح الحروب الصليبية ، وأثناء هذه الحروب ولدت فكرة المدنية الغربية ، وأصبحت هدفاً واحداً تسعى إليه الشعوب الأوروبية على السواء ، وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للإسلام[1] .

إن ما خلفته الحروب الصليبية من أثر لم يستطع الأوروبي أن يتخلص منه حتى بعد تخلصه من الكنيسة ، ولا بعد إلحاده وكفره بالأديان ، وهذا هو الأثر الذي نركز عليه هنا . .

وهناك نقطة أخرى أضيفت إلى رصيدالعداوة وهي **التغني بحرب المسلمين** ، حيث يشب الطفل فيسمع أنباء البطولة من بني جنسه ، وضد من؟ ضد المسلمين وكما كان للفروسية عندهم قوانينها ، كانت الهيئات العسكرية الصليبية التي تنشأ اعضاءها تنشئة معينه ، وكان علي الإخوة الأعضاء أن ينذروا علي أنفسهم الفقر والعفة والطاعة .

لم يعد موقف الأوربي من المسلمين موقف كره من غير مبالاة ، بل كره يتبعه حروب وتأصلت العداوة حتي أصبحت أغنية شعبية تتردد ، وتأصلت البغضاء ونمت مع تقدم الزمن ، ثم استحالت عادة ، وتلك البغضاء تغمر

(١) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ص٥٦

الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة مسلم[1].

لقد حلت هذه العداوة في الأمثال السائرة عندهم حتي نزلت في قلب كل أوروبي رجلاً كان أو امرأة وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع ادوار التحول الثقافي[2].

لم ينتهي بانتهاء الحروب الصليبية والدليل تصريحات من المسيحيين أنفسهم مثل قول روستو
ان [illegible] بين الشرق [illegible] ليس بين دول وشعوب وإنما بين الحضارتين الاسلامية والمسيحية .

(١) د. بركات دويدار : الحركة الفكرية ضد الإسلام ص٣٣.

(٢) محمد اسد : الاسلام على مفترق الطرق ص٥٨

استمرارية روح الحقد الصليبي

لقد تغيرت أوروبا فكرياً حيث ذهبت قيم وجاءت قيم أخرى، فقد كانت الكنيسة هى المسيطرة في العصور الوسطي، وهي الموجهة، ودور البابوات في الحروب الصليبية معروف ولا يحتاج الي مزيد تأكيد، وذهبت سلطة الكنيسة لكن الذي لم يتغير هو الموقف العدائي من الاسلام والمسلمين حتي من عادي المسيحية بقي محافظا علي عدائه للمسلمين.

ولا زال الغرب يبني علاقته معنا علي أساس أن الحروب الصليبية لاتزال مستمرة.

يقول أبو جين روستو، رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الامريكية ومساعد وزير خارجيتها ومستشار الرئيس جوتون لشئون الشرق الأوسط سنة ١٩٦٧ .

«يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول وشعوب بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية لقد كان الصراع محتدماً بين المسيحية والاسلام منذ القرون الوسطي، وهو مستمر حتي هذه اللحظة بصور مختلفة، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب، وخضع التراث الاسلامي للتراث المسيحي»[1].

---

(١) جلال العالم : قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبيدوا أهله . ص٢٤, ٢٥. ط٢ سنة ١٩٧٥م .

ويركز علي تباين الثقافات والفلسفات بين أمريكا والشرق الإسلامي فيقول: «إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا انما هي جزء مكمل للعالم الغربي، فلسفته وعقيدته ونظامه وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي بفلسفته وعقيدته المتمثله في الدين الإسلامي ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام وإلي جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية، لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها»[1]. هذه تصريحاتهم وليتنا نعي ذلك تماما لكن يبدو أن سياسة التغييب والتخدير هي السائدة في عالمنا.

ومما يدل علي هذه الإستمرارية لروح الحقد والكراهية ضد الإسلام والمسلمين ماذكره «روستو» المشار إليه سابقاً من أن هدف الاستعمار في الشرق الأوسط هو تدمير الحضارة الإسلامية وإن قيام إسرائيل هو جزء من هذا المخطط، وإن ذلك ليس إلا استمراراً للحروب الصليبية[2]

والجنرال غورو عندما تغلب علي جيش ميسلون خارج دمشق توجه فوراً إلي قبر صلاح الدين الأيوبي عند الجامع الأموي، وركله بقدمه، وقال له: «هانحن قدعدنا ياصلاح الدين»[3].

هذه الروح الصليبية الحاقدة والمستمرة حتي بعد تغير المسيحية نفسها هي التي جعلت المسيحيين يضعون أيديهم في أيدي أعداء الإسلام حتي لوكانوا

---

(١) جلال العالم: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله. ص٢٤, ٢٥. ط٢ سنة ١٩٧٥م.

(٢) نفسه ص ٢٥.

(٣) راجع: جلال العالم: قادة الغرب يقولون ص٢٦, ٢٧.

من المخالفين لهم فالبون الشاسع بين المسيحيين واليهود لاينكره إلا جاحد لكنهما يلتقيان عندما يكون الإسلام هوالطرف الآخر قال راند ولف تشرشل:

«لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء إن سرور المسيحيين لايقل عن سرور اليهود، إن القدس قد خرجت من أيدي المسلمين، وقد أصدر الكنيست اليهودي ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية. ولن تعود إلى المسلمين في أية مفاوضات مقبلة مابين المسلمين واليهود[1].

هذا الكلام قيل عام ١٩٦٧، وهو بعينه الذي يتحقق هذه الأيام فإسرائيل تصر ومعها الصليبيون أن القدس عاصمتها الأبدية، وأنها لا تخضع لأي لون من المفاوضات أو المساومات، والكنيست الأمريكي الصليبي يتخذ القرارات بنقل سفارة أمريكا إلى القدس ولم يبذل الصهاينة أي جهد لحث الصليبيين على معاونتهم ومؤازرتهم في معاركهم معنا سوى جعل لافتات وصناديق تبرعات عليها جملة من كلمتين هما: قاتلوا المسلمين، فالتهب الحماس الصليبي الغربي، وتبرع الفرنسيون بألف مليون فرنك خلال أربعة أيام فقط[2] وهكذا نرى الحرب مستمرة سواء في ثوبها العسكري أو في ثوبها الفكري وهو أشد، ويصل الحقد إلى الإسلام ذاته ولذا فهم يحاولون اقتلاع القرآن، وتغيير اللسان العربي، يقول غلادستون رئيس وزراء بريطانيا سابقاً: «مادام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبة

---

(١) راندولف تشرشل، حرب الأيام الستة ص ١٢٩ نقلا عن المصدر السابق ص٢٧.

(٢) نفسه ص٢٩.

السيطرة على الشرق»[١].

ويقول أحد قواد فرنسا في ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر «إننا لن ننتصر على الجزائر ماداموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم»[٢].

وهذه الروح الحاقدة التي تعمل على اقتلاع القرآن واللغة من قلوب العرب، دليل على أنها ستستمر باستمرار هذا الوحي الإلهي صافياً نقياً.

إن الحقد وصل بهم إلى حد تصور إمكانية التخلص من المسلمين ومقدساتهم، يقول المستشرق (كيمون) في كتابه «باتولوجيا الإسلام»: «أعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر»[٣].

وعلى هذا الأساس فإننا نكرر مع الدكتور محمد البهي قوله: «إن الإسلام منذ الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية في آسيا وإفريقيا من منتصف القرن التاسع عشر وحتى اللحظة القائمة يواجه صليبية هذا الاستعمار جنباً إلى جنب مع مواجهة سلطانه السياسي والاقتصادي.

---

(١) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، ص ٣٩.

(٢) المنار، عدد ٩/ ١١/ ١٩٦٢م.

(٣) راجع: قادة الغرب يقولون، ص ٤٦.

وهذه الصليبية ليست هي المسيحية السمحة، وإنما هي روح الانتقام من الإسلام، تلك الروح التي بعثت فيما مضى على الحروب الدامية في القرون الميلادية الثلاثة، الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر. محاولة الاستيلاء على بيت المقدس، وبقيت منذ هزيمتها الكبرى على يد الناصر صلاح الدين، مصاحبة لعقلية الغرب في عرضه للإسلام، وفي تصرفاته مع المسلمين على السواء، ولم تزل فيه باقية عصبية هذه العقلية إلى اليوم»[1]

هذا فيما يتعلق بالحروب الصليبية، واستمرار روحها في تعامل أوروبا مع العالم الإسلامي، أما فيما يتعلق بالغزو الفكري ومحاولة السيطرة على العالم الإسلامي فكرياً وسائر ألوان السيطرة الأخرى السياسية والاقتصادية، فسوف نعرض لها من خلال حديثنا القادم عن الاستشراق والتبشير.

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص٣٩٩، ط٩ مكتبة وهبة.



الاستشراق

تعريف الاستشراق:

هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي ، وكلمة مستشرق بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله . لكن المعنى الخاص والذي يعنينا في دراستنا للاستشراق، هو أن الاستشراق يعني «الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته»[1]

وعلى هذا فالمستشرقون هم الباحثون المشتغلون بدراسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

وينبغي ونحن نتحدث عن التعريف أن نشير إلى أمرين :

الأول : أن مصطلح الشرق في الأصل من وضع الأوروبيين لأن تقسيم العالم إلى شرق وغرب ، وتقسيم الشرق إلى أدنى وأوسط وأقصى يعود إليهم ، أو هو بالنسبة لهم .

الثاني: على الرغم من أن الاستشراق يمتد بجذوره إلى مايقرب من ألف عام إلا أن مفهوم «مستشرق» لم يظهر في أوربا إلا في نهاية القرن الثامن عشر ، فقد ظهر أولاً في انجلترا عام ١٧٧٩م ، وفي فرنسا سنة ١٧٩٩م وأدرج مفهوم

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود زقزوق، ص١٨ ، ٢٠ ، كتاب الأمة رقم(٥) لعام ١٤٠٤هـ ط . أولى .

«الاستشراق» في قاموس الأكاديمية الفرنسية سنة١٨٣٨م[١].

بداية الاستشراق:

تعددت الاتجاهات في تحديد بداية الاستشراق، ويمكن تلخيص هذه الاتجاهات فيمايلي: -

الاتجاه الأول: يرجع أصحابه بداية الاستشراق إلى القرن السابع الميلادي، حيث المحاولات التي قام بها النصاري الشرقيون مثل يوحنا الدمشقي (٦٧٦ - ٧٤٩م) والذي صنف كتابيه «محاورة مع مسلم» و«إرشادات النصارى في جدل المسلمين»[٢].

لكننا إذا علمنا أن (يوحنا الدمشقي) كان رجلاً شرقياً عاش في ظل الدولة الأموية، وخدم في القصر الأموي، فلا تعتبر محاولته تلك بداية للاستشراق لأن المفترض في الحديث عن الاستشراق والمستشرقين أن يكون مقصوراً على العلماء الغربيين.

الاتجاه الثاني: وأصحاب هذا الاتجاه يجعلون بداية الاستشراق هو القرن العاشر الميلادي، ويؤرخون له بحياة الراهب الفرنسي «جريردي أوراليك» (٩٤٠-١٠٠٣) حيث رحل هذا الراهب من فرنسا إلى أسبانيا، وتتلمذ على أساتذتها في إشبيلية وقرطبة، حتى صار أوسع علماء عصره معرفة بعلوم العرب، وتقلد بعد ذلك منصب البابوية في (روما) ولقب بالبابا سلفستر

(١) المصدر السابق.

(٢) المستشرقون: نجيب العقيقي ص٧٢ جـ١ ط. رابعة دار المعارف سنة١٩٨١م.

الثاني.

الاتجاه الثالث: يذهب (رودي بارت) إلى أن بدايات الدراسات الإسلامية والعربية في أوربا تعود إلى القرن الثاني عشر، والذي تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، كما ظهر في القرن نفسه أول قاموس لاتيني عربي[1].

الاتجاه الرابع: يجعل أصحابه بداية الاستشراق في أول القرن الرابع عشر حيث صدر قرار مجمع ڤيينا الكنسي سنة١٣١٢م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية[2].

ويتمسك الغرب النصراني بهذا التاريخ ويعتبرونه بداية الاستشراق الرسمي أو الاستشراق الكنسي إن صح هذا التعبير.

والحقيقة أن ضابط تحديد زمن معين لبداية الاستشراق يعود إلى تصور الباحث للاستشراق، فإن قصد بالاستشراق مجرد معرفة شيء عن الإسلام أو الاطلاع على علومه والتوجه لدراسته، فلا شك أن بعض الغربيين قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات.

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود زقزوق، ص١٨، ٢٠.

(٢) الاستشراق: إدوارد سعيد ص٨٠، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت سنة١٩٨١م.

أما إن قصد بالاستشراق توجه الغربيين لدراسة الإسلام بقصد الطعن والتشويه تمهيداً لغزو بلاد الإسلام ثقافياً وفكرياً، فلا شك أن هذا قد بدأ بعد الإخفاق في الحروب الصليبية والاستيلاء عليها عسكرياً.

وهذا ما نميل إليه، خاصة أننا لا نؤرخ لبداية معرفة الغربيين بالإسلام بل إننا نؤرخ لذلك الاستشراق الذي يمثل معركة جديدة على العالم الإسلامي، والذي مازلنا نتجرع سمومها حتى يومنا هذا.

لقد تغير أسلوب المواجهة بين العالم الإسلامي والغرب بعد الحروب الصليبية، فاتجه إلى دراسة عقائدنا وأحكامنا وصارت المواجهة بالكلمة بديلاً عن المواجهة بالقوة العسكرية، ومن هنا كانت النواة الأولى لجمعيات المستشرقين -على حد قول العلامة الداعية الدكتور (مصطفى السباعي) رحمه الله والتي مازالت تواصل عملها إلى اليوم[١].

ولما كان القائمون على أمر الحروب الصليبية، هم رجال الكنيسة -كما أشرنا سالفاً- فإن ذلك جعلهم في طليعة المهتمين بأمر الإسلام ودراسة جوانبه، لذا نرى القساوسة في طليعة المستشرقين.

وبعيداً عن الخلاف حول البدايات فإن الباحثين يعتبرون القرن التاسع عشر الميلادي بداية عصر الازدهار الحقيقي للاستشراق، وتعتبر مرحلة تشكل الاستشراق كعلم وبدأ ذلك في فرنسا وانجلترا حيث صار علما قائماً بذاته له رسومه ومناهجه وأغراضه الخاصة.

---

(١) السنة ومقارنتها في التشريع الإسلامي، ص١٨٨، المكتب الإسلامي، ط٢ سنة١٩٧٨م

الأسباب والدوافع:

لا نستطيع أن نقر هنا أن المستشرقين درسوا الإسلام بدافع واحد، بل اشتركت عدة أسباب دفعتهم إلى هذا اللون من المعرفة، ولذا تعددت الدوافع الاستشراقية منها ما هو ديني، ومنها ما هو سياسي أو استعماري أو اقتصادي أو علمي، وسنشير فيما يلي إلى أهم هذه الدوافع.

أولاً: الدافع الديني:

نكرر مع الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله، أننا لا نحتاج إلى استنتاج وجهد في البحث لنتعرف إلى الدافع الأول والأهم للاستشراق عند الغربيين وهو الدافع الديني.

(١) فهم يعلمون ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى، ثم الحروب الصليبية، ثم الفتوحات العثمانية في أوربا في نفوس الغربيين من خوف من قوة الإسلام، وكره لأهله، فاستغلوا هذا الجو النفسي وازدادوا نشاطاً في الدراسات الإسلامية.

ولذا كان جل همهم أن يطعنوا في الإسلام، ويشوهوا محاسنه.

(٢) واشتدت الحاجة إلى هذا الهجوم في العصر الحاضر بعد أن رأوا الحضارة الحديثة قد زعزعت أسس العقيدة عند الغربيين وأخذت تشككهم بكل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين، فلم يجدوا خيراً من تشديد الهجوم على

الإسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدة وكتب مقدسة[١].

لذا كان هذا الدافع هو الدافع الرئيسي والمسيطر على الدوافع الأخرى، ونستدل على ذلك بعدة أمور:

أولها: إن معظم المشتغلين بالاستشراق قديماً وحديثاً من رجال الدين المسيحي واليهودي، وليس من المعقول أن نتصور هؤلاء مجردين من عواطفهم الدينية ومواريثهم الثقافية عند عرضهم للإسلام وتحليل قضاياه، بل الظن الغالب أنهم اندفعوا إلى دراسة الإسلام بقصد الانتصار لمعتقداتهم، يدل على ذلك تصريحات هؤلاء وأقوالهم التي تقطر حقداً على الإسلام.

ثانيها: انصب اهتمام المستشرقين على الدراسات الإسلامية خاصة حيث تناولوا العقيدة، وأصول الفقه، واهتموا بمصدري هذا الدين الكتاب والسنة، وركزوا على لسان الإسلام وهو اللغة العربية، كما ركزوا على حياة نبي الإسلام وسيرته وغزواته عليه الصلاة والسلام.

والهدف الأساسي من تناول هذه الموضوعات إضعاف المسلم في عقيدته وتشكيكه في جذوره حتى تنطمس هويته ويفقد الثقة بدينه.

ثالثها: صوَّب المستشرقون دراساتهم حول الإسلام لإبراز نقاط الضعف في تاريخ وتراث الإسلام، وهم كمن وقع على ثوب أبيض به بعض النقاط السوداء فعمد إلى إخفاء حقيقة هذا الثوب ولم يبرز إلا تلك النقاط السوداء،

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، د. مصطفى السباعي، ص١٥-١٦ المكتب الإسلامي، ط ثالثة ١٩٨٥م.

ولذا نراهم قد ركزوا على الخلافات العقائدية والمذهبية، وعلى الخصومات بين الفرق والجماعات الدينية، والتناحر بين المسلمين على الحكم والسياسة، كما عملوا على إحياء الآراء الشاذة في الإسلام خاصة التراث الباطني والصوفي المتسم بالغلو والانحراف.

وهنا يلتقى هدف المستشرقين مع أهداف المبشرين في زعزعة العقيدة عند المسلم، ويكفيهم إن لم يصبح مسيحياً ألا يبقى مسلماً!!

وفي جميع الأحوال، فإن من الصعب على معظم المستشرقين المشتغلين بدراسة الإسلام -وأكثرهم من الرهبان ورجال الدين المسيحي كما قلنا- أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقائدهم ويتصدى لها بالنقد والتصويب، ومن الصعب عليهم أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضى على النصرانية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها[1].

الدافع الاستعماري السياسي:

وهذا الدافع يجعلنا نتساءل في البداية عن العلاقة بين الاستشراق والاستعمار، إن الاستعمار احتلال واستيطان، أو تحكم وسيطرة، فما علاقة ذلك بالاستشراق الذي هو درس وعلم ومعرفة؟ والحق أن العلاقة وثيقة جداً، فالاستشراق هو مقدمة الاستعمار، فقبل السيطرة على قطر من الأقطار كان المستعمرون يرسلون المستشرقين الذين يدرسون المنطقة ويتعرفون عليها، فيقفون على أحوال الناس وشئون البلاد، ويعرفون تماماً نقاط الضعف فيستغلونها، ونقاط القوة فيضعفونها، حتى تتم السيطرة الاستعمارية بعد هذه

---

(١) الاستشراق: إدوارد سعيد ص٢٦٥، ترجمة: كمال أبوديب.

الدراسة بيسر وسهولة، وبأقل جهد وأبخس ثمن، وعلى هذا فإننا نعتقد أن الاستشراق كان هو الممهد للاستعمار والمهيئ له مناخ السيطرة، وكي يحقق الاستشراق هذا الهدف كان عليه أن يثير الأفكار ويشيع الخلافات، ويهيئ العقول بثقافته كي يصل إلى:

أولاً : بث روح القابلية للمستعمر.

ثانياً : ضعف روح مقاومته في نفوس الناس.

ويضرب الدكتور مصطفى السباعي نموذجاً من أفكارهم التي تفرق ولا تجمع، وتشتت ولا تلملم، فيقول: «إنهم مابرحوا منذ نصف قرن يحاولون إحياء الفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريا ولبنان وفلسطين، والأشورية في العراق. . وهكذا ليتسنى لهم تشتيت شملنا كأمة واحدة، وليعوقوا قوة الاندفاع التحررية عن عملها. . وعودتها من جديد إلى قيادة ركب الحضارة، والتقائنا مع اخوتنا في العقيدة والمثل العليا، والتاريخ والمصالح المشتركة»[1].

يؤكد كل هذا أنه قبل احتلال واستعمار بريطانيا وفرنسا للشرق الأوسط القرن الماضي، كان الاستشراق يضاعف من جهوده لدراسة هذه المنطقة حتى جعلها لقمة سائغة لهؤلاء المستعمرين.

وفي زمن الاستعمار والاحتلال كان المستشرقون الذين درسوا لغات البلاد المستعمرة -بفتح الميم- وآدابها، والذين عنوا على وجه الخصوص

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، د. مصطفى السباعى، ص١٧-١٨

بعاداتها وتقاليدها ولهجاتها المحليّة ، كان هؤلاء يعاونون في إرساء حكم الاستعمار والتمكين له، بل كانوا يرسمون لدولهم المستعمرة سياستها في التعامل مع تلك البلاد.

ثم تابعوا دورهم السياسي هذا بعد استقلال الدول العربية والإسلامية؛ وذلك عن طريق عملهم في سفارات دولهم لدى هذه البلاد، بوصفهم مستشارين أو ملحقين ثقافيين؛ حيث تمكّنهم ثقافتهم ومعرفتهم باللغة العربية من الاتصال برجال الفكر والصحافة والسياسة، ومن معرفة نواحي الضعف في سياسات العرب والمسلمين بوجه عام.

الدافع العلمي:

لا نستطيع أن نغفل أن فريقاً من المستشرقين قد اتجه لدراسة الإسلام بدافع معرفته أو بدافع حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها، وهذا الفريق من المستشرقين قليل العدد، إلا أن بحوثهم ودراساتهم التي اعتمدوا فيها على المصادر الأساسية بوجه عام أقرب إلى المنهج العلمي السليم، ومنهم من أدرك أن رسالة الإسلام قريبة من الرسالات السماوية، ومؤيدة لما جاء في كتبها من أصول الإيمان، والدعوة إلى الخير والحق، بل إن من هؤلاء من اهتدى إلى الإسلام وآمن به.

وهؤلاء كانت أخطاؤهم أقل من غيرهم لأنهم لم يتعمدوا الدس والتحريف، لكن هؤلاء القلة يحتاجون إلى موارد مالية خاصه تمكنهم من التوجه إلى هدفهم بإخلاص، لأن اتجاههم كان بدافع ذاتي بخلاف جمهرة المستشرقين الذين يتعمدون في الغالب الدس والتحريف، فهؤلاء تقف من

ورائهم دول ومؤسسات ومنظمات ولذا فأبحاثهم تلقى رواجاً عند رجال الدين والسياسة[1].

الدافع الاقتصادي:

ظهر هذا الدافع في القرنين التاسع عشر والعشرون، فقد اهتم الغربيون بعدة أمور، منها: استغلال الموارد الأولية والمواد الخام من دولنا والحصول عليها بأبخس الإثمان. ثانيها: الاهتمام بتوسيع تجارتهم. ثالثها: جعل المنطقة سوقاً رائجة لبضائعهم. كل هذا استوجب التعرف على المنطقة ودراسة جغرافيتها الطبيعية والزراعية والبشرية، ومعرفة مداخل ومفاتيح التعامل مع أبنائها حتى يحسنوا التعامل مع تلك البلاد، ويحققوا من وراء ذلك الفوائد الكثيرة التي ستعود على صناعتهم وتجارتهم بالخير الكثير.

من هنا كانت الحاجة ماسة إلى إرسال المستشرقين ليقوموا بتلك الدراسة المطلوبة، وكانت المؤسسات المالية والشركات الاقتصادية تزود هؤلاء الباحثين بالمال، كما كانت الحكومات تمنحهم الرعاية.

كان الدافع لكل هذا هو رغبة الغربيين في التعامل معنا لترويج بضائعهم، واستغلال مواردنا، وقتل صناعتنا المحلية التي كانت مزدهرة في مختلف بلاد العرب والمسلمين[2].

---

(١) - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود زقزوق، ص٧٤.
- الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، د. مصطفى السباعى. ص١٧-١٨.

(٢) انظر: المرجعين السابقين، الأول ص٧٤ ، والثانى ص١٨

أهداف الاستشراق وأغراض المستشرقين:

من المعلوم أن لبعض المستشرقين أهدافاً حسنة أو علمية خالصة لا يقصد من ورائها سوى البحث والتمحيص، لكننا نرمي هنا إلى الأهداف الضارة والغايات المشبوهة، خاصة إذا علمنا أنها الغالبة على التوجه الاستشراقي. أو هي التي تمثل سياسته العامة، وتقف من ورائها هيئات ومنظمات، أما أصحاب الاتجاه الحسن النية فهم وحدهم، ولذا فعددهم قليل ولا يجدون من يقف بجانبهم.

ومن هنا سنقصر كلامنا على تلك الأهداف التي تعكس موقف الاستشراق الحقيقي من الإسلام. ونجملها فيما يلي:

أولاً: بناء الحواجز الثقافية والنفسية بين الإسلام والغرب، لمنع اعتناقهم له أو على الأقل حيادهم في الحكم عليه، لذا عملوا جاهدين لتشويه صورة الإسلام في أعين أقوامهم فأقنعوهم بعدم صلاحيته للحياة، بل عمدوا إلى تخويفهم وترويعهم من المسلمين فوصفوهم بالسفاكين والمتطرفين والإرهابيين، وعمدوا إلى اخراس الألسنة المنصفة، وإلى تعميق الكراهية والأحقاد وغزوا نفوس الغربيين بالأباطيل مما أدى إلى حجب الإسلام عن أوربا.

ثانياً: تشويه صورة الإسلام في أذهان الفئة المثقفة في العالم الإسلامي مما أدى إلى إضعاف ثقة المسلمين في دينهم وتراثهم وحضارة أمتهم، ولتحقيق هذا الهدف عرض المستشرقون حقائق الإسلام عرضاً مشوهاً، وأبرزوا النقاط السوداء فقط في تاريخ وتراث هذه الأمة وأغفلوا حقائق الإسلام فشككوا

في عقيدته، ومثله العليا، مما يجعل المسلم يفقد الثقة في أصوله ويتنكر لهويته، ثم يبحث له عن هوية أخرى، وهم بهذا يمهدون لتحويل ضعاف النفوس إلى اتباع أو ملاحدة(١). وإذا ما عبر المسلمون عن استيائهم إزاء هذا التحامل الظالم على الإسلام، فإن هذا يعني في نظر بعض الباحثين الغربيين عدم قدرة المسلمين على فهم الأمور فهماً علمياً، فكأن ما توصلوا إليه يتسم بالحياد والموضوعية، ومعنى ذلك أن علينا أن نتقبل ما يقوله السادة المستشرقون عن ديننا ونحن صاغرون، وليس لنا حق مجرد التعبير عن الاستياء وإلا فنحن جاهلون(٢)!!

إن الاستشراق بهذه الطريقة يذهب إلى محاولة إلغاء النسق الفكري الإسلامي وتشكيل العقل المسلم وفق النسق الأوربي، وإنجاب تلامذة من أبناء العالم الإسلامي لممارسة هذا الدور، والتقدم باتجاه الجامعات ومراكز الدراسات، والتربية والإعلام، في عالمنا الإسلامي لجعل الفكر والنسق الغربي هو المنهج والمصدر والكتاب(٣).

ثالثاً: فصل المسلمين عن جذورهم، وهذا الهدف مترتب على سابقه فالتشويه والطعن ينتهيان بضعاف النفوس إلى ذلك الفصل، لكن كي يتم الفصل عن الأصول العميقة اتجه المستشرقون إلى التشكيك فيما يلي:

١- **مصدر الإسلام**: الكتاب والسنة المطهرة، فقد اتجهت جهودهم قديماً

---

(١) الإسلام فى وجه التغريب، أنور الجندى، ص٣٧٠-٣٧١

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود زقزوق، ص٨٠-٨١.

(٣) مقدمة كتاب الأمة، ص١٦ للأستاذ عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، رقم(٢٧)

وحديثاً إلى محاولة زعزعة الاعتقاد في صحة القرآن وفي مصدره، ولا تقل محاولة المستشرقين في ذلك عن محاولة مشركي مكة الذين قرروا أنه ﴿إفك افتراه﴾ وأنه ﴿أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه﴾، وأنه-صلى الله عليه وسلم- ﴿يعلمه بشر﴾ ، بل إن محاولات المستشرقين لبست أثواباً علمية - والعلم منها براء- حتى صارت قضية تأليف محمد للقرآن أمراً لا يقبل الشك عند المستشرقين.

والحقيقة أن هذه الدعوة لم يكن لها صدى لدى المسلمين، ولذا فقد اتجه المستشرقون إلى التشكيك في الأصل الثاني، وهو السنة. وقد قام بتلك المحاولة عدد من المستشرقين يأتي في مقدمتهم كلٌ من «هورجرونيه» و«جولدتسيهر» و«جوزيف شاخت» الذي تفرد بصياغة «نظرية» جديدة متكاملة -خيالية بالطبع- حول السنة النبوية والتشريع الإسلامي!

ونتيجة طبيعية لهذا التشكيك في مصدري الإسلام يكون الإسلام من صنع محمد، صرح بذلك (رينان) الذي اعتبر الرسالة المحمدية امتداداً طبيعياً للحركة الدينية التي كانت سائدة دون أن تشتمل هذه الرسالة على أي جديد[1].

ويرى «بارت» أن محمداً تأثر بالنصرانية، وأنه تعرف عليها من بحيرى الراهب، وقد تمثل في نفسه ما عرفه وسمعه من بحيرى، وما عرفه من اتباع اليهودية، وخرج ليعلن على الناس دينه الجديد الذي لفقه من الدينين

(١) مدخل إلى القرآن ص١٣٠، محمد عبدالله دراز، دار القلم، الكويت، سنة١٩٧٤م.

الكبيرين[1].

٢- التراث الحضاري، فقد زعم المستشرقون أن حضارة الإسلام منقولة عن حضارة الرومان، وكل ما للمسلمين من فضل هو في مجرد نقل تلك الحضارة إليهم، وهذا يعني تجريد المسلمين من الإبداع الفكري والابتكار الحضاري.

بهذه النقطة والتي قبلها أراد المستشرقون فصل المسلمين عن أصولهم وجذورهم.

رابعاً: إضعاف روح الإخاء، ومحاولة تفكيك رابطة الدين بين المسلمين، حيث شعر المستشرقون أن جهودهم تتحطم على صخرة الرابطة الإسلامية التي تربط بين قلوب أبنائه على اختلاف لغاتهم وأجناسهم، فعملوا على تفتيت هذه الصخرة.

يقول (هانوتو) إنه لا بد من العمل على تفكيك تلك الرابطة التي تجمع بين المسلمين شرقاً وغرباً فتجعلهم أمة واحدة، وهي رابطة الدين» ويقول: «إن رابطة الإخاء الجامعة بين أفراد المسلمين كفيلة بأن تجعل المسلم في شرق الأرض يهب لنصرة المسلم في غربها، فهي عامل مؤرق لنا»[2]. أما وسيلتهم لتحقيق هدا الهدف فكانت في إحياء القوميات، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوب الإسلام، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، د. محمود زقزوق، ص٨٥.

(٢) راجع الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، من ص٢٦-٢٨.

ولما لمْ تنتصر هذه الدعوات الإقليمية الضيقة أو على الأقل لم تؤت ثمارها المرجوة، وقع الاستعمار والاستشراق على فكرة العروبة وألبسها ثوباً جديداً، لقد أريد من «العروبة» أن تكون رابطة قومية مناقضة للإسلام، وأن يكون المسلمون من غير العرب لا صلة لهم بالعروبة، ومما يؤسف له أن نفراً من الشبان العرب، قد اعتنقوا العروبة المجردة من الإسلام، ثم أخذوا وهم يدعون لها ينتقصون من قدر الإسلام، ويقاومون الحركات الإسلامية[1].

وسائل المستشرقين وأدواتهم:

لا يفوتنا أن نؤكد أن المستشرقين لم يتركوا وسيلة لتحقيق أهدافهم، ونشر أفكارهم إلا سلكوها. ونركز فيما يلي على أهم تلك الوسائل:

أولاً: التدريس الجامعي: لا تكاد تخلو جامعة أوربية أو أمريكية من معهد خاص للدراسات الشرقية أو الإسلامية والعربية، بل يوجد في بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق.

وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس لتخريج الدارسين في أقسام الماجستير والدكتوراه ممن سيواصلون في المجال الأكاديمي الاستشراقي أو من غيره من مجالات السلك الدبلوماسي أو الالتحاق في الأقسام الشرقية بدور الكتب، وفي مراكز البحوث المهتمة بالشرق أو غيرها.

(١) التبشير والاستعمار ص١٧٥ د. مصطفى خالدي، د. عمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت. وراجع ما كتبه الأستاذ الدكتور عدنان زرزور عن القومية في هذا الكتاب.

ويلتحق بهذه المعاهد أعداد لا بأس بها من العرب والمسلمين الذين يعودون إلى بلادهم لتولي مهمة التدريس في جامعاتها[1]، ويلحق بالتدريس الجامعي إلقاء المحاضرات في جامعاتنا وجمعياتنا العلمية حيث يستدعى المستشرقون لإلقاء تلك المحاضرات.

ومن المؤسف أن أشدهم خطراً وعداء للإسلام كانوا هم الذين يستدعون إلى الجامعات العربية والإسلامية في القاهرة، ودمشق وبغداد والرباط وكراتشي ولاهور، وعليكره وغيرها ليتحدثوا عن الإسلام[2] بل الأدهى من ذلك أن نستعين ببعض المستشرقين ليقوم بتدريس اللغة العربية، أو يلتحق بأقسامها في جامعاتنا، وذلك يحدث كثيراً، ومن هنا تأتي خطورة ما يتركونه في نفوس الدارسين من آثار.

ثانياً: التأليف: وهذه الوسيلة ليست في حاجة إلى بيان. إننا نستطيع أن نقول إن آثار الاستشراق وإنتاج المستشرقين لا يزال يحتل الكثير من مواقعنا الثقافية، ويعوّل عليه كثير من أساتذة الجامعات في العالم الإسلامي.

ولقد تعددت مجالات التأليف في الدراسات الإسلامية عن الإسلام واتجاهاته، ورسوله، وقرآنه[3]، وبلغ عدد ما ألفوه منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف العشرين ستين ألف كتاب[4]، ألفوا في التاريخ وعلم الكلام والشريعة، والفلسفة، والتصوف، واللغة العربية، وتاريخ آدابها،

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، د. محمود زقزوق، ص٦٠.

(٢) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، د. مصطفى السباعي. ص٢٦.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الاستشراق: إدوارد سعيد ص٢١٦، ترجمة: كمال أبوديب.

والقرآن والسنة . . إلخ .

وبعض هذه المؤلفات قيمة، وأكثرها تزخر بالطعن في الإسلام وتمتلئ بالأكاذيب التي ليس لها في سوق العلم نصيب[1] .

ثالثاً : عقد المؤتمرات وذلك لإحكام خططهم في الحقيقة، ومازالوا يعقدون هذه المؤتمرات منذ عام ١٧٨٣ حتى الآن .[2]

ويلي هذه المؤتمرات إصدار المجلات الخاصة ببحوثهم عن الإسلام ونظمه وبلاده وشعوبه . وتقوم على هذه المؤتمرات، وإصدار هذه المجلات جمعيات استشراقية من عدد من الدول الأوربية[3] .

رابعاً : الترجمة: لقد قام المستشرقون بترجمة الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبية كافة، وهذا يعتبر من أهم أعمالهم، وعادت ترجمة معظم هذه الكتب عليهم بالخير العميم، خاصة ما يتعلق منها بالجوانب العلمية، والمنهج التجريبي . علماً بأن هذه الترجمة لم تكن موقوفة عليهم، أو مقرونة بنشأة الاستشراق .

ولقد تمت أول ترجمة للقرآن الكريم في القرن الثاني عشر، ومنذ ذلك

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود زقزوق، ص٦٥-٦٦،

(٢) الاستشراق والمستشرقون ، ص٢٧، د. مصطفى السباعى .

(٣) لمحات في الثقافة الإسلامية: عمر عوده الخطيب، ص٢٠٦، مؤسسة الرسالة، بيروت ، سنة١٩٧٧م

الوقت وحتى الآن، وهم يعدون العديد من ترجمات القرآن إلى لغاتهم[١]

والخطورة في ترجمة الكتب الإسلامية، والقرآن على وجه الخصوص، تعود إلى ما يلي:

١- إمكانية تحريف النص لدي المستشرقين، فتاريخهم مع الإسلام وعلومه تجعل المسلم يقدم سوء الظن على غيره.

٢- الترجمة أياً كانت درجة أمانة صاحبها ليست هي النص الأصلي.

٣- يمهد المستشرقون لتلك الترجمات بمقدمات تحمل تصوراتهم عن الإسلام، وكأنهم يحصنون القارئ ضد الإسلام قبل أن يدخل على حقائقه مما يؤدي إلى اصطدام القارئ مع تلك الحقائق.

ولاشك في أن أسلوب المستشرقين في ترجمات القرآن إلى لغاتهم من الوسائل الخطيرة في تعمية الأوروبيين عن حقائق الإسلام.

ويعزو الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله الأسباب العائقة عن فهم الأجانب للقرآن إلى: جهل بلاغته، وإلى قصور ترجمات القرآن وضعفها، يقول: «إن ترجمات القرآن التي يعتمد عليها علماء الإفرنج في فهم القرآن كلها قاصرة عن أداء معانيه، وإنه لمن الثابت عندنا أن بعضهم تعمدوا تحريف كلمه عن مواضعه، على أنه قلما يكون فهمهم تاماً صحيحاً، ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمناً، بل يجتمع لكل منهم القصوران كلاهما: قصور فهمه، وقصور لغته[٢].

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، د. محمود زقزوق، ص٦٤.

(٢) الوحى المحمدى، ص٢٤-٢٥، المكتب الإسلامى، ط٨

خامساً: المقالات الصحفية: سواء كانت هذه الصحف تصدر عندهم، أو يصدرونها هم أو صحفاً إسلامية وعربية، استطاعوا شراءها.

وقد أعلن المبشرون أنهم استغلوا الصحافة المصرية خاصة للتعبير عن آرائهم أكثر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر، لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية، إما مأجورة في أكثر الأحيان، أو بلا أجرة في أحيان نادرة[1].

سادساً: عمل الموسوعات: ومن ذلك دائرة المعارف الإسلامية، وقد أصدروها بعدة لغات، ولازالت تجدد طباعتها ويضاف إليها ما يسيء إلى الإسلام يوماً بعد يوم.

وقد حشد لهذه الموسوعة كبار المستشرقين وأشدهم عداء للإسلام، ولذا فقد ملئت بالأباطيل[2]، ومن المؤسف أنها مرجع لكثير من مثقفينا ويأخذون ما بها على أنها حقائق مسلمة.

وأيضاً الأطلس الجغرافي التاريخي للشرقين الأدنى والأوسط الذي يتوفر على إعداده مجموعة من المستشرقين في ألمانيا، ويشمل الأقطار الممتدة من السودان غرباً وحتى أفغانستان شرقاً، ومن جنوب بلاد العرب إلى البحر الأسود في الشمال.

وخرائطه لا تتناول المواضع الجغرافية والتاريخية بالمعنى التقليدي،

---

(١) التبشير والاستعمار، د. عمر فروح، د. مصطفى خالدى.

(٢) د. مصطفى السباعى، ص٢٨

بل تتجاوز إلى مواضع لم يسبق لأحد أن تناولها في الأطالس مثل: المدارس الفقهية، والفتن السياسية، وبعض مظاهر الاتصال وأماكن العبادة وتوزيع السكان[1].

سابعاً وأخيراً، فإن وسائل المستشرقين تتطور بشكل ملحوظ، فقد تعددت طرق المواجهة الثقافية الحديثة، ويكفي أن نشير إلى مراكز البحوث والدراسات مستقلة أم كانت أقساماً في الجامعات العلمية في الغرب، وما يوضع تحت تصرفها من الإمكانات المادية، والمبتكرات العلمية. **والاختصاصات الدراسية** تمثل الصورة الحديثة التي تطور إليها الاستشراق، حيث تمكن أصحاب القرار السياسي من الاطلاع والرصد لما يجري في العالم يومياً.

ففي القارة الأمريكية وحدها حوالي تسعة آلاف مركز للبحوث والدراسات منها حوالي خمسين مركزاً مختصاً بالعالم الإسلامي.

ووظيفة هذه المراكز رصد ما يجري في العالم ثم دراسته وتحليله مقارناً مع أصوله التاريخية ومنابعه العقائدية، ثم مناقشة ذلك مع صانعي القرار السياسي. وعلى أساس ذلك تبنى الخطط والاستراتيجيات، وتحدد وسائل التنفيذ. ولعل المختبرات التي تخضع لها القضايا الفكرية أصبحت توازي تلك المختبرات التي تخضع لها العلوم التجريبية، إن لم تكن أكثر دقة[2] ألا يكفي هذا كي نستيقظ من نومنا العميق.

---

(١) عمر عبيد حسنه، مقدمة كتاب الأمة، رقم٢٧، ص٢١، ١٤١١هـ، ربيع الثاني.

(٢) عمر عبيد حسنه، مقدمة كتاب الأمة، رقم٥، صفر ١٤٠٤هـ، ص٨٠



فئات المستشرقين:

لقد ذكرنا في حديثنا عن دوافع الاستشراق أن من بين هذه الدوافع الدافع العلمي، وأصحابه يدرسون الإسلام لمعرفته وقد يمدحونه أو يهتدون للدخول فيه، هذا يعني أن المستشرقين ليسوا جميعاً على شاكلة واحدة، بل هم متنوعون حسب تلك الأهداف والدوافع.

ويمكن أن نجمل المستشرقين في فئات ثلاث:

الأولى: فريق من المتغطرسين الذين أخذتهم العزة بالإثم، وأعمتهم الضلالة عن الحقيقة العلمية، فراحوا يطعنون فيه، وتقطر أقلامهم حقداً عليه، بعضهم من طلاب الأساطير الذين خيل لهم خيالهم المريض أقاصيص كاذبة، وبعضهم من المرتزقة الذين جندوا أنفسهم وبحوثهم لخدمة المصالح الغربية سياسية واقتصادية، وأغلبهم لا يعرف النزاهة العلمية والبحث الدقيق والحكم النزيه من أمثال «بدويل» و«يريرو» و«سيل» من القرن الثامن عشر[١].

الثاني: فريق ادعى دراسة الإسلام باسم البحث العلمي، لكنهم انحرفوا عن جادة الصواب، وراحوا يتلمسون نقاط الضعف، ويشككون في صحة الإسلام ورسالته، وفي القرآن والسنة.. إلخ.

الثالث: فريق التزم في دراسته للإسلام الموضوعية والنزاهة العلمية وأنصف

---

(١) - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود زقزوق، ص٧٦.
- المستشرقون للعفيفى، جـ٣، ص٦١٩، دار المعارف بالقاهرة، سنة١٩٨١م.

الإسلام والمسلمين، وأدى الأمر ببعضهم إلى اعتناق الإسلام[١].

كان لابد من التأكيد على هذه الفئات، حتى لا يظن القارئ أن المستشرقين على شاكلة واحدة، أو أننا نميل إلى التعميم في حكمنا عليهم، خصوصاً أمام ما سنعرض له في الفقرة التالية من أسباب أخطائهم، وتجاوزاتهم، وضرب الأمثلة والشواهد عليها.

عوامل الخطأ وأسبابه عند المستشرقين:

لقد ذكرنا أن أكثر المستشرقين يتعمدون الدس والتحريف، وهذا يخالف أدنى المناهج العلمية في البحث والحكم، لكن المستشرقين يزعمون أنهم موضوعيون، ولا يخالفون المنهج النقدي العلمي في حكمهم على الإسلام.

يقول رودى بارت: «نحن معشر المستشرقين عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية الإسلامية لانقوم بها قط لكي نبرهن على صفة العالم العربي الإسلامي، بل على العكس. ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي.. ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا»[٢].

---

(١) د. محمود زقزوق: المرجع السابق.

(٢) الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية، ص١٠، رودى بارت. ترجمة د. مصطفى ماهر، القاهرة، سنة١٩٦٧م.

وهذا الكلام يبدو في ظاهره عملاً علمياً لا غبار عليه، لكن الفحص الدقيق أثبت أن كثيراً منه مصنوع، وكثيراً ما يكون الدافع إلى دراساتهم الرغبة في التجريح وتوهين العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية.

يقول د. زقزوق: «والبحث العلمي النزيه لا صلة له إطلاقاً بالرغبة في الطعن والتجريح والبحث عن نقاط الضعف والتشويه وتسقط الأخطاء، والأسلوب العلمي يحتم ضرورة الاستيثاق من صحة النصوص والأسانيد التي نستنبط منها ما نستنبط من نظريات، ولكن الرغبة في التجريح والتشويه كثيراً ما حملت المستشرقين على التماس أسانيد واهية مرفوضة يؤيدون بها ما يقررونه من نظريات[1].

وحتى نثبت أن كلام المستشرقين النظري عن المنهجية شيء وممارساتهم في دراسة الإسلام والحكم عليه شيء آخر، نعرض فيما يلي للأسباب التي أوقعتهم في الخطأ، أو التي قادتهم إلى تجاوز المنهج الذي تحدثوا به، بل إلى خيانته في بعض الأحيان .. مع ضرب بعض الأمثلة والشواهد:

أولاً: اللغة:

يقع كثير من المستشرقين في أخطاء علمية جسيمة بسبب جهلهم باللغة العربية وأساليبها، وطرائق التعبير فيها، ويرتبون على فهمهم المغلوط أحكاماً خاطئة، ونتائج غير صحيحة، واللغة العربية لغة ثرية، وتحوي كنوزاً وأسراراً يصعب على غير العربي الإحاطة بها ومعرفة مراميها، فليس من

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، د. محمود زقزوق، ص٧٨.

الغريب أن يقع المستشرق في مثل هذه الأخطاء، يستوي في ذلك المنصفون منهم وغير المنصفين.

ونضرب لذلك مثلاً بالمستشرق الكبير «بروكلمان» في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» يقول بروكلمان في هذا الكتاب: «وإذا كان العرب يؤلفون طبقة الحاكمين، فقد كان الأعاجم من الجهة الثانية هم الرعية أي القطيع، وجمعها رعايا، كما يدعوهم تشبيه سامي قديم كان مألوفاً حتى عند الآشوريين»[1]

وقد أخطأ هذا المستشرق من ناحيتين:

الأولى: تعلقه بلفظه رعية تعلقاً لغوياً استنتج منه أن المسلمين عاملوا الأعاجم باستعلاء ونظروا إليهم كقطيع من الغنم أو الماشية. مع أن مادة هذه الكلمة في قواميس اللغة العربية تعني كل مرءوس، وكلمة «راعي» تعني كل رئيس؟ فالراعي تطلق على رئيس القوم، وعلى راعي الغنم. والرعية تطلق على الماشية وتطلق على القوم.

والكلمة في جميع الحالات تعني الحفظ وسياسة المرءوس بلطف ورحمة. ففي مختار الصحاح: رعى -الراعي- رعاة، كقاض وقضاة،

راعى الأمر: نظر الأمر إلى أن يصل، الراعي: الوالي، الرعية والعامة[2].

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ص٤٦، د. مصطفى السباعي.

(٢) مختار الصحاح، أبوبكر محمد الرازى، مادة رعى. دار الكتب العربية بيروت.

وفي القاموس المحيط: الراعي: كل وليّ أمرِ قوم، والقوم: رعية، وراعيت أمره: حفظته كرعاه[1].

وعلى هذا فقد أخطأ بروكلمان عندما قصر معنى الرعية على قطيع الغنم، وجعل ذلك نظرة المسلمين إلى الأعاجم!!

الثانية: أخطأ أيضاً عندما زعم أن هذه الكلمة (الرعية) كأنها مصطلح جديد لم يستخدمه المسلمون أو يطلقوه إلا على الأعاجم بعد الفتوحات الإسلامية، وهذا خطأ شنيع، لأن اللفظة بمعناها اللغوي الذي أشرنا إليه، أطلقها الإسلام على عامة المسلمين، وكانت تطلق على المسلمين العرب، قبل الفتوحات، وهي نفسها التي أطلقت بعد الفتوحات، فانضوى تحتها كل من انضم إلى المسلمين من غير العرب.

يدل على ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته» وما أخرجه أيضاً من قوله عليه الصلاة والسلام: «ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة».

والراعي عند أهل الاختصاص هو «الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما أؤتمن عليه حفظه فهو مطلوب بالعدل فيه والقيام بمصالحه».

فانظر كيف أن الكلمة تلزم الحاكم بالعدل والإصلاح والمساواة، وكيف أن كلمة (رعية) تعني رعاية الحاكم بها -أي بهذه الرعية- والإشفاق

---

(١) القاموس المحيط، مادة(رعى).

عليها، وكيف أن المستشرق تغافل عن كل هذا، أو غفل عنه، أو لم يدركه ويقف عليه.

بل انظر كيف ضرب بكل الوثائق التاريخية عن عدالة الفاتحين المسلمين ومعاملتهم الرعية على السواء دون تفرقة بين عرب وعجم، عرض الحائط، وتعلق بهذه الكلمة تعلقاً لغوياً غير سليم وغير أمين.[1]

ثانياً: عدم النزاهة والتجرد:

كثيراً ما يدخل المستشرق على الفكرة بشيء من التحفز لا يدفعه إلى دراستها سوى الرغبة في التجريح، وتوهين العقيدة الإسلامية والنيل من أحكام الإسلام. يدل على ذلك –على سبيل المثال– كتاب «مجدد الإسلام» للمستشرق «جاستون ڤييت» الذي عرض فيه تاريخ الإسلام، فجاء الكتاب ينضح بالحقد والطعن في الإسلام وتاريخه. ولم تكن مهمة المؤلف إلا في اختيار الصفحات بناء على الاتجاه الذي حدده لنفسه كي يسير عليه.

وهنا تكمن خطورة هذا الطراز من التأليف لأن المؤلف مهما اجتهد وتحرى الانصاف في الاختيار لا يمكن أن يتخلص من ميوله.

وباختصار الكتاب كله طعن في النبي والقرآن، وعقيدة الإسلام وتاريخه، والسبب في ذلك أن الكاتب لم يتجرد، وأدى به حقده إلى تحديد الاتجاه الذي خطه لنفسه قبل أن يكتب كلمة واحدة[2].

---

(١) الاستشراق والمستشرقون، د. السباعى، ص٤٦.

(٢) راجع عرض هذا الكتاب بالتفصيل فى نهاية كتاب الفكر الإسلامى الحديث

ثالثاً: تعمد المغالطات:

أحد المستشرقين الألمان، يدعى «ولهلم هورنباخ» أستاذ في جامعة «بون» بألمانيا جمع نتفاً وشذرات من كتاب «الإصابة» لابن حجر ثم قام بنشرها على أنها كتاب «الردة» للحافظ ابن حجر، وكتاب الردة هذا من كتب ابن حجر التي ضاعت، والتي أشير إليها في بعض المواضع.

قام المستشرق المذكور باستغلال ذلك الوضع فجمع تلك الشذرات من «الإصابة» على أنها تراجم لأشخاص ارتدوا عن الإسلام[1]. إنه يعرف تماماً أنه يغالط، ويقوم بصنع كتاب من عند نفسه، اختار نصوصه من كتاب آخر. فما موقف البحث العلمي من مثل هذا؟

ومن مغالطاتهم الخطيرة: تحكمهم في المصادر التي يختارونها فينقلون من كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ومن كتب الأدب مايحكمون به في تاريخ الحديث النبوي، ويصححون ما ينقله الدميري في كتابه الحيوان، ويكذبون ما يرويه الإمام مالك في الموطأ!!!

وقد ضرب الأستاذ الدكتور السباعي -رحمه الله- مثالاً على هذا النوع من المغالطات، أو على هذا التحكم -المريب- في المصادر، بما نقله المستشرق المجري اليهودي «جولد تسيهر» من كتاب الحيوان للدميري أن

وصلته بالاستعمار الغربي ص٤٥٧ د. محمد البهي، مكتبة وهبة، الطبعة التاسعة.

(١) أساليب الغزو الفكري، ص٢٥ د. علي جريشه ومحمد الزئبق، دار الاعتصام ط١ ص٧٧

أباحنيفة (رضي الله عنه) لم يكن يعرف هل كانت غزوة بدر قبل غزوة أحد أو بعدها؟ وأراد أن يجعل هذه الرواية دليلاً على عدم معرفة كبار الأئمة في العصور الأولى بأحكام الإسلام وتاريخ الرسول، ورتب على ذلك حكماً عجيباً هو أن الحديث الشريف ليس من قول النبي إنما هو من صنع القرون الثلاثة الأولى[1].

وكتاب «حياة الحيوان» الذي اعتمد عليه ليس كتاباً في الفقه ولا السيرة، كما أن صاحبه ليس مؤرخاً ولا فقيها، إنما هو كتاب جمع صاحبه فيه كثيراً من النوادر والحكايات، واستدل عليها بالروايات غير الصحيحة دون أن يكلف نفسه البحث عن صحتها، لأن ما في الكتاب -من النوادر والحكايات- لا ترقى في صحة الروايات، ولا يضيره ضعفها! بل إن الدميري لو حرص على الروايات الصحيحة وحدها، لما وجد سبيلاً لتأليف هذا الكتاب!!

والإمام أبوحنيفة من أئمة الإسلام الكبار، والذي حفلت أمهات المصادر الإسلامية بتاريخه، لكن «جولد تسيهر» يُعرض عن كل المصادر الموثقة، ويعتمد على رواية مكذوبة، ومصدر لا يعد أصلاً في الحديث عن الإمام أبي حنيفة، بل إن الإمام أباحنيفة من أشهر من تحدث عن الغزوات والحروب في الإسلام، وكتب عنه تلامذته ما يدل على علمه بهذا الجانب. بل إن من أهم المصادر في هذا الموضوع: كتاب «الرد على سير الأوزاعي لأبي يوسف» وكتاب «السير الكبير» للإمام محمد التلميذ الثاني للإمام أبي حنيفة، وقد شرحه السرخسي، وهما من أقدم المصادر الفقهية في العلاقات الدولية،

(١) راجع الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص٤٤، د. مصطفى السباعي.

وفيهما ما يدل على الإلمام الواسع بتاريخ المعارك في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- والخلفاء الراشدين.

فهل يخفى أمر هذه المؤلفات على (جولد تسيهر) أم أنه تعمد التدليس والمغالطة.

رابعاً: العناية الشديدة بجوانب الدراسة التي تخدم أغراضهم:

من أخطر وأبرز ما يتعمده المستشرقون تركيزهم على الجوانب المظلمة والسوداء في تاريخ وتراث الإسلام، والتي لا تعكس صورة الإسلام الحقيقية، أو تاريخ الإسلام في نسقه العام أو الجامع؛ لذا نراهم قد أحيوا الآراء الشاذة، وعمدوا إلى إثارة الخلافات العقدية والمذهبية، واهتموا بإبراز تاريخ حركات الرفض والمناقضة مثل (القرامطة) الذين أظهروهم بمظهر طلاب العدل والإصلاح وهم الذين تآمروا على الدولة الإسلامية، وتعاونوا مع أعدائها. كما اهتموا بإحياء تراث الغلاة من الصوفية، أو التصوف الفلسفي، وكذلك التراث الباطني، المجوسي، والغنوصي القديم -وكأن الإسلام ليس به سوى هذه الصورة القاتمة- علماً بأن هذه الاتجاهات مرفوضة إسلامياً، ومخالفة لإجماع الأمة، وتعدّ أعضاء غريبة على الجسد الإسلامي، فهل من البحث العلمي السليم عرضها على أنها مرآة الإسلام.

خامساً: الأحكام المسبقة:

تقف الدوافع التي تحدثنا عنها في نشأة الاستشراق وراء الكثير من الأحكام المسبقة التي يبحث المستشرق لإثباتها، أو يبحث وهو ينطلق منها.

قبل الدخول في أي دراسة يضعوا أحكام مسبقة
يجعل هناك تأثير في الدراسة وعدم عدالة

إن تلك الدوافع تمثل حواجز نفسية رهيبة تمنعهم من رؤية الحق، فضلاً عن إقراره والاذعان به.

ومن أمثلة هذه الأحكام العجيبة، والتي لايمكن لأي دراسة في ضوئها أن تأتي نتائجها صحيحة أو صادقة .. أو حيادية!!

(١)- إنكار نزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم، والزعم بأنه كان مجرد مصلح في قومه، وليس نبياً مرسلاً من عند الله. وما يتبع ذلك، ويبنى عليه من الزعم بأن القرآن الكريم من «تأليفه» وأن صور الوحي المعهودة في كتب السيرة، ليست أكثر من حالات مرضية كانت تعرض لمحمد(صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وعزّ وجهه، وتنزّه مقامه عن هذه الأباطيل).. إلخ. قالوا انه تعلم من بحيرا الراهب رجل المسيحية، ان ما جاء به محمد يهدم الديانتين فكيف يكون منهم

(٢)- الإسلام دين ملفق من الديانتين اليهودية والمسيحية.

(٣)- السنة النبوية من صنع المسلمين وليست من أقوال محمد (صلى الله عليه وسلم). كما قال جولدتسيهر فهو لو كانت من أقوال دين

ونماذج أخرى كثيرة تدل دلالة واضحة على أنهم دخلوا على دراستها بعد أن حكموا، وجهزوا النتائج قبل سوق المقدمات.

وأبحاثهم بهذه الطريقة ليست أبحاثاً علمية ولا موضوعية لأنها تحتوي سيلاً من الشتائم والاتهامات، التي لا تليق بالعامي فضلاً عن العالم، أو العالم الذي يزعم أنه يكتب بموضوعية، بل يزعم أنه بكتابته يعلّم الآخرين كيف يكون البحث والتأليف؟!!

* ان الإسلام انتشر بالسيف والإرهاب والتطرف.

سادساً : تحريف النصوص:

التحريف أسوأ ألوان مجافاة المنهج الصحيح في البحث العلمي ، لأنه خروج على هذا المنهج ، بل ضربٌ به عرض الحائط ، ولأن تحريف النص يعني تعمد الكذب وقلب الحقائق مع سبق الإصرار ، والأدهى أن يرتكب هذا باسم التجرد والدقة والتمحيص ، لقد حرص المستشرقون على أن يضفوا على أنفسهم هالة من هيبة العلم وقداسة محرابه ، لكن ضبطهم متلبسين بالتزوير جعلنا نقتنع أن ما رفعوه لم يكن إلا شعارات أخفوا وراءها أغراضهم وأهواءهم .

وأبرز من اشتهر بالتحريف منهم «جولد تسيهر» الذي اشتهر بالطعن في السنة ، ومحاولة هدمها بكل الوسائل ؛ ولو كان ذلك بطريق التحريف والتصحيف ! ! ومن أبرز الأمثلة والشواهد على ذلك طعنه بابن شهاب الزهري ، مع إيهام القارئ بأن الأغراض السياسية كانت وراء عمله التاريخي الهام في (تدوين) السنة الذي صوره جولدتسيهر على أنه (وضع) وتلفيق وخضوع لأهواء السياسيين والحكام !

يعد ابن شهاب الزهري أحد أعمدة السنة ، ويكفي أن تفتح أي كتاب ترجم له لتقرأ عن مناقبه وعلو همته وسعة علمه مالا تتصور أنه يجتمع في إمام .

فماذا قال عنه «جولد تسيهر» ؟ زعم هذا المستشرق أن الزهري كان مستعداً لأن يضع الأحاديث لبني أمية ، بل وضع فعلاً أحاديث سياسية لصالحهم ، وكان ممن يرى العمل مع الحكومة ، فلم يكن يتجنب الذهاب إلى

القصر، بل كان كثيراً ما يتحرك في حاشية السلطان! يقول جولد تسيهر «بل إننا نجده في حاشية الحجاج في حجه، وهو ذلك الرجل المبغض، وقد جعله هشام مربياً لولي عهده».

والاتهام هنا واضح، فالزهري يضع الأحاديث لذوي السلطان، ويستدل المستشرق على اتهامه هذا بوجود الزهري في حاشية الحجاج في الحج، وهذا كاف في تقوية الاتهام.

والإمام الزهري -كما يقول الأستاذ الدكتور السباعي رحمه الله- أحد أعمدة السنة، وهدمه هدم للسنة الشريفة، لكن هذا الهدم للزهري، قام على نصوص حرفها «جولد تسيهر» فالإمام الزهري لم يكن مع الحجاج في حاشيته حين حج، وإنما كان مع عبدالله بن عمر حين اجتمع مع الحجاج، وهذا هو حقيقة النص كما ورد في تهذيب التهذيب لابن حجر «أخرج عبدالرازق في مصنفه عن الزهري قال: كتب عبدالملك إلى الحجاج أن اقتد بابن عمر في المناسك، فأرسل إليه الحجاج يوم عرفه: إذا أردت أن تروح فآذنّا، فراح هو وسالم **وأنا معهما**، قال ابن شهاب: وكنت صائماً فلقيت مع الحر شدة». فالزهري كان مع عبدالله بن عمر حين اجتمعا بالحجاج، ولم يكن في معية الحجاج ولا حاشيته كما ذكر المستشرق. بل يمكن أن نقول إن الحجاج هو الذي كان في حاشية عبدالله بن عمر والزهري، لأنه طلبها للاقتداء بهما في المناسك[1].

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى، ص١٩٢، ٢٢٣ د. مصطفى السباعى.

كما ذكر «جولدتسيهر» عن الزهري أنه اعترف اعترافاً خطيراً في قوله الذي رواه عند معمر «وقد حدثنا معمر عن الزهري قوله: أكرهنا هؤلاء الأمراء على أن نكتب «أحاديث»:

وهذا النص يفيد أن الزهري وقع في براثن الحكام، وأنه وضع الأحاديث إرضاءً لهم، ولا يشفع له أنه أكره على ذلك.

لكن السؤال هو: أهذا الكلام المنسوب إلى الإمام الزهري صحيح ومن كلامه فعلاً؟ أم إن جولد تسيهر تعمّد فيه التصحيف والتحريف، ليصل من خلال ذلك إلى ما يريد؟

الحقيقة أن «جولدتسيهر» تعمد التحريف، فأصل النص في ابن عساكر وابن سعد هكذا: «الزهري كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس، ويظهر أنه كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم، ولا يتكلوا على الكتب، فلما طلب منه هشام وأصر عليه أن يملي على وَلَدِهِ ليمتحن حفظه، أملى عليه الزهري أربعمائة حديث، فلما خرج الزهري من عند هشام قال بأعلى صوته:

«يأيها الناس إنا كنا منعناكم أمراً قد بذلناه الآن لهؤلاء، وإن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة (الأحاديث) فتعالوا حتى أحدثكم بها فحدثهم بالأربعمائة حديث».

ورواه الخطيب بلفظ آخر وهو «كنا نكره كتاب العلم -أي كتابته- حتى أكرهنا عليه الأمراء، فرأينا ألا نمنعه أحداً من المسلمين»[1].

فانظر إلى معنى النص الأصلي وكيف حرفه «جولد تسيهر».

إن الإكراه لم يكن لوضع أحاديث بل كان لتدوينها وكتابتها أي لتدوين الأحاديث المروية الصحيحة وحفظها في الكتب، حتى لا تبقى محفوظة في الذاكرة فحسب والنص يدل:

أولاً: على حرص الأمراء على تعلم السنة وتعليمها أولادهم، حتى لو وصل الأمر بهم إلى حمل العلماء على مخالفة طريقتهم.

ثانياً: أمانة العلماء وعدلهم في التسوية بين بني الأمراء وعامة الناس في طريقة التلقي.

انظر كيف حول «جولد تسيهر» كل هذا إلى لون من خيانة الله ورسوله، بتر النص وانتزعه مما قبله وبعده من جهة، وحذف «أل» من (الأحاديث) لتصير (أحاديث) وعليك أن تقارن بين:

(أكرهونا على أن نكتب أحاديث) وهو قول «جولد تسيهر» وبين (أكرهونا على كتابة الأحاديث) أو «كنا نكره كتابة العلم حتى أكرهنا عليه

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق، ص٢٢١-٢٢٢ وانظر مثالاً آخر من تحريف جولد تسيهر في هذا الموضوع نفسه -السنة النبوية- في بحث للأستاذ الدكتور عبدالعظيم الديب، بعنوان: «المستشرقون والتراث، حولية كلية الشريعة بجامعة قطر، العدد الرابع ١٩٨٥م.

هؤلاء الأمراء». وهو قول الإمام الزهري، لترى البون الشاسع بين العبارتين، الأولى تجعل الزهري خائراً ضعيفاً منافقاً يكذب على رسول الله، والثانية تجعله أميناً صدوقاً عادلاً يجله الأمراء ويحترمه الحكام.

لقد قال الزهري يوماً لهشام بن عبدالملك -وهو أمير المؤمنين آنذاك- عندما كذبه في تفسير آية: أنا أكذب؟ فوالله لو ناداني مناد من السماء: إن الله أحل الكذب ما كذبت»[1]

لم يبق إلا أن تضع أمانة وصدق الزهري في كفة، وخيانة وتحريف جولد تسيهر في الأخرى لترى ما هي النتيجة.

** **

(١) الأستاذ السباعي رحمه الله: المصدر السابق، ص٢١٥

التبشير المسيحي (أو التنصير):

لقد مرّ التبشير المسيحي بمراحل مختلفة، حيث كان في عهد المسيح وحوارييه قاصراً على خراف بني إسرائيل الضالة، لكنه اتسع حتى شمل العالم أجمع، بل أصبح التبشير -في نظرهم- فرضاً على المسيحيين، وهذا يعني اعتقادهم عالمية الديانة المسيحية. وهذا يخالف ماقررته الأناجيل على لسان المسيح من أنه أرسل إلى بني إسرائيل، وأن دائرة دعوته محصورة فيهم.

وقبل أن ندخل في وسائل هذا التبشير وأهدافه، نتساءل عن سبب هذا التحول من المحلية إلى العالمية؟

الحقيقة أنهم يعتمدون في ذلك على نص نسبه مرقس إلى المسيح حيث نسب إليه قوله لتلاميذه «اذهبوا إلى العالم أجمع، وأكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها»[1]. كما ورد نفس المعنى في نهاية إنجيل متى «فاذهبوا إذن، وتلمذوا جميع الأمم»[2] وأيضاً قريباً من ذلك ورد في إنجيل لوقا «وأن يبشر باسمه بالتوبة وغفران الخطايا في جميع الأمم نطلاقاً من أورشليم»[3]

والتناقض هنا يبدو في أن ما قرره مرقس ومتى ولوقا يخالف ما نقلوه هم في مواطن كثيرة في أناجيلهم عن المسيح وتلاميذه من أن دعوته لا تتعدى بني إسرائيل، مما يضع الأناجيل الثلاثة في تناقض صارخ مع أنفسها.

---

(١) مرقس ١٦: ١٥

(٢) متى ٢٨: ١٩

(٣) لوقا ٢٤: ٤٦-٤٧

هذا التناقض جعل كثيراً من الباحثين المسيحيين يتوقف في قبول هذه النصوص خاصة أنها وردت في خاتمة كل إنجيل من الأناجيل المشار إليها.

وانتهى علماء المسيحية إلى أن الأعداد من ٩-٢٠ من الإصحاح السادس عشر من إنجيل مرقس دخيلة على الإنجيل الأصلي لمرقس، وأنها لم تقبل إلا بعد مرور أكثر من مائة سنة على كتابته، وأن كاتب هذه الأعداد غير معروف. وهذا ما قررته التراجم الحديثة للكتاب المقدس، والتي تقول: «طبقاً لأفضل النسخ فإن إنجيل مرقس ينتهي هنا، أي عند العدد (٨). من ذلك يتضح أن العدد (١٥) الذي ورد فيه عالمية التبشير يقع في هذا الجزء الدخيل ولا يمكن اعتباره أساساً شرعياً لفرض تبشير العالم على المسيحيين[1].

أما عن متى ولوقا، فكل منهما قد جعل مرقس مرجعاً ومصدراً له، خاصة إذا علمنا أن إنجيل مرقس أقدم الأناجيل زمناً، وكونهما اعتمدوا على مرقس أمر مسلم به عند المسيحيين، تقول دائرة المعارف البريطانية: «إن القول بأن متى ولوقا استخدما إنجيل مرقس أصبح على وجه العموم مسلما به»[2].

وعلى هذا فهما لا يصلحان أساساً لعالمية التبشير لأن كلاً منهما جعل (مرقس) أصلاً له.

لكن السؤال الآن من الذي أدخل هذه الزيادة؟ ولماذا؟

الحقيقة أن أصابع الاتهام تشير إلى بولس، وإذا كنا قد أثبتنا من قبل

---

(١) أحمد عبدالوهاب: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر ص١١٣، مكتبة وهبة.

(٢) المصدر السابق

أنه أدخل على المسيحية الكثير من العقائد الوثنية، فليس عجيباً أن يغير مسارها من الإقليمية إلى العالمية، ولذا فإن العلماء يعتبرونه المؤسس الحقيقي للمسيحية والمبشر الأول في القرن الأول، يقول مايكل هارت «المسيح هو صاحب الرسالة المسيحية، ولكن بولس أضاف إليها عبادة المسيح، كما أنه ألف جانباً كبيراً من العهد الجديد، وكان المبشر الأول للمسيحية في القرن الأول»[1].

إن عدداً من الباحثين يرون أن مؤسس الديانة المسيحية هو بولس وليس المسيح وإذا كان -على حد قول مايكل هارت -هو الذي أضاف عبادة المسيح، وألف أكثر نصوصهم المقدسة، وكان مبشر المسيحية الأول، فهذا يعني أنه أضفى على المسيحية جانبين خطيرين فيها: الأول: تغيير المسار العقائدي، الثاني: تغيير المسار التبشيري. وإذا لم يكن بولس هو الذي أدخل عالمية التبشير فهو الذي سمح لها بالتسرب إلى الأناجيل. فقد جاء في سفر أعمال الرسل أنه رأى رؤيا ليلية قادته إلى التبشير بين الأمم، ونقله خارج بني إسرائيل فقد ورد في هذا السفر: «ظهرت لبولس رؤيا في الليل، رجل مكدوني قائم يطلب إليه، ويقول: اعبر إلى مكدونية وأعنا، فلما رأى الرؤيا للوقت طلبنا أن نخرج إلى مكدونية متحققين أن الرب قد دعانا لتبشيرهم»[2].

---

(١) مجلة أكتوبر، العددين١٠٤ ,١٠٦

(٢) أعمال الرسل ١٦ :٩-١٠

وأكد السفر على هذه الرؤية والدعوة بالمسيحية خارج بن إسرائيل مرتين أخريين[1].

ولا يفوتنا أن بولس عندما أراد الدخول في المسيحية وتغيير عقائدها ادعى أنه رأي المسيح نهاراً، وأن دعاه للدخول في دينه، ولتغيير دائرة التبشير يدعي هنا الرؤيا الليلية، تغيرت المسيحية بهاتين الرؤيتين.

اعتقد أن هذه الرؤيا كانت هي الأساس والمصدر للزيادات التي لحقت بأناجيل مرقس ومتى ولوقا، وأن بولس كان وراء هذه الإضافات.

لكن لماذا فعل بولس هكذا؟: والجواب: لأنه أراد أن يبشر بمسيحية خاصة تختلف عن مسيحية المسيح، وأراد أن ينشر هذه المسيحية الخاصة في كل العالم. ولكي يبرر شرعية رسالته ادعى ظهور المسيح له على طريق دمشق، كما زعم أنه يتلقى مباشرة دون حاجة إلى التعلم من أتباع المسيح، ولعل رؤياه في دعوة غير الإسرائيليين دليل على ذلك.

لقد جاء بولس بعقيدة تخالف عقيدة المسيح حين حرّف النصرانية وحين أضاف إلى المسيحية عقائد الحلول والتجسد والبنوة والتأليه والتثليث، والخلاص والاعتراف.. إلخ.

وحتى يكتب لهذه العقائد القبول وسعة الانتشار كان لابد أن يفتح لها الطريق لتغزو العالم دون أن تدفن مع بني إسرائيل!! وهذا ما حدث.

---

(١) أعمال الرسل ١٨: ٦-١٠، ٢٣: ١١

وعلى خطى بولس سار التبشير المسيحي التقليدي أو حتى اليوم، مع ما أضيف إليه من أهداف، وما ابتكره أو أفاد منه من الوسائل.

ولنقف بعد ذلك على أساليب هذا التبشير وأهدافه.



وسائل التبشير:



اندفع الغرب الصليبي نحو الشرق الإسلامي غزواً فكرياً وتبشيراً مسيحياً وذلك عقب خيبتهم في الحروب الصليبية، والسبب في ذلك أنهم أيقنوا أنه لا سبيل إلى الإسلام وعقيدته حية في قلوب المسلمين فكانت بداية التبشير الصليبي مع نهاية الحروب الصليبية وفشلها في مهمتها.

وقد اتخذ التبشير وسائل عديدة وأساليب مختلفة اتفق في بعضها مع الاستشراق وانفرد في البعض الآخر، وسنركز هنا على الوسائل التي انفرد فيها حتى لا نكرر ما سبق ذكره في الاستشراق.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن كثيراً من المستشرقين من رجال الدين والكهنوت وعلى هذا فهم مبشرون أيضاً، وإليك وسائلهم.

أولاً: التعليم الإرسالي:

يهدف التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إلى تحويل الناس إلى المسيحية، ولذا فغايته تبشيرية محضة.

يقول المبشر «هنري جب» عنه «إنه واسطة إلى غاية فقط، هذه الغاية

هي قيادة الناس إلى المسيح، وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية»[1].

وتصريحات المبشرين كثيرة في هذا المجال، سواء فيما يتعلق بإرسالياتهم، الموجودة بدولنا أو فيما يتعلق بالبعثات التعليمية التي تدرس في جامعاتهم بل إنهم يركزون على الطلبة المبعوثين في البلاد المسيحية الغربية، ويطمحون في تحويلهم إلى مبشرين عند عودتهم إلى بلادهم، لاعتقادهم أن تأثيرهم سيكون حينئذ أقوى من المبشر الأجنبي.

واهتمامهم لم يكن قاصراً على رجال المسلمين فقط، بل اهتموا بالفتيات والنساء أيضاً، تقول المبشرة «آنا ميلجان» «يوجد في صفوف كلية البنات بالقاهرة بنات آباؤهن باشوات، وبكوات، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي»[2] إنها تطلق على التدريس بإرسالياتهم أنه نفوذ مسيحي، وهو تعبير يعكس لنا حقيقة ما يدور داخل تلك المؤسسات.

ومن هنا عملوا على التكثير من المؤسسات التعليمية التبشيرية في دول العالم الإسلامي فهناك الجامعة الأمريكية ببيروت، ومصر، وجامعة غوردون بالخرطوم. وكذلك في استانبول بتركيا. بالإضافة إلى المدارس اليسوعية المنتشرة في البلاد العربية. وقد قرر مؤتمر القدس سنة١٩٣٥م أن يستغل كل درس علمي في سبيل تأويل مسيحي لفروع العلوم كالتاريخ

---

(١) التبشير والاستعمار، د. مصطفى الخالدي، د. عمر فروخ ط٤ ص٦٦ المكتبة العصرية بيروت سنة ١٩٨٢م.

(٢) المرجع السابق، ص٨٧

والنبات .

كما أعلن مجلس الجامعة الأمريكية ببيروت أنها لم تؤسس للتعليم العلماني ولكن من أول غاياتها أن تعلن الحقائق الكبرى التي في التوراة، وأن تكون مركزاً للنور المسيحي وللتأثير المسيحي[١].

وتحت ستار التعليم والثقافة حول المبشرون هذه الدور إلى حقول خصبة لزرع تعاليم الإنجيل، ونشر المسيحية بين المسلمين من دور الحضانة إلى التعليم الجامعي.

ثانياً : العلاج الطبي:

من أهم وسائلهم وأنجعها وأسرعها في الوصول إلى نتائج أفضل، بل لقد قرر المبشرون في مؤتمراتهم أن فتح المستشفيات وبعث الإرساليات الطبية أدت إلى نتائج أسرع وأفضل مما يقوم به القساوسة المبشرون[٢].

وترجع أهمية هذه الوسيلة لديهم، وخطورتها علينا إلى سهولة احتكاك رجالهم ونسائهم بالجمهور، وشدة تأثيرهم عليهم.

وللطبيبات المبشرات نفوذ في القرى، ولهن أساليبهن الخاصة للدخول إلى البيوت، وإقامة علاقات مع النساء، ولا يبتغون من وراء كل هذا بأقل من اعتناق هؤلاء المرضى لمسيحيتهم، والتزامهم بتعاليمها. يقول

(١) المرجع السابق، ص١٠٥

(٢) الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسين. دار الفتح ط٢ سنة ١٣٩٣هـ

المبشر «موريسون»: «نحن متفقون بلا ريب على أن الغاية الأساسية من أعمال التنصير بين المرضى الخارجين في المستشفيات أن تدخلهم أعضاء عاملين في الكنيسة المسيحية الحية»[1].

وهكذا حول الطب -وهو من أكرم المهن الإنسانية- إلى وسيلة خداع، وأداة رق، لا تأسر البدن إنما تسترق الروح، فتفتن فقراء المسلمين عن دينهم، بعد أن يقعوا فريسة في أيدي ذئاب في جلود نعاج[2].

إن المستشفى والمستوصف من أخطر مراكز التبشير في منطقة الخليج، ولعل أكبر مثال على ذلك مستشفى بعثة الاتحاد الإنجيلي في الإمارات العربية المتحدة، فإن نشاطها لا يقتصر فقط على المرضى المقيمين بها، وإنما تعدى ذلك إلى إقامة الندوات العامة التي تعقد في القاعة المعدة لذلك، كما أسست المستشفى مكتبة خاصة لبيع الكتب والمطبوعات المسيحية، وفي كل غرفة منها تقدم أشرطة التسجيل للكتاب المقدس وسماع موعظة الأحد[3].

ويمكن القول، تعقيباً على هاتين الوسيلتين أن للمؤسسات التبشيرية سياسة جغرافية خاصة فيما يتعلق بوسيلتي التعليم، والطب، وهذه السياسة تهدف إلى سهولة تحقيق العمل التبشيري، فالمستشفى أو المدرسة أو الجامعة أو الجمعية لا تقام في أي مكان، أو لا يختار مكان إقامتها بطريقة عشوائية، بل لابد وأن يكون المكان في دائرة شعبية، وفي مكان يسهل الوصول إليه من

---

(١) التبشير والاستعمار، ص٥٩

(٢) حقيقة التبشير بين الماضى والحاضر، ص١٨١

(٣) التبشير فى منطقة الخليج، أحمد نون دنقر، ص٥

جميع الطرق وبسهولة.

ولهذا فوراء العمل التبشيري مهندسون وفنيون وعلميون ومتخصصون في كل مايلزم ذلك العمل. فمثلاً يقول الأستاذ إبراهيم خليل أحمد، وهو مسيحي هداه الله إلى الإسلام: «ومن عجيب أن واضع تصميم مستشفى (هرمل) الإنجليزي، وتصميم قصر العيني -وكلاهما في عهد اللوردكرومر- مهندس إنجليزي[1].

ثم يضيف ما به يبين كيفية اختيارهم للمكان «ولنأخذ مثلاً للكليات الجامعة الأمريكية فهي في منطقة عمرانية في ميدان التحرير، وكل الطرق توصل إليها، وجامعة القاهرة في منطقة نائية بالجيزة، ولابد للوصول إليها من عبور النيل . . ثم إن المسافة بين جامعة القاهرة بالجيزة، ودار الكتب التي هي مصدر الاطلاع للطلبة شاسعة، والمسافة بين الجامعة الأمريكية ودار الكتب بضع خطوات»[2]

ثالثاً: الأعمال الاجتماعية:

الأجواء الاجتماعية من أيسر الوسائل لالتقاء الناس واختلاطهم، ولذا يلجأ كثير من الناس إلى خلق جو اجتماعي يلتقون فيه في مناسبات مختلفة، فالأعمال الاجتماعية هي المناسبات التي تربط بين الناس وتتيح لهم التعارف.

---

(١) الاستشراق والتبشير وصلتهما بالأمبريالية العالمية، ص٥٦، مكتبة الوعي العربي.
(٢) المرجع السابق.

أدرك المبشرون ذلك فركزوا على هذا الجانب، وأولوه عنايتهم، والهدف الأساسي من وراء هذه الوسيلة هو اختراق المجتمع الإسلامي، ولقد أدركوا اهتمام الإسلام بهذا الجانب فأرادوا أن يعتموا على تلك الحقيقة، ويقاوموها.

جاء في كتاب «مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين»: «نحن نعني بالعمل الاجتماعي المسيحي تطبيق مبادئ يسوع المسيح في جميع الصلات الإنسانية، إن المسلمين يدعون أن في الإسلام ما يلبي كل حاجة اجتماعية في البشر، فعلينا أن نقارم الإسلام دينياً بالأسلحة الروحية، فالنشاط الاجتماعي يجب أن يرافق التعليم المباشر للإنجيل ويساعده ويتمه»[١]

واستخدام المبشرين للأعمال الجتماعية في مجال التبشير يأتي تطوراً طبيعياً للوسائل التبشيرية التي لها في كل وقت ومكان أشكال جديدة ومناسبة؛ يقول «صموئيل زويمر»: «إن أكبر حجة كان المبشرون يدعمون بها أعمالهم التبشيرية منذ مائة عام، كانت لاهوتية دينية محضة، أما الآن فقد أصبحت أعمالهم مشفوعة بأسباب اجتماعية»[٢].

أما عن مرتكزاتهم في الأعمال الاجتماعية، فتتلخص فيما يلي:

١- الاعتناء بالتربية الرياضية وأعمال الترفيه.

٢- التعرف على أحوال المسلمين الاجتماعية والاقتصادية ثم السعي إلى

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، د. مصطفى الخالدي، د.عمر فروخ، ص١٩١-١٩٢

(٢) حقيقة التبشير، أحمد عبدالوهاب، ص١٨٢

الإصلاح -في الظاهر- وصولاً إلى التأثير على الرأي العام.

٣- الاهتمام بإصلاح الأحداث -في ظنهم- فيحولون دون زواجهم المبكر ويحولون دون تشغيل الأطفال.

٤- محاولة إصلاح الأحوال العامة للعمال فيما يتعلق بساعات العمل والأجور وبالأمور الصحية.

٥- الاهتمام بقضية الرفق بالحيوان[١].

ويلاحظ هنا أن هذه الأعمال الاجتماعية ستار لأهدافهم الحقيقية، وهم بذلك يشبهون المنظمات الصهيونية التي تتمثل خطورتها في المظهر الاجتماعي الإصلاحي الخيري، والذي هو مصيدة تختفي وراءه نواياهم السيئة، كنوادي الروتاري والليونز وغيرها[٢].

فتحت ستار العمل الاجتماعي يقوم المبشرون بمشاريع تحمل صفة تنمية البيئة صناعياً وإنعاش القرى اجتماعياً، وفيها يجري التبشير في المزارع بين الفلاحين، كما يخالطون العمال حتى يسيطروا على الأوساط الصناعية بروح نصرانية[٣].

---

(١) التبشير والاستعمار، ص١٩٢

(٢) راجع ما كتبه الزميل الدكتور حامد الأنصاري، عن هذه المنظمات في موضع سابق من هذا الكتاب.

(٣) حقيقة التبشير، ص١٨٤

وهكذا تتشابه وسائل الصهيونية والصليبية في الوصول إلينا والسيطرة علينا وصدق الله تعالى: ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾ ﴿تشابهت قلوبهم﴾ ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾

وفي هذه الوسيلة (الأعمال الاجتماعية) استغل المبشرون الظروف الصعبة للعالم الإسلامي فجعلوها ميداناً لنشاطهم التبشيري، ومن ذلك :

١- استغلال حالة الفقر :

استغل المبشرون حالة البؤس التي تعيشها الأسر الفقيرة خاصة في إفريقيا، بل كانت أحياناً توقع عقوداً مع هذه الأسر وأبرز مثال على ذلك ما حدث في السنغال حيث تعاقد البعثات التبشيرية بأن تقدم للأسر السنغالية مساعدات عينية في كل شهر على أن يكون لها الحق في اختيار طفل من أطفال الأسرة تربيه على حسابها، وينقطع الصبي عن أهله، وينشأ نشأة مسيحية ثم يرسل إلى فرنسا لإتمام تعليمه العالي، بعدئذ يعاد إلى السنغال ليستخدم في تحقيق أغراضهم[1] .

وفي أندونسيا عام ١٩٦٥م، بعد الانقلاب الشيوعي الفاشل ألقى القبض على عشرات الألوف وأودعوا المعتقلات رهن التحقيق، وسمحت الحكومة للهيئات الدينية أن تقدم خدماتها الإرشادية للمعتقلين، هرع المبشرون من مختلف الطوائف يباشرون نشاطهم مع هؤلاء، وكان المبشرون يبدون استعدادهم لإعالة ذويهم وإعاشة أسرهم شرط أن يوقعوا على صك

(١) التبشير والاستعمار، ص٣

الاعتراف بانضامهم إلى الكنيسة التي يبشرون بها[1].

لم يكن أمام هؤلاء البؤساء سوى الموافقة على شروط المبشرين ظناً منهم أن في ذلك إنقاذاً لهم ، ولأسرهم من الجوع.

ومع استسلام هؤلاء الفقراء، واستغلال المبشرين لحالهم، إلا أن المبشرين لم يكونوا كرماء ، بل كانوا مقترين ولاينفقون إلا بمقدار ما يعود عليهم من فوائد. لقد ألف جماعة من المبشرين كتاباً ورد فيه«يجب أن تستعمل أعمال الخير بحكمة فلا تنفق الأموال إلا في سبيلها : يجب أن تعطى الأموال أولاً للبعداء، ثم يقل دفعها تدريجياً كلما زاد اقتراب هؤلاء إلى الكنيسة . . ثم يجب ألا نبالغ في الناحية الخيرية على كل حال[2].

وهذا يدلنا على أن شعارات الصفح والتسامح والرحمة والمحبة التي يرفعها المبشرون ما هي إلا شعارات جوفاء يخفون وراءها كل ألوان القسوة وعدم الرحمة.

٢- استغلال التهجير الداخلي:

وأبرز مثال على ذلك «أندونيسيا» وذلك عندما قامت بتنفيذ مشروع«التهجير الداخلي»، والذي اعتبرته واحداً من برامج الإنماء القومي؛ ويعنى هذا المشروع : نقل السكان من «جاوا» المكتظة بالناس إلى مناطق

---

(١) غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا، ص١٠٩ ، أبو هلال الأندونيسي، دار الشروق، جدة.
(٢) نقلاً عن التبشير والاستعمار، ص١٩٤

أخرى خارجها تتميز بقلة السكان والأيدي العاملة، ووفرة الخصوبة.

وضعت الإرساليات التبشيرية أنفها في هذا المشروع عندما شجع مجلس الكنائس العالمي في مؤتمره الذي عقد بمدينة «أويسالا» بالسويد عام ١٩٦٩م على توظيف أموال الكنائس الأوربية والأمريكية في مشروعات البلاد النامية. ومن ثم قامت الهيئات التبشيرية بدس رجالها وسط المهجرين بوصفهم (مرشدين اجتماعيين) للأفواج المهاجرة، فيندمجون مع المهجرين في مستوطناتهم الجديدة اندماجاً يتيح لهم بكل سهولة ممارسة نشاطهم بلا رقيب أو منافس.

وهناك تقارير عن ارتداد عدة أسر كانت مسلمة أول ما استوطنت مهاجروها في مالكو، وسيرام، وكاليمنتان ثم تنصرت أخيراً[١].

رابعاً: الجمعيات المسيحية:

تنقسم هذه الجمعيات إلى بيوت مسيحية للرجال وأخرى للنساء، خاصة الطلبة من النوعين، وذلك لإدراكهم خطورة هذا السن وتلك المرحلة.

أما عن جمعيات الشبان المسيحيين فقد عملت على جذب الشباب وتنشئتهم على الأفكار المسيحية، ولفروع هذه الجمعيات منهج يسيرون عليه، واجتماعات تهدف إلى تقييم عملها وتطويره، وأكثر عملها في المدن لأن صيدها دائماً من الشباب والطبقات المثقفة، وعلى سبيل المثال لهذه

---

(١) غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا: أبوهلال الأندونيسى ص٩٣-٩٤

الجمعيات فروع في القاهرة والاسكندرية وتهيئ للمجتمع ألواناً من النشاطات.

يقول (ولبرت سميث) في مقال له عن «جمعية الشبان المسيحيين في الشرق الأدنى» «إن جمعية الشباب المسيحيين قد جاءت إلى الشرق لتعاون المؤسسات المسيحية، أما هدفها الرئيسي فهو تنشئة الشباب على أسس مسيحية»[1].

أما فيما يتعلق بالقسم الثاني وهو بيوت الشابات وطرق التبشير بواسطتها بين النساء فقد لخصتها مؤتمر قسنطينة بالجزائر فيمايلي:

«إن الحاجة الملحة المستعجلة إنما هي إنشاء بيت أو بيوت للنساء المطلقات وللأرامل الصغار، ويجب ألا تكون هذه البيوت مؤسسات كبيرة بل أماكن يخيم عليها الجو العائلي.. وأخيراً نرى أن أمثال هؤلاء النسوة يكن في أثناء مكثهن في هذه البيوت تحت تأثير الإنجيل، ثم إننا نختار منهن أولئك اللواتي يرجى أن يمرّن أكثر من سواهن ليكن بدورهن مبشرات بين قومهن[2]».

هذا الذي أورده مؤتمر قسنطينة يعني أنهم يدركون دور المرأة وخطورتها في المجتمع، خاصة المرأة المسلمة، لأن الإسلام يعلي من دورها كأم وربة منزل، ومسئولة عن جيل المستقبل، ولذا فالوصول إليها يعني التحكم في جيل الإسلام القادم، ومن هنا فهم لم يتوانوا عن محاولات

---

(١) التبشير والاستعمار، ص ٢٠٢

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٥

التأثير عليها . . وعلى المستوى العالمي، يبدو ذلك من النداء الذي أصدرته عضوات المؤتمر التبشيري بالقاهرة سنة١٩٠٦م إذ ورد فيه :

«لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات إلى المسيح . . نطلب من كل هيئة تبشيرية أن تحمل فرعها النسائي على العمل واضعة نصب عينيها هدفاً جديداً هو الوصول إلى نساء العالم المسلمات كلهن، في هذا الجيل»[1].

خامساً: الإعلام:

سواء كان مسموعاً كالإذاعات التبشيرية، حول العالم الإسلامي، وفي داخله، وهي أكثر الوسائل الحديثة فعالية، وهناك أجهزة متخصصة في انتاج البرامج التبشيرية الموجهة إلى المسلمين، ولعل أهم هذه الأجهزة شركات الانتاج الإعلامي في لبنان وفرنسا وأسبانيا، وفي جزيرة سيشل. وبعض هذه الشركات تبث برامجها من راديو عبر العالم من موناكو وقبرص، كما أن راديو الفاتيكان يبث برامجه التبشيرية باللغة العربية، ولعل أنشط هذه الشركات الآن راديو مونتوكارلو الذي يبث برامجه التبشيرية بعد الساعة الحادية عشرة مساء[2].

أو كان مقروءاً مثل الصحافة والطبع والنشر، فلا يفوت المبشرين خطورة هذه الوسيلة وآثارها القوية. . ولقد اعتمدوا في هذا المجال على القاهرة وبيروت.

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٤

(٢) الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة ص١٦٨ بحث التنصير الذي كتبه د. محمدالجليند.

أما القاهرة فاتخذها البروتستانت مركزاً لتوزيع المنشورات في القطر المصري وجميع العالم الإسلامي.

لقد سعت فرنسا إلى زرع فئة من التجار المسيحيين المارونيين الشوام في الاسكندرية ودمياط ورشيد، تحت حماية النفوذ الأجنبي، وكان لهؤلاء بعض الصحف التي أطلق عليها عبدالله النديم صحف الأجراء، وكان يسمي ما ينشرونه بالقاذورات[1].

وتعدّ دار الهلال المصرية مؤسسة تبشيرية خالصة، أنشأها جرجي زيدان، وكذلك جريدة الأهرام التي تأسست بيد صليبية خالصة، وكان من بنود تأسيسها ألا يعمل بها إلا النصارى وكان من مؤسسيها بشارة تقلا وإخوانه الذين هاجروا إلى مصر سنة ١٨٧٣م تحت حماية الحملة الفرنسية، وكان لها دور كبير في تأليب الإنجليز ضد أحمد عرابي.

والدور الذي لعبه تقلا ورفاقه والذي لعبه جرجي زيدان ومن معه دور تبشيري خطير، فتحت شعار التنوير والتقدمية زلزلوا كثيراً من ثوابت القيم في الشارع المصري[2]، والحياة الإسلامية.

أما في بيروت فقد أقاموا المطبعة الأمريكية بها، تلك المطبعة التي أصبحت أهم وسائل التبشير في الشرق كله، واليسوعيون ركزوا جميع

---

(١) من بحث للأستاذ الدكتور عبدالعظيم الديب، «ندوة الثقافة العربية، جامعة قطر ١٩٩٣م».

(٢) نفس المصدر

جهودهم في المطبعة الكاثوليكية في بيروت منذ عام ١٧٩١م[١].

أهداف التبشير:

لابد أن يكون وراء هذه الجهود الجبارة أهدافاً ترتجى وغايات يسعون لتحقيقها، ولما كان العمل التبشيري ديني من الدرجة الأولى، فإننا سنركز على الأهداف التي تتسق مع هذا الاتجاه، وعقد ذلك في هدفين أساسيين:

الأول: تنصير المسلمين.

الثاني: إخراجهم من الإسلام.

١- تنصير المسلمين:

إن الدوائر التبشيرية على اختلاف ألوانها تضع نصب عينيها هذا الهدف، وتعمل ليل نهار من أجل تحقيقه، ومن الصعب على المبشرين النصارى وهم من رجال الدين أن ينسوا أنهم يبذرون النصرانية وسط قوم ينكرون عقائد المسيحية الأساسية، ويعتقدون ديناً يفند تلك العقائد، كما أنه من الصعب عليهم أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضى على المسيحية في كثير من بلاد الشرق وأنه قد حل محلها، ومن هنا يعمل «المتخصصون من النصارى على بث تعاليم الإنجيل بين المسلمين بهدف تنصيرهم وتحويلهم من الإسلام إلى النصرانية، واتباع تعاليم الإنجيل بدلاً من القرآن، والولاء للكنيسة بدلاً من المسجد».

---

(١) التبشير والاستعمار، ص٢١٣-٢١٤

وهذا الهدف ليس جديداً بل هو قديم قدم الإسلام ذاته، ويمتد تاريخه إلى عصر النبوة ثم عصر الخلفاء الراشدين وبني أمية ولازالت مؤسسات التبشير تعمل من أجله إلى يومنا هذا[1].

لقد نشطت المؤسسات التنصيرية في العالم الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر والقرن العشرين أي في ظل الاستعمار والاحتلال. علماً بأن أغلب المؤلفات تتفق على أن «ريمون رول» الأسباني هو أول من مارس هذه المهمة في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي. بعد فشل الحروب الصليبية في مهمتها، فتعلم اللغة العربية بمشقة، ثم جال في بلاد الإسلام وجادل علماء المسلمين في بلاد كثيرة[2]، وفي أعقاب الحروب الصليبية كتب (وليم الطرابلسي) وهو أسقف دومينكاني رسالة بشئون المسلمين يوصي فيها باستخدام المنصرين لاستعادة البلاد المقدسة بدلاً من الجنود[3].

أما عن حقل العمل لتحقيق هذا الهدف فيتركز في المناطق النائية في شرق وجنوب شرق آسيا، وخاصة في أندونيسيا وفي وسط إفريقيا.

وقد أعان المبشرين على تحقيق هذا الهدف في هذه المناطق تمزيق وحدة المسلمين من جانب، فلم يعد المسلمون كجماعة مهتمين بأوضاعهم وأحوالهم خاصة أحوال المستضعفين فيهم، وجهل بني الإسلام في هذه

---

(١) الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة ص ١٥١.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي، ص١٣، تعريب محب الدين الخطيب ومساعد اليافى، مكتبة أسامة بن زيد، بيروت.

(٣) التعبئة الثقافية د. عبدالعظيم الديب، جامعة قطر سنة ١٩٩٣م.

المناطق بدينهم، من جانب آخر، وعوزهم الشديد لضرورات الحياة مما جعل المبشرين يعتمدون في التأثير بالخدمات الاجتماعية والصحية كالمعونات الاقتصادية، والخدمات الطبية، وغيرها.

ومما يدفع المسيحيين نحو تحقيق هذا الهدف ما يعتقدونه من حقهم التاريخي في الجزيرة العربية، وهذا ما ادعاه (زويمر) أحد مؤسسي الإرسالية الأمريكية سنة ١٨٨٩م حيث يقول: «إن للمسيح حقاً في استرجاع الجزيرة العربية . . وهناك دلائل أثرية واضحة على وجود الكنيسة المسيحية هنا، لهذا فإن واجبنا أن نعيد هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية»[١] .

ومن هنا تبدو -في ظني- خطورة العمالة المهاجرة في ظل الكنيسة والتي تعتبر منطقة الخليج بالذات أهم المناطق لجذب تلك العمال خاصة إذا علمنا أن عدد العمال المسيحيين المهاجرين إلى هذه المنطقة رجالاً ونساء يتراوح بين ٥ , ٢ - ٣ مليون مسيحي معظمهم من دول آسيا وإفريقيا.

ولقد أعدت هيئة الأمانة العامة للهجرة في مؤتمر الكنائس العالمي وثائق عن هؤلاء لدراستها والعمل على أساسها، وقد قرر المؤتمر العام للكنائس سنة١٩٧٥م أنه يجب على الكنائس المختلفة، خاصة التي لها فروع في بلاد الخليج العربي أن تدافع عن حقوق العمالة المسيحية المهاجرة إلى المنطقة والعمل على تحسين أوضاعهم[٢] .

---

(١) التبشير فى منطقة الخليج ص٢٤٦

(٢) المصدر السابق، ص٣٢-٣٥

٢- إخراج المسلمين من الإسلام:

وهذا الهدف إما أنه مقدمة للهدف الأول، حيث أنه بعد إخراج المسلم من دينه يسهل بعد ذلك إلحاقه بدين آخر، أو ملأ هويته المفرغة بمبادئ جديدة، أو أنه هدف قائم بذاته ويأتي كخطوة أخرى بعد العجز عن إدخال المسلم في المسيحية نظراً للمواريث الثقافية لدى المسلم والتي تحول بينه وبين اعتناق المسيحية.

وواضح أن هذا الهدف أيسر على المبشرين من الأول، فمن الصعب جداً أن يعتنق المسلم أي دين آخر، ولذا نجد التبشير بهدف التنصير ينشط في أواسط المسلمين الجهلاء بدينهم أو الذين يعرفون الإسلام معرفة محرفة وغير صحيحة، ولقد عبر زويمر عن هذا المعنى بقوله:

« لقد برهن التاريخ وأزمة بعد أزمة على أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً، ولكن الغاية هي إخراج المسلمين من الإسلام فقط، ليكون ملحداً أو مضطرباً في دينه، وعندها لا يكون مسلماً».

وفي مؤتمر القدس التبشيري قرروا أن مهمة التبشير التي ندبتهم إليها المسيحية ليس في إدخال المسلمين في المسيحية فهذا هداية لهم وتكريم، وإنما المهمة أن يخرجوا المسلم من الإسلام[1].

وهذا الكلام لا ينم عن تبشير مسيحي يسعى إلى الهداية المجردة، بل ينمّ عن تبشير حاقد لا يبغي سوى الإضرار بالمسلم وملاحقته حتى يصير

---

(١) التبشير الغربى، أنور الجندى ص٩، دار الاعتصام.

إنساناً لا فائدة منه، إنه فعلاً التعصب الصليبي الحاقد.

لهذا فقد استخدم المبشرون لتحقيق هذه الغاية طريقة تسوقهم إلى هدم العقيدة الإسلامية، والتشكيك في الدين الإسلامي، وتشويه سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم.

يقول المسيو(شاتليه): «ولا ينبغي أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامي أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية، إذ الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانتقاص والاضمحلال الملازم له سوف يقضي -بعد انتشاره في كل الجهات- إلى انحلال الروح الدينية من أساسها»[1].

إن العمل التبشيري كله قائم على دعامتين: الهدم والبناء.

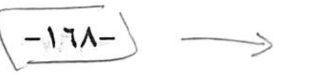
والهدم عندهم هو الأهم، ويقصد به نزع الاعتقادات الإسلامية أو إخراج المسلم من دينه، وتشكيكه في عقيدته وحضارته وتراثه. وسر أهميته تعود إلى إمكانه والقدرة على تحقيقه في بعض الأحوال والأزمان، بخلاف التمسيح والتنصير!.

يقول شاتليه: «إن سير العالم الإسلامي تدرج نحو إنحلال أفكاره الدينية وزوالها، وذلك أمر طبيعي ممكن التحقيق، أما فرض تدرج المسلمين إلى اعتناق المسيحية فخارج على حد الإمكان»[2].

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي، ص٩

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.



القومية

أ.د. عدنان محمد زرزور

أولاً: مقدمة وتمهيد

ثانياً: تعريفات القومية

ثالثاً: عوامل نشأة القومية العربية

رابعاً: القومية واقع وتاريخ

خامساً: مقومات القومية

سادساً: تجاوزات الفكر القومي

عندنا يتحدث معاً.. كانوا علماء طب فلك طبيعة كيمياء

كان عالم الدين مؤلف في الدين والطب السنة النبوية والفلك والمنهج

التجريبي

مقدمة وتمهيد

تقلّب المسلمون في تاريخهم الطويل، وكما هو معلوم، بين عوامل المد والجزر، أو بين الغلبة والصمود، على نحو قريب مما قاله عباس محمود العقاد -رحمه الله- حين وصف العقيدة الإسلامية أو الثقافة الإسلامية عموماً بأنها كانت قوة غالبة، وقوة صامدة[1] أي قوة غالبة حيناً أو في عصر، وقوة صامدة في عصر آخر. حتى انتهى بهم المطاف -لأسباب يطول شرحها- إلى عصر الجمود والركود، وحتى انتهى الأمر بالشخصية الإسلامية إلى فقدان المناعة والقدرة على المقاومة. ولم يقفل باب الاجتهاد -على سبيل المثال- إلا وكان العقل الإسلامي قد وقف عن الفاعلية والتأثير.. وكأن لسان حاله يقول: إن مفكّري وعلماء عصر سابق قد فكروا ودبّروا لكل العصور! وقد كان ذلك مقدمة حقيقية لابتعاد المسلمين عن علومهم الدينية والدنيوية كما يقال، أي عن معارفهم الثقافية وعلومهم التجريبية أو التطبيقية.. هذه المعارف والعلوم التي بلغت ذروتها في القرن الرابع الهجري، أي في «عصر النهضة» في الإسلام، كما وصفه «آدم متز» بحق في مؤلفه الجامع الذي وضع له هذا العنوان.

وعلينا أن نلاحظ هنا أن تقدم المسلمين في البابين السابقين كان يسير في خط بياني واحد أو مشترك؛ يتقدم المسلمون في كلا الجانبين -الثقافة الدينية والعلم التجريبي- ويتخلفون، أو يلحقهم الركود في كليهما كذلك. ولم يحدث في تاريخ الحضارة الإسلامية أن ارتفع أحدهما على حساب الآخر- كما هي الحال في بعض الحضارات الأخرى على سبيل المثال- فحين قاس

---

(١) انظر كتابه: «الإسلام في القرن العشرين»: حاضره ومستقبله.

المسلمون محيط الكرة الأرضية في عصر المأمون، كانت الثقافة الدينية قد بلغت أوجها في الوقت ذاته في دار الحكمة وفي أروقة بغداد . . وفي حركة الاجتهاد -العقلي- حيث شهد هذا القرن، الثاني، ولادة فقه أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والإمام زيد رحمهم الله. وحين غزتهم الحضارة الأوروبية في القرن الماضي كانوا يشكّون في كروية الأرض! ويشككون في الوقت ذاته في «إيمان» من يقول بهذه الكروية!! وقد تعبر فيهم الحي أو القرية فلا تجد من يقرأ أو «يفك الخط» كما يقال! وكأن القراءة عنوان الطلاسم أو المعضلات! فضلاً عن أن «يحفظ» حكماً من أحكام الفقه، ناهيك عن العلم والعقل والاجتهاد!!

هذه الخرائب الفكرية أصلح ما تكون للغزو الفكري و«قابلية الاستعمار» بحسب مصطلح الأستاذ المفكر مالك بن نبي رحمه الله، وبخاصة إذا كان هذا الاستعمار وذلك الغزو محمولاً لا على جناح التفوق العسكري فحسب، بل على أجنحة التقدم أو السبق الحضاري العلمي والثقافي، بغض النظر عن أسباب هذا التقدم الهائل، وعن حجم التأثيرات الإسلامية السابقة فيه.

. . . ثم بدأ عندنا ما سمي بعصر التنور أو التنوير، والحديث فيه طويل ومتشعب، وقد شهد صراعات وتناقضات ومفارقات كثيرة! وأختصر ما حدث فيه أو ما حدث في هذه الحقبة التاريخية بنقطتين، أو بخلاصتين: الأولى: أننا طلبنا -للتخلص من مناخ الركود، وتحقيق النهضة والتنور- عصر النهضة الأوروبية ولم نطلب عصر النهضة في الإسلام! الثانية: أن هذا الخطأ التاريخي الذي وقعنا فيه، أو هذه النظرة المتعجلة التي ساقتنا إلى هذا الاختيار . . يعود إلى أننا فكرنا بروح عصر الانحطاط، وبعقل عصر الركود

نفسه من جهة. و ما أصابنا من الانبهار والجزر النفسي أمام التفوق التقني الغربي وصورة نظام الحياة الأوروبية، من جهة أخرى، بالاضافة إلى الفرض المباشر للنموذج الغربي من قبل الاستعمار، وما صاحبه وتقدم بين يديه من التبشير والاستشراق، من جهة ثالثة. حتى ليمكننا القول: إن بواكير يقظة العالم الإسلامي -كما دعيت- رسمت من خلال هذا النموذج نفسه، علماً بأن هذه اليقظة كانت استجابة لتحدّيه، أو جاءت رداً عليه!

وكان أبرز ما ميّز عصر التنوير السابق هذا: افتتاح المدارس (الحديثة) والجامعات. وقد تم ذلك على يد البعثات التبشيرية، من جهة، وعلى يد (الحكومات) التي قامت في ظل «الوصاية» أو الاحتلال، من جهة أخرى. ولهذا جاءت صورة عن المعاهد والجامعات الأوروبية، وغالباً ما كانت تعكس -في مناهجها ولغتها ونظامها- مناهج البلد المستعمر ولغته ونظام تعليمه وحياته على وجه العموم!

فإذا أضفنا إلى ذلك -على صعيد الأجيال القائمة ذاتها، وليس على صعيد الأجيال القادمة التي كان يجري إعدادها في تلك المدارس والجامعات- عنايتنا بمظاهر «التقدم» والحياة الأوروبية، و«التقليد» الذي وقعنا فيها، من خلال موقعنا كأمة أو شعوب مغلوبة -والمغلوبُ دائماً مولع بتقليد الغالب كما قال العلاّمة ابن خلدون- أدركنا أن عصر التنوير الذي طال حديثنا عنه، وأن «النهضة» التي التمسناها لم تكن في حقيقة الأمر أكثر من «تأورب» أو «تغريب»! لقد اندفعنا في طريق التغريب ونحن نظن أننا نحقق لأنفسنا الحداثة أو اللّحاق بركب الأمم المتمدنة أو المتحضرة!..

وهكذا بقي العالم الإسلامي لمدة تزيد على قرن من الزمان مسرحاً لجميع الأفكار والتيارات والمذاهب التي كانت تموج بها الحياة في أوربة أو في المجتمعات الأوروبية المتعددة قبل انشطارها إلى معسكرين اشتراكي ورأسمالي، وبعده. وقد مثّلت هذه الأفكار والمذاهب «اتجاهات» منحرفة قليلاً أو كثيراً عن «هوية» المجتمع الإسلامي، وطبيعة انتمائه التاريخي الطويل، بل مثّلت في بعض الأحيان خروجاً عن القيم الأساسية التي جاء بها الإسلام أو -حتى- التي نصّ عليها القرآن الكريم.

وكان من أبرز هذه الاتجاهات وأولها ظهوراً: الاتجاه القومي، أو الفكر القومي الذي حاول أن يتخذ من رابطة العروبة أو الرابطة القومية بديلاً عن الرابطة الإسلامية، والذي دعا أصحابه إلى تقليص دور (الدين) في حياة المجتمع بحيث لا يتعدى (المسجد) أو العبادة .. إلخ. وقد عرف هذا الاتجاه أول ما عرف في بلاد الشام قبل أن يمتد أو يترك أثره في بعض البلاد العربية والإسلامية الأخرى فيما بعد. وقد ساعده على ذلك ما آلت إليه أحوال الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر من الركود، وما أصاب الثقافة والحركة العلمية في ظلها من التوقف أو الجمود. بالإضافة إلى التحوّل الخطير الذي أصاب سياسة هذه الدولة في أيامها الأخيرة حين انتقلت أو انحدرت من السياسة العثمانية الإسلامية إلى السياسة التركية ومحاولة صبغ شعوب (الإمبراطورية) جميعاً بالصبغة التركية! وقد تم ذلك -كما سنعرض له بالتفصيل بعد قليل- على أيدي نفر من القوميين الأتراك الملاحدة، الذين استطاعوا أن يصلوا إلى مقعد القيادة والتأثير في الدولة العثمانية. ونكتفي بهذه المقدمة السريعة لنصل إلى الحديث عن تعريف القومية، وعن أسباب تبنّيها والدعوة إليها.



تعريفات القومية

القومية مشتقة من (القوم) وهي تعبير عن وجود جماعة من الناس يتكلمون لغة واحدة وينحدرون غالباً من أصل واحد، كالعرب والترك والفرس. ويمكننا القول إن هذا تعريف أو ما يشبه التعريف، لأننا لم نقف على تعريف واحد متفق عليه بين دعاة الفكر القومي، حتى إن بعضهم يقول: إن التعريف الجامع المانع للقومية يكاد يكون مستحيلاً!! بل إن بعض الباحثين يرى أن محاولة تقديم تعريف للقومية العربية ليس مقبولاً .. في الوقت الذي قال في نعت القومية «إنها الوعي العربي بمظهره الأخير» وزعم «أنها لم تكن صدى لحركات قومية أخرى، ولكنها تعبير عن تنبّه ذاتي، وتجديد لهذا الوعي عن طريق التحرر والحياة الكريمة»[1].

وقد حاول آخرون وضع تعريف للقومية من خلال الحديث عن طبيعة الروابط التي تشد الأفراد بعضهم إلى بعض .. أي من خلال الإشارة إلى «مقومات» قومية من القوميات أو عوامل تكوينها، فقال بعضهم -على سبيل المثال-: «القومية نزعة تربط الفرد بقومه بروابط متجانسة، كالقرابة، واللغة، والعادات والتقاليد، والتاريخ، وتوحد بينهم أهداف مشتركة، كالوحدة، والتحرر، والحرية، والعدالة» وقد حاول أصحاب المعجم الفلسفي وضع تعريف قريب أو مماثل، فقالوا: «القومية صلة اجتماعية عاطفية، تتولد من الاشتراك في الوطن والجنس واللغة والثقافة والتاريخ والحضارة والآمال والمصالح» وهكذا تم الربط في هذين التعريفين بين تعريف

---

(١) الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للقومية العربية ، صـ٩ طبع دمشق.

القومية ومقوّماتها أو عوامل تكوينها، كما تم الجمع في التعريف الأول بين روابطها وأهدافها!.

ويمكننا الإشارة أمام هذه المحاولة إلى ما ذهب إليه الباحث المؤرخ العلامة عمر فروخ -رحمه الله- حين تحدث عن أبرز هذه العوامل، في نظر دعاة الفكر القومي، من خلال أثرها في إذكاء الشعور بالانتماء إلى الأصل الواحد -الذي أشرنا إليه- أو مدى تضافرها وتآزرها في إذكاء هذا الشعور، الأمر الذي مكّنه من تعريف القومية بأنها: «شعور جماعة من الناس بأنهم يتتمون إلى أصل واحد»[1] أو إلى جنس واحد.

وغني عن البيان أن مسألة الجنس الواحد هذه لا تَعني وحدة النسب وقرابة الدم، وإنما هي -كما يقول بعض الكتّاب القوميين- «اعتقاد قائم لدى الكثيرين بوجود هذه الرابطة العرقية، ورغم افتقاره إلى التبرير العلمي لديهم فقد أصبح قوة معنوية لها تأثير فعلي في التعاطف والتقارب بينهم» ويضيف: «وهكذا، فإن الاعتقاد الراسخ في النفوس يكتسب أحياناً قوة الحقيقة رغم استناده إلى الوهم»[2] !!

ومن هنا، فقد ذهب إلى تعريف القومية، بقوله: «القومية: شعور يربط بين أفراد الأمة، ويعبّر عن الولاء لها. والأمة: جماعة من الناس يربطهم الشعور القومي الناجم عن وحدة اللغة والتاريخ والتراث الحضاري والمصلحة المشتركة»[3].

---

(١) كتاب : تجديد التاريخ، للدكتور عمر فروخ رحمه الله.

(٢) شبلي العيسمي: جريدة الرأى -الأردنية- ص٢٣، ٦/١١/١٩٩٢م.

(٣) المصدر السابق.

عوامل نشأة القومية العربية

نشأت الدعوة إلى القومية العربية تحت تأثير عاملين رئيسين اثنين :

العامل الأول: استعارة الأفكار والنظم الغربية ، أو تقليد الأوربيين في شعارات عصر نهضتهم بوجه خاص ، ومعلوم أن القرن الثامن عشر عُرف عندهم بعصر القوميات . لقد سرت الدعوة إلى القومية إلى العرب والمسلمين في عصر التفوق الأوروبي ، وفي عصر تقليد المسلمين للأوروبيين كما أشرنا قبل قليل . وفي الوقت الذي لم تكن علاقات العالم الإسلامي بأوروبة ضعيفة أو محدودة! ويكفي أن نشير في نطاق هذه العلاقات إلى «الامتيازات» التي كانت تتمتع بها الدول الأوروبية (بريطانية وفرنسية والروسية خصوصاً) في الدولة العثمانية ، وإلى الإرساليات الدينية ومدارس التبشير التي لم تكد تخلو منها حاضرة أو مدينة من حواضر الدولة العثمانية في الشرق ، بالإضافة إلى الحروب الدولية على الدولة العثمانية ، والتي زادت في هذا القرن وحده -التاسع عشر- على خمسة عشر حرباً[1] .

ولهذا ، فإن الدعوة إلى القومية بقيت لفترة طويلة محصورة في نطاق الذين تلقوا تعليمهم على يد الإرساليات وفي مدارسها وجامعاتها التعليمية والتبشيرية . وكان معظمهم من أبناء النصارى في بلاد الشام .

وقد عبّرت هذه الدعوة عن نفسها ، في نطاق هذه الإرساليات ، وفي ظل الرعاية الأجنبية عموماً ، في منتصف القرن التاسع عشر ، الذي يمكن التأريخ به لبداية الحركة القومية في بلاد الشام ، أو لبداية سريان الفكرة

(١) تجديد التاريخ ، للأستاذ الدكتور عمر فروخ : ص٢٨٠-٢٨١

القومية ووضع الدعوة إليها موضع التنفيذ. وفي هذا يقول صاحب كتاب «يقظة العرب» جورج أنطونيوس:

«إن قصة الحركة القومية بدأت في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ بإنشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت في ظل رعاية أمريكية»[1] كما أضاف إلى هذه الرعاية الأمريكية رعاية أخرى فرنسية، في حديثه عن هذه القصة، فقال: «كان من نتائج التسامح الذي تميّز به حكم إبراهيم باشا -في بلاد الشام- نتيجة لم تخطر على البال من قبل(!) فقد فتح هذا التسامح الباب أمام البعثات التبشيرية الغربية، وبذلك أتاح مجال العمل لقوّتين: إحداهما فرنسية، والأخرى أمريكية. قُدّر لهما أن تحتضنا البعث العربي وترعياه»[2].

أما الجهد المنظم في تبني الفكرة القومية والدعوة إليها. فقد تبلور في تأسيس جمعية سريّة في الكلية السورية البروتستانتية في بيروت عام ١٨٧٥، أي بعد ربع قرن من إنشاء الجمعية الأدبية السابقة.. وكأن الحركة القومية الآن أخذت بعداً سياسياً جديداً، خصوصاً إذا لاحظنا علاقتها بالحركة الماسونية التي كانت محافلها أخذت بالانتشار في أرجاء الدولة العثمانية في هذا الوقت.

وفي هذا يقول جورج أنطونيوس-: «يرجع أول جهد منظم في حركة العرب القومية إلى سنة ١٨٧٥ حين ألف خمسة شبان من الذين درسوا في

---

(١) كتاب: يقظة العرب، تأليف جورج انطونيوس، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس: ص٧١. الطبعة السابعة، بيروت. هذا وقد احتفلت هذه الجامعة أو الكلية بعيدها المئوي عام ١٩٦٦م.

(٢) يقظة العرب، ص٩٧.

الكلية السورية الإنجيلية(قلت: الجامعة الأمريكية فيما بعد) جمعية سريّة، وكانوا جميعاً نصارى»[1].

ثم يربط بين هذه الجمعية السرية والمحفل الماسوني، بالعبارات التبريرية أو المموّهة التالية: فيقول «وكانت الماسونية قد دخلت قبل ذلك بلاد الشام على صورتها التي عرفتها أوروبة(!) فاستطاع مؤسسو الجمعية السريّة عن طريق أحد زملائهم أن يستميلوا إليهم المحفل الماسوني الذي كان قد أنشئ منذ عهد قريب، ويشركوه في أعمالهم»[2]!!

ويمكن عدّ هذا السبب الأبعد أثراً من الوجهة الفكرية في هذا العصر، وبعد عشرات السنين كذلك.. عندما اتّسع نطاق تقليد الغرب، واستعارة الأفكار الأوروبية لدى عامّة المثقفين، نتيجة لشيوع التعليم على المناهج المنقولة من مدارس الدول المستعمرة، أو تلك التي تمتعت بحق الوصاية أو الحماية أو الانتداب على البلاد العربية! أو بعبارة أخرى: بعد أن تكاتفت جميع المدارس: الخاصة -مدارس الإرساليات- والحكومية أو الرسمية على أداء مهمة واحدة أو متقاربة في نهاية المطاف!

وأخيراً، فإن هذا العامل يفسّر كذلك لماذا جرى التركيز لدى دعاة القومية العربية، في عصر النشأة هذا، وفي أبرز الأطوار اللاحقة بعد ذلك، على النموذج الإيطالي والألماني، من دعوات الوحدات القومية في أوروبة، دون النماذج التي تمت الدعوة إليها في البلقان على سبيل المثال، أي في نماذج

(١) المصدر السابق، ص١٤٩.
(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

الأمبراطورية العثمانية ذاتها!

العامل الثاني: مجاراة القومية الطورانية أو تقليداً لها وقياساً عليها، ورد فعل على سياسة «التريك» التي تبناها أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، بعد أن أحكموا سيطرتهم على الدولة العثمانية، في أعقاب خلعهم للسلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله عام ١٩٠٩م.

ومن المعلوم أن معظم أعضاء هذه الجمعية، التي انبثقت من حركة الأتراك الشبّان، كانوا من «الدونمة» الذين عاشوا في مدينة «سلانيك» في شبه جزيرة البلقان -التي كانت تابعة للدولة العثمانية- والدونمة هؤلاء يهود منافقون، أو منافقون أخفوا معتقدهم اليهودي[١]، وراء التسمي بأسماء إسلامية، ومن خلال تظاهرهم بشغائر الإسلام.. حتى تمكنوا من الكيد للإسلام وللدولة العثمانية حين سنحت لهم الفرصة «وقد توصلوا إلى مراكز سامية في الحكومة وفي الجيش، ثم استطاعوا أن ينفذوا إلى قصر السلطان عبد الحميد»[٢].

ويضيف بعض المؤرخين أن هذه الجمعية لم يظهر بين زعمائها وقادتها «عضو واحد من أصل تركي صاف»! بل كان هؤلاء القادة، أو «أصحاب العقول المحركة في هذه الجمعية» مع يهوديتهم موزعين بين أصول أسبانية وبولندية ومجرية.. وبلغارية![٣] وقد ظهر أثر ذلك كله في السياسة التي تبنّتها هذه الجمعية، فقد كانت تحمل روح العداء للإسلام وللخلافة

---

(١) راجع كتاب: نشوء القومية العربية للدكتور زين نور الدين، ص٢٠٧

(٢) تجديد التاريخ للدكتورعمر فروخ، ص٢٨٤

(٣) W. weston: The Rise of Nationality in the Balkan. p.p135.

العثمانية، وقد عرفت هذه السياسة بالسياسة الطورانية، ومعناها: الرجوع إلى خصائص الأسلاف الطورانيين (من سكان التركستان في أواسط آسية) قبل دخول الترك في الإسلام، ولهذا فقد رفعوا شعار «الذئب الأغير» الذي كان معبود الأتراك في جاهليتهم هذه، وبدأوا في الوقت نفسه بفرض اللغة التركية وحدها على جميع شعوب الدولة العثمانية، ومحاولة صبغها بالثقافة التركية.

وعداء هذه السياسة الطورانية -الجاهلية- للإسلام لا يحتاج إلى بيان، أما عداؤها للدولة العثمانية، بل للأتراك أنفسهم على المدى القريب والبعيد، فيبدو من خلال استحالة تتريك جميع شعوب الدولة! لأن هذا التتريك إذا كان مستحيلاً ومرفوضاً بطبيعة الحال، فإن الإصرار على فرضه على الشعب العربي بوجه خاص، وعلى سائر شعوب الدولة العثمانية بوجه عام؛ كان بمثابة إعطاء مبرر لجميع هذه الشعوب لكي تدعو إلى قوميتها، وتطالب من ثم بالانفصال عن دولة الخلافة!

وهكذا، بدأ العرب يدعون إلى قوميتهم تقليداً ومجاراة لهذه الدعوة الطورانية الجاهلية، ورد فعل على سياسة التتريك! يقول الأستاذ الدكتور عمر فروخ: «فلما انكشفت هذه الحركة المتطرفة لشعوب الأمبراطورية العثمانية انفلت العرب خاصةً إلى حركة عربية متطرفة في الدعوة إلى القومية العربية الجاهلية. من أجل ذلك نشأت جمعيات عربية كانت في الواقع رد فعل لجمعية «تركية الفتاة»[1].

(١) الاسم الذى عرفت فيه حركة الأتراك الشبان فى اللغة العربية.

وعلينا أن نذكر هنا، تعقيباً على هذا المعنى الوثني الجاهلي الذي أشار إليه الأستاذ الدكتور عمر فرّوخ أن هذا التطرف كان عند بعض هذه الجمعيات، وعند نفر من العرب، كما أشار هو نفسه رحمه الله، لأن بعض العرب الآخرين لم يتجاوزوا الرفض المشروع للقومية الطورانية وسياسة التتريك، إلى أي تعريض بالإسلام أو انتقاص لأبعاده .. أو إلى أي بعث للتاريخ الجاهلي أو دعوة إليه، ولو في هذه المرحلة على الأقل. بالإضافة إلى أن كثيراً من الجمعيات والشخصيات العربية بقيت على ولائها العثماني بوصفه ولاءً للإسلام ولدولة الخلافة، وبقيت لذلك حريصة على الخلافة ووحدة الدولة والأمة .. مع دعوة بعض المفكرين -مثل عبدالرحمن الكواكبي- إلى ضرورة العودة بهذه الخلافة إلى العرب مرة أخرى.

القومية بين عهدين:

وفي جميع الأحوال، فإن في وسعنا تحديد ظهور القومية الطورانية وسياسة الاتحاديين هذه في التتريك -والتي تأثر بها هؤلاء بدورهم من الفكر الأوروبي -فاصلاً بين عهدين، أو بين عهدي الدعوة إلى القومية العربية: العهد الذي كانت فيه وقفاً على النصارى، والذي تم برعاية أمريكية مبكّرة، ثم برعاية فرنسية. ويمتد هذا العهد من أواسط القرن التاسع عشر(١٨٤٧)كما قلنا، أو من أول نواة للفكر القومي بذرت من خلال إرساليات التبشير، حتى عام ١٩٠٩ حين أحكم الاتحاديون سيطرتهم على الدولة العثمانية، وبدأوا سياسة التتريك، وعندها بدأ العهد الثاني، الذي انضم فيه إلى النصارى عدد غير قليل من المسلمين، على تعدد عندهم في الآراء واختلاف أو اختلاط في المفاهيم.

ويبدو أن الحد الأدنى المتفق عليه بينهم في الدعوة إلى القومية أو العروبة كان رفض سياسة التتريك بكل ماحملته من ردّة وسفاهة وتآمر على العروبة والإسلام، ثم تعددت الآراء والمشارب بعد ذلك، وربما كان للانتماء المذهبي والعرقي لدى بعض الأقليات دور حاسم في هذا التعدد، وخصوصاً حين وصل في بعض الأحيان إلى قريب مما دعا إليه الاتحاديون الأتراك أنفسهم، أو مما أفصحوا عنه من كراهية العروبة والإسلام.. كما سنوضح ذلك عند حديثنا عن تجاوزات الفكر القومي.

التفسير العلمي لارتباط هذه النشأة بالمسيحيين

ونود أخيراً أن نقدم تعليلاً لهذا السبق النصراني، إن صح التعبير، في نشأة الفكرة القومية، أو في تبنّيها والدعوة إليها.. ولكل ما يتصل بأسباب الرعاية التي أشار إليها صاحب كتاب «يقظة العرب».. نحاول أن نفسّر به هذا «الواقع التاريخي» الذي لم ينفرد جورج أنطونيوس بالحديث عنه[1] أو بالإشارة إليه، غير مغفلين بالطبع أثر النقل والاستعارة للنظم والأفكار الغربية، وأثر المدارس الأجنبية التي كانت تؤمها الأعداد الكبيرة، أو تغلب عليها هذه الأعداد من أبناء النصارى، أو بعبارة أدق: على النحو الذي لا يتعارض مع أثر هذا النقل والتأثر والاقتباس، بل بما يكمله ويعضده، ويضعه من ثم في موضعه الصحيح، فنقول:

يأتي عصر القوميات عادة في أعقاب عصر الإمبراطوريات.. حين تضعف الروابط الأمبراطورية أو تتراخى، أو حيث لا يعود في مقدورها -

(١) راجع كتاب محاضرات فى نشوء الفكرة القومية، تأليف: ساطع الحصرى.

لأسباب كثيرة - أن تبقى ممسكة أو متحكمة بسائر شعوب الإمبراطورية! عندئذ يصبح في مقدور هذه الشعوب أن تجد ذاتها وتعبّر عن نفسها من خلال «قوميتها» أو شخصيتها المتميزة. أو بعبارة أخرى: هذه الشعوب التي تملك مقوماتها الخاصة التي تفصلها عن جسم الإمبراطورية، أو عن مركزها، والتي ما فتئت متمسكة بها -أي بهذه المقومات- محافظة عليها كطريق لتحقيق الحرية والاستقلال! يجري الآن إحياؤها وبعثها والتأكيد عليها لإنجاز الوحدة والاستقلال.

ومعلوم أن أوروبة دخلت في القرن التاسع عشر في عصر القوميات، في أعقاب هذه الإمبراطوريات التي كانت تحكم عدداً من الشعوب والقوميات[1]. ولهذا جرى في أوروبة بعث جميع عوامل هذه القوميات وأسسها ومقوماتها؛ من لغة، وتاريخ، وتراث، ودين.. بل مذهب ديني في بعض الأحيان! وعلى سبيل المثال، فإن الأقاليم النصرانية التي كانت خاضعة للحكم العثماني في البلقان جرى فيها التأكيد على «الدين» بوصفه أحد أبرز المعالم أو الأسس القومية التي تميزهم عن العثمانيين وتفصلهم عنهم! جاء في كتاب عنوانه: «البلقانيون: تاريخ موجز لبلغارية والصّرب واليونان ورومانية وتركية» ألفه جماعة من كبار المؤرخين، وطبعته جامعة اكسفورد: مايلي: «وفي الشمال قام غرمانوس مطران بطراس بحشد الثوار

(١) كانت إمبراطورية النمسا تحكم بلاداً شاسعة تقطنها الأمم أو القوميات المختلفة التالية: ألمان، طليان، مجر، رومان، بولونيون، يوغسلاف، تشيك. وكانت السلطة العثمانية تضم في قسمها الأوروبي وحده ست قوميات: بلغار، يونان، ألبان، يوغسلاف، رومان، أتراك. وكانت روسيا تجمع تحت حكمها قوميات أوروبية عديدة، أهمها: الفلنديون، والبولونيون، والأوكرانيون.

في دير ماغاسبلايون، ثم رفع غطاء المذبح على أنه الراية القومية»[1].

والذي نراه هنا هو أن النصارى العرب الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام، أو الذين خضعوا للحكم العثماني في هذه البلاد وسواها، كانوا يشعرون نحو هذا الحكم بمثل شعور سكان البلقان من النصارى على سبيل المثال، أو بشعور قريب منه في غالب الأحوال ! أي إن ارتباطهم بالدولة العثمانية كان أقرب ما يكون إلى ذلك النوع «الامبراطوري» الذي تحدّثنا عنه. ولم يشفع لهم انتماؤهم إلى الثقافة العربية الإسلامية، أو بعبارة أدق: لم ينهض بهم هذا الانتماء إلى درجة الشعور بالولاء (للنظام العثماني) على الرغم من الحقوق التي كانوا يتمتعون بها في ظل هذا النظام. في حين أن شعور المسلمين العرب نحو الدولة العثمانية وارتباطهم بها لم يكن على هذا النحو على الإطلاق، لأنهم كانوا يعدّون الدولة العثمانية دولتهم، ولا يعدّونها الدولة التي تحكمهم أو تتحكم فيهم! يقول الأستاذ الدكتور عمر فرّوخ رحمه الله: «لم يكن المسلمون في الإمبراطورية العثمانية يشكون شيئاً يحملهم على النقمة، فإن الدولة العثمانية كانت دولة مسلمة، وبذلك كانت دولتهم. وإذا كانت الدولة العثمانية قد مرت في أواخر أيامها بأحوال قاسية، فإن تلك الأحوال كانت خارجة عن سيطرة الدولة العثمانية، وكانت قسوتها عامة في الترك والعرب، وفي المسلمين وغير المسلمين. ثم إن المسلمين كانوا يتحملون هذه الأحوال القاسية لأنهم (أو لأن أسلافهم) كانوا قد تمتعوا بالأمجاد التي كانت للدولة العثمانية في تاريخها الطويل. ثم إن الدولة ليست في المغانم المادية فحسب، بل الدولة جوٌّ روحي أيضاً يعيش فيه الفرد وتعيش

---

(١) ص١٩٣-١٩٤ نقلاً عن كتاب تجديد التاريخ للأستاذ الدكتورعمر فروخ رحمه الله، ص٢٦٩. وانظر فيه نقولاً مهمة أخرى عن الكتاب المذكور، وكتب أخرى:

فيه الجماعة على رضا واطمئنان في حال الأمن، وعلى أمل بالرضا والاطمئنان المقبلين في حال البأسَ والشدّة. وليس الوطن وطناً إذا اطمأنت الحالُ فيه بالفرد، ثم يبطل أن يكون وطناً إذا قلقت فيه الأحوال! وكذلك ما كان للنصارى أن يشكوا شيئاً في الدولة العثمانية لا في أيام الرخاء ولا في أيام الشدّة؛ ففي أيام الرخاء كانوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق، ثم يزيدون في أحيانٍ كثيرة، في الامتيازات، على المسلمين.»[1].

نعود من هذا البيان، أو من هذا الاستطراد الذي لابد منه، لنقول: إن النصارى العرب، أو طليعتهم المثقفة التي تلقّت معارفها في المعاهد التبشيرية المشار إليها، بمجرد أن شعروا بالأحوال القاسية التي تمرّ بها الدولة العثمانية، سارعوا إلى تبنّي الفكرة القومية، وتصدّروا للتبشير بها والدعوة إليها.. على الرغم من أنهم -كما قال الدكتور فروخ رحمه الله- ماكانوا يشكون شيئاً من هذه الدولة، لا في أيام الرخاء ولا في أيام الشدّة. وتكفي الإشارة هنا - كذلك- إلى أن النصارى واليهود كانوا ملوك الاقتصاد والتجارة في الدولة العثمانية، إلى جانب تمتعهم بحماية فعّالة في ظل الامتيازات الأجنبية!

والأمر المهم هنا: هو أن اختيارهم للنموذج القومي الإيطالي والألماني إنما كان لقيامه أو تركيزه على «اللغة» دون الدين، على الرغم من أن هذا النموذج في النطاق الأوربي كان عاملاً موحّداً، فقد كان الألمان موزعين بين عشرات الدول والدويلات المستقلة، وكان الطليان موزعين على ثمان وحدات سياسية، في حين أنه كان في الحالة العثمانية، أو في نطاق: الرابطة الإسلامية/ العثمانية، عاملاً مفرّقاً أو عامل تفكك وتمزيق! وغني عن البيان

(١) تجديد التاريخ، ص٢٨٢.

أنه لم يكن من الممكن -على سبيل المثال- اختيار نموذج حوض البلقان، السلافي، الذي اعتمد في انفصاله، أو استقلاله، عن الدولة العثمانية على كل من الدين، واللغة، والإقليمية -أو النظرة العرقية حتى نشأت فيه خمس دولٍ- لأن هذا الاختيار لا يعد امتداداً للامتيازات الأجنبية أو ارتقاءً بها فحسب، بل يوحي كذلك بالرغبة في تمزيق العرب أنفسهم إلى دويلات، بالإضافة إلى أن النصارى كما هو معلوم أقلية دينية تعيش منذ مئات السنين في الوسط العربي الإسلامي، وليس لهم أقاليم خاصة أو معزولة يمكن بالتعويل على النموذج السلافي أن يحققوا لها الانفصال عن الدولة العثمانية!

ولو أنهم أثاروا مسألة الاعتماد على الدين في نطاق دعوتهم القومية، لما كان الأثر إلا عزلة في الوسط العربي الإسلامي في بلاد الشام، على الرغم من الأوضاع المتردية للدولة العثمانية .. في حين أن «القومية العربية» التي نبنّوها، والنموذج الأوروبي -اللغوي- الذي اختاروه، يفسح المجال أمامهم للتأثير في هذا الوسط، بل يسمح لهم، بعد انهيار الدولة العثمانية، أو بعد الانفصال عنها، ومن خلال مفاهيم الدولة القومية الجديدة .. باحتلال مواقع القيادة، ورسم ملامح المستقبل العربي على أكثر من صعيد.

القومية واقع وتاريخ

على الرغم من وحدة الأصل الإنساني التي قررتها الآيات القرآنية، فقد قضت حكمة الله تعالى بتقسيم بني آدم إلى شعوب وقبائل . . ثم بتوزيع هذه الشعوب والقبائل أمماً شتى وطرائق مختلفة.

-قال تعالى في مطلع سورة النساء: ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تَساءلونَ به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾.

- وقال تعالى: ﴿ياأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات: ١٣)).

أما «الأمة» فقد وردت في القرآن الكريم بدلالات متعددة منها جماعة المؤمنين عبر عصور التاريخ، قال تعالى: ﴿إنّ هذه أمتكم أمّةً واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[1] (الأنبياء: ٩٢) وأمة المؤمنين بمحمد ﷺ، أو أمة المؤمنين الأخيرة التي نهضت برسالة الإسلام، والتي خوطبت بقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس. . ﴾ (آل عمران: ١١٠) والتي أشار إليها النبي ﷺ، أو نصّ عليها في الوثيقة الدستورية التي أعلنها غداة قيام دولة الإسلام في المدينة، بقوله: «هذا كتابٌ من محمد النبي الأمّي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس . . ».

---

(١) انظر سياق الآية -وكذلك الآية ٥٢ من سورة المؤمنون- في النص القرآني.

فإذا تأملنا آيتي النساء والحجرات، من جهة، ثم قارنا آية سورة الحجرات بهذه النصوص التي وردت في أمة المؤمنين، أو في الأمة الإسلامية، أمكننا أن نوردْ النقاط التالية:

١ - أن هذا التقسيم إلى شعوب وقبائل، أساسه أو الأصل فيه فيما يبدو اللغة أو اللسان، بالإضافة إلى الأصل الواحد، وربما كان أساسه الأعراق والسلالات، نظراً لجذوره الضاربة في أعماق التاريخ.. وربما لم يتأخر طويلاً عن خلق الإنسان.. كما توحي بذلك آية الحجرات: (خلقناكم.. وجعلناكم) وإنْ كانت آية سورة النساء ربما أشارت إلى فاصلٍ زمنيٍ ما، لأن التعبير بها جاء بالرجال والنساء وليس بالشعوب والقبائل.

وهذا ما دعانا في مطلع هذا البحث إلى ربط القومية بالأصل الواحد.. ومن هنا فيما يبدو جاء تعبير الدكتور فروخ رحمه الله «العصبية الجنسية» إشارة إلى أن اللغة وحدها لا تكفي للدلالة على وحدة الأصل[1]، وربما أمكننا القول: إن آية الحجرات أشارت إلى هذا التقسيم اللغوي العرقي إن صح التعبير، أو اللغوي المتجذّر عبر الأعراق والسلالات.

---

(١) فالأرمن على سبيل المثال-وكما يقول د. فروخ- يتكلمون إلى جانب لغتهم: اللغة التركية أو الروسية أو العربية أو الانجليزية، بحسب تشردهم في الأرض. وكان أديب إسحق أحد بلغاء العرب في العصر الحديث، ولكنه وقومه الأرمن ليسوا عرباً ولا روميين ولا أتراكاً، بل هم أعداء الأتراك. ثم إن في شعوب إفريقية وآسيوية شعوباً لا يتكلم أهلها إلا اللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية، ومع ذلك فهم ليسوا إنجليزاً ولا فرنسيين!

٢ - إن هذا التقسيم إلى شعوب متعددة، وقبائل شتى . . واقع وقائم ومستمر: «وجعلناكم» . . وإذا نظرنا إلى التقسيم من طرف المقابلة بين الشعوب من جهة، والقبائل من جهة أخرى(شعب- قبيلة) فقد تحمل آية الحجرات إشارة إلى التمايز بين المجتمعات الإنسانية من حيث طور التكوين الاجتماعي؛ إذ سلّمنا بأن الشعب أكثر تطوراً من القبيلة، وإن كان سياق الآية فيما يبدو لم يأت لتقرير هذا التمايز، ولكنه جاء لتقرير أغراضه وأهدافه في واقع الحياة الإنسانية، أو في حياة الناس الذين خلقوا من نفس واحدة. لأن الآية ربطت هذا الجعل أو التقسيم إلى شعوب وقبائل بقوله تعالى: (لتعارفوا) أي أن الله سبحانه وتعالى لم ينوع بين الشعوب والقبائل، ولم يميز بعضها على بعض بميزات عقلية أو أدبية أو علمية أو صناعية . . إلا لتكمل الإنسانية بعضها بعضا -تأكيداً للأصل الواحد!- لا ليفخر بعضها بذلك على بعض، لأن الفخر بمثل هذه الأمور الفطرية أو الخلْقية -كالجنس أو اللون- أقرب إلى مراحل الطفولة أو المراهقة التي يجب على البشرية أن تتجاوزها، أو كان عليها أن تتجاوزها من حين نزلت هذه الآية (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) لأن الآية الكريمة تشير بعد ذلك إلى ميزان التفاضل الحقيقي، وأنه ينبع من الأعمال الكسبية، ومن الإرادة الحرة، والعزيمة النافذة! التي هي في متناول جميع الشعوب والأقوام؛ قال تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أي إن ميزان التفاضل لا ينبع من تلك الخصائص التي امتاز بها شعب من الشعوب أو قبيلة من القبائل. . لأن ذلك التفاضل أريد به التأكيد على وحدة المجتمع الإنساني وتعارفه، لا تناكره واختلافه! كما أن لكل فضيلة ضريبتها الخاصة. . لأن المزايا الإنسانية تكليف وأعباء لامتع وأزياء ! ولهذا خوطب النبي صلى الله عليه وسلم، وقد بُعث عليه الصلاة والسلام من «العرب» ونزل القرآن بلغتهم . . بقوله تعالى: ﴿وإنّه لذكرٌ لك ولقومك وسوف

تُسألون﴾ لأن دور العرب في القرآن الكريم وقد أطلوا به على العالم رسالة إنسانية ورحمة للعالمين دور التبليغ والجهاد والهداية، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.. بل دورهم فيه، مع المزايا التي خُصّوا بها دور التكليف الأشد والجهاد الأفضل.

٣ - إن هذا التقسيم إلى شعوب وقبائل ليس هو الأصل في مفهوم الأمة.. أو ليس هو الأصل الثابت.. بمعنى أنه ليس من الضروري أن يطابق مفهوم الشعب أو القبيلة-أو القومية- مفهوم الأمة.. على الدوام! وإذا وجد مثل هذا التطابق بين المفهومين في بعض مراحل التاريخ، فليس من اللازم أن يبقى هذا التطابق على الدوام. ويمكن القول في هذا السياق إن رسالات جميع الأنبياء السابقين التي كانت موجهة إلى«أقوامهم» حيث كان نداء كل نبي منهم أو شعاره «ياقوم».. كانت رسالات قومية بهذا المعني.. فإذا ذكرنا أن الله سبحانه وتعالى لم يبعث رسولاً إلا بلسان قومه.. أدركنا المكانة التي تحتلها «اللغة» في بناء القومية، أو في التقسيم القرآني السابق إلى شعوب وقبائل.
أما في نطاق حديثنا هنا عن العروبة والإسلام، أو عن رابطة القومية العربية، ورابطة العقيدة الإسلامية.. فإن مفهوم الأمة اتسع ليشمل جميع المؤمنين، أو جميع الداخلين في الإسلام من جميع الشعوب والأقوام، أو القوميات.
ومعلوم أن خطَاب النبي صلى الله عليه وسلم كان موزعاً بين (ياأيها الناس) و(ياأيها الذين آمنوا) لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث للناس كافّة.. فالنداء الأول دعوة إلى الإيمان، والنداء الثاني دعوة إلى التكليف، والنهوض بتبعاته في مجتمع المؤمنين وفي «أمتهم» ودولتهم. ولم يأت الخطاب بـ «ياقوم» على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مرة واحدة في الكتاب العزيز.

هذه الأمة التي خوطبت بنداء التكليف، هي التي وصفها الله تعالى بأنها الأمة الوسط، وجاء التعبير القرآني -المعجز- عن هذا الوصف بقوله تعالى (جعلناكم) أي بالفعل ذاته المستعمل في تقسيم(الناس) إلى شعوب وقبائل في آية الحجرات. قال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً). وهي كذلك الأمة التي قال الله تعالى في شأنها(كنتم خير أمّة أُخرجت للناس). وهي الأمة الإسلامية التي يلتقي أبناؤها على وحدة العقيدة والإيمان، وعلى أخوّة الإيمان والاعتقاد . . وليس على وحدة الأصل والنسب، أو اللغة والعرق.

ومعلوم أن هذه الأمة كانت قاعدتها الأولى من العرب. . ولكن هؤلاء العرب خرج منهم أبوجهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، وأخوه العاص، وأبولهب بن عبد العزّى، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وأمية بن خلف، وجميع من لم يدخل من العرب في الإسلام . . قاصيهم ودانيهم، سُوقتهم وأصحاب الشأن في ذلك سواء! في الوقت الذي انضم إلى هذه الأمة في وقت مبكّر سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، وغيرهم.

وغني عن البيان أن هذا المفهوم العقائدي أو العقدي للأمة الإسلامية لا يلغي الانتماء القومي أو القبلي ولا يعدو عليه، بوصف هذا الانتماء من أوضاع الخلق والتكوين، فسوف يبقى الناس ينقسمون إلى عرب وفرس وأتراك . . إلخ، بل لا يؤثّمه أو يحرّمه ما دام هذا الانتماء لا يعدو على الأخوة الإسلامية، أو يناقض مفهوم أمة الإسلام الواحدة، وفي هذا يقول د. كمال أبو المجد: «إن الإسلام بنصوصه ومبادئه لا يستبعد الولاء القومي ولا يؤثمه ما دام ذلك الولاء لا ينتزع المسلم من أخوته الإسلامية، ومن ولائه الأول لأمة المسلمين . . ذلك أن تعاطف الفرد مع قومه، وارتباطه الوجداني

بوطنه أمرٌ فطريٌ لا يرد عليه حكم تكليفي»[1].

٤ - وها هنا ملاحظة تحتاج إلى بيان، وهي أن دعاة الفكر القومي خلطوا بين مفهومي الأمة والقومية، أو سوّوا بينهما على الدوام أو على أقل تقدير، فتحدثوا مطولاً عن عوامل تشكيل الأمم.. كالأرض، والدم أو العرق، والاقتصاد، والمصالح المشتركة.. وركزوا من بين هذه العوامل على كلٍ من اللغة والتاريخ.. في الوقت الذي كان حديثهم في الواقع منصباً على عوامل تشكيل القوميات.

ويعود السبب في هذه التسوية، أو هذا الخلط، إلى غفلتهم عن أثر التطور في العوامل المكوّنة للأمم! بمعنى أن عوامل نشأة الأمم ليس من الضروري أن تبقى واحدةً في جميع العصور. ويدلنا الاستقراء التاريخي على أنها لم تكن كذلك بالفعل. وقد أشرنا قبل قليل إلى وحدة العقيدة والدين، والفكر والثقافة التي أقام عليها الإسلام وحدته أو «أمته» في التاريخ.

وإذا أردنا أن نرصد اتجاه التطور في حركة هذه العوامل.. للاحظنا أن الروابط المادية تُخلي مكانها عصراً بعد عصر للروابط والعوامل المعنوية الثقافية والفكرية.. الأمر الذي دعا إليه الإسلام في عصر مبكر، والذي يؤوب إليه الناس اليوم في أعقاب عصر القوميات الأوروبي.. وبعد ارتقائهم في سلّم الحضارة الإنسانية أو كلّما ارتقوا في أسباب هذا السُّلَّم.

وفي هذا يقول أستاذنا محمد المبارك رحمه الله–بعد أن عرّف «الأمة»

---

(١) جريدة القبس الكويتية، ص١١ العدد رقم ٦٠٠٩ تاريخ٢/ ٢/ ١٩٨٩م.

بأنها الوحدة الاجتماعية المنسجمة أو المشتركة في أسسها الفكرية وعواطفها واتجاهاتها- : «إن الأمة ليست كياناً ثابتاً جامداً، بل هي متطورة، فقد مرت بمرحلة كانت الأمة فيها قبيلة، ثم كانت مرحلة أخرى غدت فيها الأمة قوماً أو قومية. وتتجه البشرية إلى تكوين أمم من نوع جديد، وهي التي تنصهر فيها مجموعة من الشعوب في إطار واحد تنظمها فكرة عقائدية واحدة ونظم تشريعية واجتماعية واحدة، بل يكون لها تنظيم سياسي موحد»[1].

وحتى لو نظرنا إلى فكرة التطور هذه، بعيداً عن المصطلحات والتعريفات، فإن شعور الجماعة بكيانها، أو وعيها الذاتي يمر بهذه المراحل، فيكون قبلياً في أول مراحله، ثم يكون قومياً إذا شمل قومية كاملة، ثم يكون عقائدياً قد يشمل عدة قوميات تربطها روابط عقيدة شاملة. كالمجتمع الليبرالي الغربي، أو كالمجتمع الإسلامي.

قلت: وفحوى ذلك جميعه أن التطابق بين مفهومي الأمة والقومية يمثل مرحلة تاريخية سابقة، وأن عودته إلى الظهور مرة أخرى يعني انتكاساً ورجوعاً إلى عصر سابق، أو إلى الوراء وليس خطوة إلى الأمام. ولهذا كان أحد ظواهر عصر الركود في المجتمعات الإسلامية.

ويمكن ملاحظة تاريخية هذا التطابق، أو الاستدلال عليه -من وجهة نظرنا- عن طريق الجمع بين نداء «ياقوم» الذي جاء على لسان جميع الأنبياء السابقين -على محمد صلى الله عليه وسلم- وقوله تعالى: (وإنْ من أمّة إلا خَلا فيها نذير) حيث وصف كل قوم من أولئك الأقوام بالأمّة.

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر، ص٣٣ دار الفكر بدمشق، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.

وأخيراً يلاحظ الأستاذ المبارك -رحمه الله- أننا لو رجعنا إلى التاريخ لتجلّي لنا أن الشعوب الإسلامية كانت تؤلف في فترة من تاريخها أمة واحدة، وذلك في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية. وبعبارة أدق يقول أستاذنا رحمه الله: «إن الشعوب الإسلامية كانت تؤلّف أمة بالمعنى التام خلال عدد من القرون التي أعقبت ظهور الإسلام، فقد امتزجت الشعوب الإسلامية في مجال العلم والسياسة والإدارة والاقتصاد والمواصلات وسائر مجالات الحياة امتزاجاً عجيباً، وكان الشعور بالانتماء إلى الوطن الإسلامي والثقافة الإسلامية أقوى بكثير من شعور الانتماء إلى البلد والقومية، فنجد في الفقهاء والمحدّثين، وفي الأطباء والفلاسفة، وفي الحكام والقضاة: العربي والهندي والفارسي والكردي والتركستاني البخاري، ملتقين على صعيد الثقافة الإسلامية والعقيدة الإسلامية، والمفاهيم والعادات الإسلامية».

والذي نضيفه هنا هو أن وحدة الأمة الإسلامية بقيت قائمة أو مقررة حتى في العصر الذي شهد توزع هذه الأمة على عدة دول أو كيانات سياسية! لأن تعدد الدول لم يلغ أو لم يناقض وحدة الأمة! لأن ثقافتها وفلسفتها التربوية والتعليمية، والشريعة التي تحكمها كانت -أو بقيت- واحدة! ولأن حركة انتقال العلماء والصنّاع وأصحاب المهن والفنون المختلفة، فضلاً عن سائر الناس، بقيت مكفولة على الدّوام، وفي هذا يقول الأستاذ العلامة «آدم متز» -صاحب كتاب عصر النهضة في الإسلام-: إن المسلم كان ينتقل من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي آخر ولو اختلفت الدولتان بسهولة أكثر بكثير مما كان يجده الألماني فيّ القرن الثامن عشر للميلاد في الانتقال من مقاطعة ألمانية إلى مقاطعة أخرى.

مقومات القومية

على الرغم من هذا الخطأ أو الخلط الذي وقع فيه دعاة الفكر القومي، فضلاً عن التجاوزات الحادّة التي سنخصص لها الفقرة التالية، فإننا نقبل هنا بالطرح الذي قدموه حول عوامل تشكيل الأمم -أو القوميات!- لنثبت من خلال التحليل العلمي لهذه العوامل، أنها سوف تعود بنا مرة أخرى إلى وحدة الفكر والاعتقاد، وأنها لا تناقض أخوة الإيمان التي عقدها الله تعالى بين جميع المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، أو بين جميع الشعوب الإسلامية على اختلاف قومياتها وأعراقها!

لقد وقف دعاة القومية العربية عند عاملي اللغة والتاريخ بوجه خاص، ونازع معظمهم في أثر سائر العوامل الأخرى. وفي هذا يقول ساطع الحصري: «إن أسّ الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو وحدة اللغة ووحدة التاريخ. لأن الوحدة في هذين الميدانين، هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة، وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى.» ويضيف قائلاً: «ولكن لا الدين، ولا الدولة، ولا الحياة الاقتصادية، تدخل بين مقومات الأمة الأساسية» ثم يقول: «وإذا أردنا أن نعيّن عمل كل من اللغة والتاريخ في تكوين الأمة قلنا: اللغة تكوّن روح الأمة وحياتها. التاريخ يكوّن ذاكرة الأمة وشعورها»[1].

---

(١) ما هي القومية لساطع الحصري، ص٢١٠ نشر مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٥م، بيروت.

ونحن بدورنا نقف عند هذين العاملين، لبيان أنهما لا يفصلان الشعب العربي عن سائر الشعوب الإسلامية.

١ - **وحدة اللغة:** إن الشعوب الإسلامية -غير العربية- ليست خارج إطار هذه الوحدة اللغوية، لأن هذه الوحدة إنما تتمثل -بحسب عبارة الأستاذ الحصري نفسه- «في وحدة المشاعر والمنازع . . ووحدة الثقافة» أو باختصار: في وحدة الثقافة، أو في الثقافة الواحدة التي تعبّر عنها هذه اللغة. . بوصف اللغة وعاء للفكر والحضارة والتراث والتاريخ . . واللغه العربية بهذا الاعتبار وعاء للفكر والحضارة الإسلامية منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم انطلاقاً من مصدري الثقافة العربية الإسلامية الخالدين (الكتاب والسنّة) مروراً بعد ذلك بكل ما دوّن بهذه اللغة في التفسير والتاريخ، والتراجم، والأدب، والفلسفة، والفن . . إلخ. ولهذا فإن ما يدعي الآن بـ «الثقافة القومية» -بحسب عبارتهم- هو ما دوّن بالعربية في ظلال الإسلام! والشعوب الإسلامية -غير العربية- لا تختلف معنا في مضمون هذه الثقافة ، وإن اختلفت في بعض الأحيان في أداة التعبير عنها!

وهذا التعبير الذي جاء عبر لغات تركت العربية أثرها فيها، أو شاركت لغة القرآن في صنعها أو استحداثها بين ظهرانيهم -حتى باتت تدعى لغات إسلامية- ليس فيه خروج عن وحدة الثقافة المشار إليها ولا تهديد لها! وربما كان ارتباط هذه الشعوب بالثقافة العربية الإسلامية يفوق ارتباط الكثير من أبناء الدعوة القومية العرب أنفسهم، وأعني بهم أولئك الذين أخذوا بسبب من العلمانية والتغريب!

وفي وسعنا أن نلاحظ أن اللغة العربية ليست مجهولة الأهمية أو المكانة لدى هذه الشعوب، وبخاصة أنها لغة القرآن والإسلام، وأن تعلمها من الدين كما قال علماؤنا القدامي، قال ابن تيمية رحمه الله: «فإن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلّمين به؛ لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان. وصارت معرفته من الدين، وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في جميع أمورهم»[1].

وعلينا أن نذكر هنا أن التعريب كان لهذا جزءاً لا يتجزأ من رسالة الإسلام، وأن تخلف هذه الحركة عن انتشار الإسلام بعد المد الإسلامي الأول، كان لأسباب عارضة.

يقول الأستاذ ساطع الحصري: إنه يجب «أن لا يغرب عن البال أن العرب قبل الإسلام كانوا قليلين، كماأن مواطنهم كانت محدودة نسبياً، فإن البلاد التي تستحق النعت بالعربية، كانت منحصرة في الجزيرة العربية، وبحافات بعض البلاد المجاورة لها، وأما حدود العروبة إلى سائر أنحاء العالم العربي الحالي فقد تم بفضل الفتوحات العربية التي سارت تحت راية الإسلام.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم.

«فإن معظم أقسام العراق والشام، وجميع أنحاء إفريقية الشمالية-من مصر والسودان إلى المغرب الأقصى- كانت غير عربية، ولم تستعرب إلا بعد الإسلام.

وليس معنى ذلك أن العرب بقوا منطوين على أنفسهم في جزيرتهم على كر الأزمان، بل إنهم كانوا ينزحون من الجزيرة إلى البلاد المجاورة، إلا أن قبائلهم التي نزحت قبل حمل رسالة القرآن «كانت تفقد صلاتها مع موطنها الأصلي، وتتعرض إلى سلسلة من الأحداث والتطورات التي تنسيها ماضيها، وتؤدي إلى اندماجها بسكان البلاد التي تستوطنها».

ويقول: «ولكن الموجة البشرية التي تدفقت من الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام قد امتازت عن سابقتها من هذه الوجوه امتيازاً هاماً جداً، إنها لم تفقد صلتها بمنبعها الأصلي، بل ظلت وثيقة الاتصال به من الوجهتين المادية والمعنوية، وفضلاً عن ذلك: استطاعت أن تنشر لغتها في مواطنها الجديدة، وانتهت إلى تعريب سكان أقطار واسعة من البلاد المفتوحة تعريباً تاماً».

قلت: وإن من أهم الأمور التي يجب اعتبارها في هذا الموطن أن القرآن الكريم قد تُعبّد المسلمون بتلاوته بألفاظه وحروفه، لأن التحدي بالقرآن -في قضية الإعجاز- قد وقع بلفظه ومعناه، ولهذا لم يكن القارئ لترجمته قارئاً للقرآن، وعلى هذا: لا يترتب على تلاوته هذه أي أثر من آثار الثواب الذي وعد به النبي صلى الله عليه وسلم قارئ القرآن، وهو أن له بكل حرف عشر حسنات -كما جاء في الحديث- قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»، ومعني ذلك

أننا نملك معادلتين اثنتين، تنص الأولى على ثواب قارئ القرآن وتحضّ المسلمين -كل المسلمين- على تلاوته وتدبره. وتنص الثانية على أن الترجمة لا تعتبر قرآناً، كما أجمع على ذلك العلماء في جميع العصور. وبهذا يغدو التعريب بالقرآن وتحت رايته جزءاً لا يتجزأ من رسالة الإسلام.

أما تخلّف حركة التعريب عن انتشار الإسلام في بعض المواطن فإن لها أسباباً تاريخية لا مجال هنا للإفاضة في الحديث عنها، ولكنه في وسعنا أن نشير إلى أن انتشار الإسلام الذي تم في جزائر الهند الشرقية ووصل إلى أقاصي أندونيسيا قد تم بجهود أفراد من التجار الذين كانوا يرحلون من جنوب الجزيرة العربية بحراً بالسفن الشراعية، وإن هؤلاء مع بعض الدعاة القلائل كانوا قادرين على دعوة الناس إلى الإسلام بعلمهم وقولهم، ولكنهم لم يكونوا يملكون القدرة على تحويل الناس عن لغة معاملتهم وخطابهم .. هذا بالإضافة إلى ما تم في هذه البلاد -مثلا- من تعريب شامل في معاهد العلم الديني والدراسات الإسلامية بعد ذلك.

كما أن انتشار الإسلام في بعض المراحل تم على أيدي المغول وعلى أيدي السلجوقيين والعثمانيين، يعيد حملهم لرسالة القرآن، وقبل أن يتعلموا هم لسانه العربي المبين!

أما البلاد التي دخلها الإسلام في زمن الفتوح الأولى، فإن اللغة العربية لم تنحسر عنها، والمثال الرئيس هنا هو بلاد فارس، إلا بعد بضعة قرون على التحقيق، وبعد الحركات الشعوبية والانفصالية التي قادها حكام طامحون وقاوموا في تيارها ما يستطيعون مقاومته من عوامل الأسلمة والاستعراب .. على أن التعبير هنا بالانحسار لا يبدو أنه تعبير دقيق، فإن هذا لم يتم حتى

في عصور الاستعمار الحديث!

يقول طه حسين: «وما كاد العرب بعد الفتوح يدخلون في بلاد فارس ويستقرون فيها حتى تعلم الفرس هذه اللغة الجديدة، وغلبت على ألسنة كثير منهم وأقلامهم، وما أكثر الفرس الذين شاركوا في إنشاء علوم اللغة العربية وتدوينها، وما أكثر الفرس الذين استأثروا ببعض هذه العلوم حتى أصبحوا كأنهم أصحابها، وكلنا يعلم أيضاً استئثار الفرس بتدوين علوم البلاغة العربية».

ويقول الدكتور طه أيضاً: «ومع أن الفرس قد أحبوا لغتهم الفارسية ونظموا فيها الشعر منذ أواسط القرن الرابع للهجرة، فقد ظلت اللغة العربية لغة العلم والفلسفة عندهم إلى أواخر القرون الوسطى(!!)، وانظر إلى كتب ابن سينا والتفتازاني والسيد الجرجاني والطوسي وغيرهم. وكل هذا بفضل القرآن الكريم، فبفضله انتشر الإسلام»[1].

والذي نراه -بهذه المناسبة- في أمر اللغات الكثيرة التي تتخاطب بها الشعوب الإسلامية اليوم، أنها لا تشكل خطورة على الثقافة العربية الإسلامية ولغة القرآن -بين ظهرانيهم- إلا حين تنتقل من كونها أداة للخطاب في السوق والحياة اليومية، إلى جعلها «لغات قومية» لها أدبها وحضارتها وتاريخها الذي يفصلها عن أدب العربية وحضارتها وتاريخها. أما أن تبقى هذه اللغات أقرب إلى اللهجات أو أقرب إلى العامية المختلفة المنتشرة في البلاد العربية ذاتها، ليست ذات مدلول حضاري وثقافي خاص، أو مغاير

(١) من مقدمة الدكتور طه حسين ، رحمه الله، لكتاب: القرآن الكريم واللغة العربية للشيخ أحمد حسن الباقوري. رحمه الله، ط. : دار المعارف بمصر.

لمدلول لغة القرآن . . فذلك ليس فيه خطورة على وضع الشعوب الإسلامية بوصفها المجال الحيوي والطبيعي ومنطقة انتشار اللسان العربي في العالم، أو بوصفها البلاد التي تلتقي مع البلاد العربية في دائرة الثقافة والحضارة الإسلامية، وهذا الموضوع على كل حال جدير بأن يفرد بالبحث.

ولا يحسن إنهاء هذا الحديث الموجز عن حركة التعريب التي تمت في ظلال الإسلام، وتحت راية القرآن الكريم، قبل الإشارة إلى أنه لا يصح تفسير هذا المد الهائل الذي أصابته اللغة العربية بغير عوامل جلال القرآن ورسالته، وعامل حب هذه اللغة وتفضيلها على اللغات المحلية الخاصة السابقة لدخول أصحابها في الإسلام. ولهذا فإن من فساد الرأي ما ذهب إليه بعض المغرضين من أن اللغة العربية اعتمدت في انتشارها على السلطة الحاكمة، أو السلطة الغازية، لأن هذه المنطقة غزيت قبل الإسلام وأيدت لغة الغازي بالسلطة السياسية، لكن الشعوب المغلوبة رفضتها متشبثة بتراثها ولغتها، وبقيت متشبثة بها حتى دخول الإسلام، ثم تم هذا التخلي بعد ذلك في ظل القرآن، وغير بعيد في الوقت نفسه عن قوانين علم الاجتماع، تقول الأستاذة الفاضلة الدكتورة عائشة عبد الرحمن:

«ولم يكن موقف الشعوب من لغة القرآن أن فرطت في ألسنتها فجأة، أو أُكرهت على التخلِّي عنها بحد السيف، كما ذهب المؤرخ فيليب حتِّي في تاريخه الكبير، ولا صدرت قوانين ملزمة به من الدولة، وإنما مر الَصراع اللغوي في مراحله الطبيعية التي تحكمها سنن الاجتماع، فبدأ بمرحلة عزله تفاوتت بين قطر وآخر باختلاف طبيعة الإقليم قرباً وبعداً، وميراثه الفكري

والحضاري، ومسلكه الصوتي واللغوي . .»[1] ثم تقرر أن هذه «المرحلة اللغوية لم تطل، والقرآن الكريم هناك يفتح للعربية قلوب من أسلموا».

وتقول في التعقيب على انتصار العربية على اللغات الأجنبية المفروضة على المنطقة -الرومانية واليونانية والفارسية والبيزنطية- فم في مواجهتها للغات الوطنية:

«وكان من المتصور أن تجمع هذه الشعوب بين العربية لغةَ دين، وبين لغاتها القومية التي صانتها طويلاً ضد الغزو، لغة حياة، ولكن لم يمضِ جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب أمة واحدة، هجرت إليها ألسنتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك، كما لم يكرهها مكره على أن تتخلى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الإسلام، بل تركت لغة العرب تخوض معركتها مع لغات الشعوب الداخلة في الإسلام»[2].

وفي جميع الأحوال، فإن اللغة العربية بوصفها لغة الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية، حطمت حاجز الأجناس والسلالات، كما تجاوزت حاجز اللسان واللغات! حتى استأثر الفرس بتدوين علوم البلاغة العربية! بحسب عبارة الدكتور طه حسين رحمه الله، كما أن معظم القرّاء و«رواتهم» كانوا من الأعاجم، أو من أصل أعجمي، مع الإشارة إلى دلالة القراءات القرآنية على المزايا والقضايا الصوتية واللغوية والنحوية في اللسان العربي. ويكفينا تذكر «سيبويه» إمام النحو، وشيخ العربية! لقد انتظمت الثقافة

---

(١) كتاب : لغتنا والحياة. وانظر فيه بحثاً قيماً عن التعريب الذي تم تحت راية القرآن الكريم.

(٢) المصدر السابق.

الإسلامية عباقرة من جميع الشعوب بحيث يصعب علينا الآن أن ننسب «تراث» هذه الثقافة إلى شعب أو قبيلة بعينها، أو إلى جنس من الأجناس بعينه . . وكذلك صار من الصعب علينا أيضاً أن نميّز «اللسان» الخاص بهؤلاء العباقرة والعلماء والأفذاذ، وقد عبّروا جميعاً عن هذه الثقافة بلغة كتابها الكريم . . القرآن . . بغض النظر عن شعوبهم وقبائلهم «بل باتوا يتغنون بشرف هذه اللغة، وبأنها أرقى اللغات»[1] انطلاقاً من الشرف والخلود اللذين أضفاهما عليها القرآن الكريم حين نزل بها في خاتمة الرسالات، وحين تكفل الله تعالى بحفظه: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون﴾.

ونودّ أن نؤكد هنا على أن ثبات اللغة العربية، ودوام حياتها مرهون بالقرآن الكريم، ولا يمكن نسبة هذه الحياة لغير القرآن على الرغم من الفوارق -الهامشية- بين تاريخ اللغة اللاتينية، التي تفرعت إلى لغاتٍ شتى، وتاريخ اللغة العربية.

فإذا تذكرنا دور اللغة في القومية، بوصفها -أي القومية- انتماء على أقل تقدير أدركنا أن الدعوة إلى القومية، ما كان لها أن توجد، أو أن يكون لها ذكر لولا القرآن الكريم سواء أبقيت في نطاق الانتماء والاعتزاز، أم بلغت حد التعصب والانغلاق!

هل نقول بهذه المناسبة إن عودة اللغة العربية اليوم إلى هذا المقام مرة أخرى مرهون بالدعوة الإسلامية، وليس بالدعوة القومية؟ نعود فنقول: لقد خرج الإسلام باللغة العربية إلى دائرةٍ ومحيطٍ أوسع من الدائرة العربية

---

(١) من بحث لأستاذنا الدكتور يوسف العش رحمه الله، منشور في مجلة حضارة الإسلام، ص٤٧، عدد شوّال ١٣٨٠ هـ دمشق.

ومحيطها. . فأضحت لغة عالمية لساناً وفكراً، ومصطلحات ومضامين! وبهذا لم تعد ملكاً للعرب وحدهم! بل إنهم لو أرادوا ذلك لما استطاعوا!! ولهذا فإن الطرح القومي الذي يفرّق بين العربية والإسلامية «نظراً لوجود عرب غير مسلمين، ومسلمين غير عرب» -بحسب عبارة ساطع الحصري- لم يعد وارداً، بل ليس بصحيح، لأنه يمثل نظرة سطحية وتناقضاً مع وحدة الثقافة التي تحدث عنها هو نفسه وسائر أصحاب الفكر القومي.

ونضيف أخيراً أن بعضهم حاول أن يعود بهذا الاتساع الذي أصابته العربية في ظل الإسلام إلى العربية ذاتها، فجعلها من قوميتها أو من صورها القومية عبر التاريخ. أو بعبارة أخرى: حاول أن يعود بالدائرة الإسلامية إلى الدائرة العربية، بدعوى أن العربية «لسان»هذه الدائرة الإسلامية! وهكذا تصبح جميع إنجازات الحضارة الإسلامية إنجازات عربية، وتصبح القومية العربية ضاربة الجذور في أعماق التاريخ. . فالحضارة حضارتها، والعظماء والقادة والمفكرون عظماؤها ومفكّروها . . حتى إذا تم هذا القلب للأوضاع والحقائق، وفُصمت -في الوهم وفي الصفحات والأوراق!- هذه الدائرة القومية عن الإسلام والثقافة الإسلامية. . رُبطت بعجلة ثقافات أخرى مستوردة من الشرق أو الغرب، حتى وُضعت الكتب والمناهج فيما سمّي «الثقافة القومية الاشتراكية» وكأن الاشتراكية هي الدائرة التي تلي الدائرة (القومية) -العربية طبعاً- وتتصل بها، وليس الإسلام أو الدائرة الإسلامية! وأعجب ما في هذه الثقافات المستوردة أنها إقليمية المنزع والهدف وظروف النشأة، كما سنوضح ذلك في مبحث العلمانية القادم.

٢ - **وحدة التاريخ:** يمثل هذا العامل في الطرح القومي، كما أشرنا قبل قليل، «ذاكرة الأمة وشعورها» ولا خلاف على أن تشكيل هذه الذاكرة المشتركة

والشعور الواحد، إنما يتم من خلال الوقوف أمام أحداث التاريخ ووقائعه، ومنجزاته وإحباطاته! حيث يشعر كل جيل من الأجيال بالاعتزاز والافتخار والزهو والانتماء أمام عصور الأزدهار والتقدم، وأمام الانتصارات والبطولات والإنجازات التي حققها الآباء والأجداد، أو حققتها الأجيال السابقة في جميع ميادين الحياة! كما يشعر بالانكسار والحسرة والألم أمام عصور الركود والانحطاط، والفرقة والانقسام، وأمام الهزائم والانتكاسات وانطفاء الفاعلية والتأثير! . . فيتولد من ذلك جميعه آلام وآمال واحدة. . وذاكرة واحدة وشعور واحد. الأمر الذي يعدّ -دون ريب- بالغ الأثر في حاضر الأمة ومستقبلها! أو في فهم الحاضر، و التعامل مع المستقبل.

والسؤال الآن: كيف يفعل التاريخ فعله هذا في إذكاء الشعور؟ هل يفعل ذلك على نحو الي! أي بمجرد مرور أحداثه ووقائعه بين الآباء والأجداد أو على الآباء والأجداد؟ أو بعبارة أخرى: هل يكفي ذلك لتوليد الشعور المشترك والذاكرة الواحدة بالألم والأمل؟ أم إن هذا الشعور في الحقيقة وليد النظرة الواحدة لأحداثه، والتفسير الواحد أو المتفق لوقائعه؟ بحيث إذا اختلف هذا التفسير ، وتعددت تلك النظرة . . انقلب التاريخ إلى عامل تفرق وتمزيق . . فلم تعد هنالك ذاكرة واحدة أو شعور مشترك . . بل شعوران متناقضان . . أو اختلاف يؤدي إلى القطيعة والانقسام؟

يرى أستاذنا محمد المبارك رحمه الله، الذي قدّم نحواً من هذه التساؤلات، أن التاريخ لا يفعل فعله المشار إليه إلا في الحالة الثانية حين تتحد النظرة، ولا يتناقص التفسير! وغني عن البيان أن هذه النظرة وليدة الفكر الواحد والعقيدة المشتركة. وهكذا نجد أنفسنا أمام تاريخ واحد للمسلمين، أو للأمة الإسلامية . . لا مجال فيه لقطع تاريخ العرب -من خلال التوهم

القومي السابق- عن تاريخ الشعوب الإسلامية الأخرى، لأن عقيدتهم الإسلامية الواحدة، وثقافتهم المشتركة جعلتهم يقرؤون التاريخ قراءة مشتركة ، وينظرون إلى أحداثه نظرة واحدة . . ويتعاطفون مع أبطاله، ويقدّرون صانعيه على نحو واحد، أو مشترك.

وأبرز ما يجب الإشارة إليه من آثار هذه النظرة الواحدة: اشتراكهم جميعاً في الانتماء إلى التاريخ الإسلامي الذي يبدأ منذ دخول أسلافهم في الإسلام . . بل يمتد إلى تاريخ الإسلام نفسه، أي إلى لحظة ظهور الإسلام وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم في جزيرة العرب، وما كان من أمر سيرته الشريفة وحياته مع قومه، في حين ينظرون إلى التاريخ السابق على دخولهم في الإسلام على أنه «تاريخ جاهلي» أو تاريخ آبائهم الجاهليين . . الذي لا يعتزون بالانتماء إليه، ولا يثير فيهم آلاماً أو آمالاً، أو روحاً قومية مناقضة أو مفرقة، أي إن موقفهم من تاريخ قومهم، أو«تاريخهم القومي» يماثل موقف العرب المسلمين من هذا التاريخ!

بل لعل انتماء الشعوب الإسلامية -غير العربية- إلى التاريخ العربي الإسلامي، أو تاريخ الأمة الإسلامية، وارتباطها به، أن يكون أوثق وآكد في بعض الأحيان . . إذا ذكرنا الحاجز الذي عبرته هذه الشعوب حتى ارتبطت بهذا التاريخ، والمتمثل في الهزيمة التي لحقت بالأسلاف أمام جحافل العرب المسلمين عندما فتحت بلادهم! إن المسلم الهندي أو الفارسي الذي يفرح لاندحار أجداده أمام هذه الجحافل لأن هذا الاندحار هيّأ له فرصة الهداية إلى هذا الدين -ولو انتصر أجداده أو قومه لربما بقي على جاهليته- ارتبط مع العرب في التاريخ، كما التقى معهم من قبل في لغة القرآن، يقول العلامة مسعود الندوي، كبير علماء شبه القارة الهندية: «وإذا كنا نأسف على شيء ،

فإنما نأسف على أن بلادنا لم تتشرف بأقدام الفاتحين الأوائل من الصحابة»![1].

خلاصة وتعقيب:

لا مجال -إذن- لفصم عرى التاريخ العربي عن التاريخ الإسلامي . . حتى من خلال الفكرة القومية والطرح القومي السابق، كما وجدنا أنه لا مجال -من خلال هذه الطرح نفسه- لفصم اللغة العربية عن الثقافة الإسلامية . . أو العكس نظراً للارتباط المصيري والنهائي القائم بينهما من خلال القرآن الكريم، عماد اللغة العربية، وحافظها، وأساس الثقافة الإسلامية وعمادها في الوقت نفسه، وكما شرحناه وحلّلناه قبل قليل.

إن المقص السحري الذي حاول بعض أصحاب الفكر القومي أن يمرّوا به على التاريخ العربي الإسلامي وعلى الثقافة العربية الإسلامية . . لم ينجح من فصم العربي عن الإسلامي . . أو في فصم العلاقة الدائمة بين العروبة والإسلام.

والخلاصة: أن هذين العاملين -اللغة والتاريخ- إنما يفعلان فعلهما، ويحدثنان أثرهما في بوتقة العقيدة، أو من خلال الثقافة المشتركة والفكر الواحد، والنظرة الواحدة إلى الوقائع والأحداث.

---

(١) تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، طبع دمشق. وانظر رسالة للأستاذ السيد أبي الحسن الندوى ، بعنوان: موقف المسلم إزاء آبائه الجاهليين.

ولا مجال للارتياب في أن ذلك كله إنما يتحقق في رحاب الإسلام، وفي ظل أخوة الإيمان والاعتقاد(إنما المؤمنون إخوة) أو في ظل الثقافة العربية الإسلامية. ونخشى أن تضيع العروبة والعربية والقومية خارج هذا النطاق. !

تجاوزات الفكر القومي

نشير أولاً إلى أن حديثنا في هذه الفقرة منصبٌ على أبرز التجاوزات الفكرية، أو على صعيد النظر والفكر، دون الدخول في الحديث عن تجاوزات أصحاب هذا الفكر على صعيد التطبيق . . ليس لأن هذا خارج عن حدود هذه الدراسة فحسب، بل لأن هذه التجاوزات الحادّة - التي وصلت إلى أشد صور البطش والإرهاب- لا يمكن نسبتها إلى القومية بمفهومها الذي عرضنا له وحلّلناه قبل صفحات.

ونقتصر هنا على الحديث عن التجاوزات الفكرية التي شكّلت ملامح الفكر القومي، وبخاصة تلك التي بلغت حداً سافراً في مناقضة الإسلام والثقافة الإسلامية، إمّا بسبب تأثر أصحابها ببعض المقولات الأوروبية عن «الدين» أو لأي سبب خاص آخر! وبغض النظر في جميع الأحوال عن مدى الإصرار على بعض هذه المقولات، أو مدى التراجع الذي تم عن بعضها الآخر في الفكر القومي المعاصر.

١- تاريخية الإسلام:

أول هذه التجاوزات الحادّة: إضفاء الصّبغة (التاريخية) على الإسلام، بعَدِّه مرحلة ماضية من تاريخ الأمة العربية، فالقومية هي الأصل أو الأساس، أو هي الفكرة الكلية الشاملة والممتدة، والإسلام جزء من هذه القومية، أو صورة من صور تعبير القومية عن نفسها، وهو بهذا الاعتبار لا يعدو أن يكون تجربة عربية، وإن كان تجربة حقبة زاهية من حقب التاريخ العربي، غير أنه ليس التجربة الأخيرة التي لا تعقبها تجربة أخرى ناسخة أو

معدّلة!! وبغض النظر عن مضمون آخر هذه التجارب المزعومة أو التي يجري التبشير بها في هذا السياق التاريخي، مما سنشير إليه في النقطتين الأخيرتين من هذه الفقرة! يقول ميشيل عفلق: «الفكرة القومية المجردة في الغرب منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين! لأن الدين دخل على أوروبة من الخارج فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها، وهو خلاصة عن العقيدة الأخروية والأخلاق، لم ينزل بلغاتهم القومية، ولا أفصح عن حاجات بيئتهم، ولا امتزج بتاريخهم. في حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب، ولا هو أخلاق مجردة، بل هو أجلي مفصح عن شعورهم الكوني ونظرتهم إلى الحياة. وهو فوق ذلك كله أروع صورة للغتهم وآدابهم، وأضخم قطعة من تاريخهم القومي، فلا نستطيع أن نتغنى ببطل من أبطالنا الخالدين بصفته عربياً، ونهمله أو ننفر منه بصفته مسلماً». (!!)

ويقول أيضاً: «فالإسلام -إذن- حركة عربية، وكان معناه: تجدّد العروبة وتكاملها!» ويضيف: «إن يقظة العرب اقترنت برسالة دينية، أو بالأحرى: كانت هذه الحركة -الدينية- مفصحةً عن تلك اليقظة القومية»[١]. أي في وقت أو عصر كانت جميع الحركات الإصلاحية تعبّر عن نفسها من خلال الدين أو الدعوات الدينية!!.

ويقول الدكتور شاكر مصطفى: «الإسلام كمنهج حياة وسلوك بشري هو الصورة المثلى التي أفرزتها العبقرية العربية للحياة والسلوك»![٢].

---

(١) في سبيل البعث، ص١٢٧، ط٦، دار الطليعة، بيروت.

(٢) من حديث مطوّل عن تجربة العمل القومي، شارك فيه العديد من الباحثين والمفكرين على صفحات جريدة «القبس» في اثنتين وعشرين حلقة. انظر العدد رقم ٦٠١٢ ص١١ تاريخ ٥/٢/١٩٨٩م.

ويقول الدكتور عبد العزيز الدوري: «والفتوحات العربية في حقيقتها تعبير عن الطاقات الهائلة التي كانت تزدخر بها الأمة العربية. وقد تجمعت هذه الطاقات بالوحدة لتنطلق في فوران بشري كبير».

ثم يقول: «ومن خطل الرأي أن نظن أن هذه الفتوحات كانت لفرض العقيدة الدينية على الشعوب الأخرى، بل كانت سبيلاً للعرب ليحققوا حياة أفضل، وليتبوؤا مكانة أسمى، ولئن دخلت الشعوب الأخرى في الإسلام فإن ذلك كان عملاً ذاتياً تلقائياً وبصورة متدرّجة. إن الفتوحات نشرت السيادة للعرب، وفتحت أبواب المعمورة أمام التدفق العربي.

«ولم تكن الشعوب المغلوبة تميّز في البدء بين العروبة والإسلام في هذا التوسّع، بل بقي المفهومان مترادفين لديها خلال القرنين الأولين، حتى إن الداخلين في الإسلام من الشعوب الأخرى اعتبروا عرباً في نظر من بقي على دينه منهم، ويبدو أن العرب أنفسهم كانت لديهم، أو لدى أكثرهم مثل هذه النظرة، وإن توافق مفهوم العروبة والإسلام في هذه المرحلة يؤكد على أن الإسلام كان رسالة عربية» ص١٦-١٧.

قلت: وتدور هذه الأقوال -وغيرها كثير- حول أمرين اثنين:

الأول: أن الإسلام رسالة -أو حركة- عربية، وقد «جاء» ليعبر عن تجديد العروبة أو يقظة العرب «القومية».

الثاني: أن هذه الحركة أو هذا التعبير «كان» في حقبة تاريخية ماضية.

ويتبع هذين الأمرين اللذين أوجزهما عفلق بقوله: إن الإسلام أضخم

قطعة من تاريخ العرب القومي: سائرُ الأخطاء الأخرى التي جاءت في كلام الدكتور الدوري حول حركة الفتح الإسلامي، والتي وضع فيها النتائج محل المقدمات، و«وضع» فيها للفتح العربي الإسلامي هوية لم يعرفها التاريخ، بل لم يعرفها الفاتحون أنفسهم!

نقض هذا الزعم:

وعلى الرغم من أن أحداً لم يعد يجهل اليوم -فيما نقدّر- أن الإسلام لم ينزل من عند الله سبحانه ليجدّد العروبة أو من أجل أن يوقظ العرب، أو يفصح عن يقظتهم القومية! **فإن ها هنا نقاط يحسن الوقوف عندها بإيجاز**، تصحيحاً لهذه المغالطات التي ما انفك أصحابها يعرضونها بمختلف الأساليب والصيغ والعبارات لأكثر من نصف قرنٍ من الزمان!

النقطة الأولى: الإسلام رسالة آلهية عامة، وليس دعوة قومية خاصة. وهذه إحدى خصائص نبوّة محمد ﷺ، التي يعدّ الحديث فيها من نافلة القول، ففي حين بعث كل نبيّ في قومه خاصّة، بُعث النبي -العربي- ﷺ في الناس كافّة. ولهذا كان نداء جميع الأنبياء السابقين (ياقوم) وكان نداء خاتم النبيين وشعاره: (ياأيها الناس) وقد نصّ القرآن الكريم على ذلك في آيات كثيرة، نذكر منها بعض الآيات المتصلة بموسى وعيسى عليهما السلام -على وجه الخصوص- قال تعالى: ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ (الإسراء: ٢). وقال تعالى: ﴿وإذ قال عيسى بنُ مريم يابني إسرائيل إنِّي رسولُ الله إليكم﴾ (الصف: ٦). ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أنّي قد جئتكم بآية من ربكم﴾ (آل عمران: ٤٩). ﴿وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربِّي وربكم﴾ (المائدة: ٧٢). في حين قال تعالى في خطاب سيدنا محمد

ﷺ: ﴿قل ياأيها الناس إني رسولُ الله إليكم جميعاً﴾ (الأعراف: ١٥٧). ﴿قل ياأيها الناس إنّما أنا لكم نذيرٌ مُبين﴾ (الحج: ٤٩)، كما جاء النص على عموم هذه الرسالة الإسلامية -المحمدية- في قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافّةً للناس بشيراً ونذيراً﴾ (سبأ: ٢٨). وقوله عزّ من قائل: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء -١٠٧).

يضاف إلى ذلك وصف الله تعالى للقرآن الكريم بأنه: «بلاغ للناس»، و«بيان للناس» و«هدىً للناس» وأنه «يهدي للتي هي أقوم». وقد تكرر الخطاب في القرآن للإنسان والناس، وورد ذكرهما فيه في مواضع كثيرة.

وربما خلط بعض دعاة الفكر القومي بين عموم الرسالة الإسلامية ومرحلية تبليغها للناس.. تأكيداً لطابعها القومي، ووصولاً إلى الفكرة القائلة إن توسع العرب خارج حدود جزيرتهم كان ضرورة اقتصادية، أو وضعاً من أوضاع السياسة أو الاجتماع .. فالتوسع العربي، أو خروج العرب من جزيرتهم، سلسلة ممتدة قبل الإسلام وبعده! ولا استثناء لحركة «الفتح العربي» الذي حصل بعد الإسلام- وكما صار يُدعى! -إلا من خلال مزيته في القدرة على تعريب البلاد المفتوحة، من جهة. وعدم انقطاع صلة عرب الفتح، أو موجة الهجرة الجديدة، بموطنهم الأصلي. من جهة أخرى. وهكذا تتم التعفية على فكرة البلاغ، وضرورة الوصول بالدعوة الإسلامية إلى حيث يجب أن تصل، بوصفها دين الله تعالى إلى الناس كافّة.

لقد أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يتوجه بالخطاب أو الدعوة أولاً إلى عشيرته الأقربين، قال تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (الشعراء: ٢١٤) ثم إلى أم القرى -مكة- ومن حولها، قال تعالى: ﴿ولتنذر أم القرى

ومن حولها﴾ (الأنعام: ٩٢) لأن هذه هي الوسيلة الطبيعية في التبليغ، وهي وسيلة أو طريقة في إيصال الدعوة إلى الناس ليس غير! أما عموم الرسالة وعالمية الدعوة، فقد كانت تتمثل في خطاب العشيرة وفي خطاب أهل مكة، وفي خطاب العرب، بقوله منذ اليوم الأول للبعثة: (ياأيها الناس) وليس «يا قوم» كما فعل جميع الأنبياء السابقين.

ومعنى ذلك أن التوسع في إبلاغ الدعوة، وإيصال الرسالة إلى الناس في مشارق الأرض ومغاربها، أو الخروج بها في مراحلها الأولى، وعلى يد النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، من حدود جزيرة العرب، كان جزءاً لا يتجزأ من طبيعة هذه الدعوة وعالميتها، ولم يكن عملاً من أعمال السياسة، أو ضرورة من ضرورات الاقتصاد، أو وضعاً من أوضاع الاجتماع .. كما جاء في مقولات الفكر القومي، وبغض النظر عن كون هذه المقولة جاءت نتيجة للخلط السابق بين عالميّة الدعوة ومرحلية التبليغ، أو كانت هي الباعث على مثل هذا الخلط والتمويه -كما نرجحه ونذهب إليه- إن الدعوة الإسلامية أو رسالة الإسلام لم تكن في أي لحظة من لحظات التاريخ دعوة قوميّة، ثم تحولت، بفعل أي ظرف داخلي أو خارجي، إلى دعوة إنسانية أو عالمية! ولكنها كانت كذلك منذ لحظة غار حراء التي نزلت فيها الآيات القرآنية تتحدث عن «الإنسان» ومنذ أن أُمر النبي بعدها مباشرة بأن ينهض -ﷺ- للإنذار .. مطلقاً غير مقيد أو محدود بحيٍّ أو عشيرة أو قوم! ﴿يا أيها المدثّر. قم فأنذر، وربك فكبّر، وثيابَك فَطهِّر، والرجزَ فاهجر ..﴾ الآيات .. نعم (قم فأنذر) بهذا الاطلاق، وهذا العموم.

ولكن هذا الإنذار العام والمطلق، من أين يبدأ؟ وكيف يمضي؟ وكيف يقوم النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه بهذه الرحلة الطويلة؟ رحلة

إبلاغ جميع الناس في أرجاء العالم المعمور؟ هنا تأتي مرحلية التبليغ التي أشارت إليها الآيات السابقة. حتى إذا فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من عشيرته أو قبيلته قريش، وأمن جبهتها في صُلح موقوت يوم الحديبية، وقبل أن يفرغ من «قومه» العرب في أرجاء الجزيرة ذاتها، كاتَبَ الملوك والرؤساء في عصره يدعوهم بدعوة الإسلام، وكان على رأس من كاتبهم ودعاهم إلى الدخول في دين الله زعيما الدولتين اللتين كانتا تتقاسمان العالم المعمور . . كسرى الفرس، وقيصر الروم. فهل كان ذلك لأن الإسلام رسالة عربية؟! أم لأن النبي الكريم ﷺ قبل أن يفرغ من قومه - انتصاراً عليهم، وتوحيداً لطاقاتهم- كان قادراً على منازلة الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية؟!

بل لقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يبلّغ دعوته جهاداً وحرباً، كما بلّغها كتابة وسلماً . . وأن يصل بها إلى الشعوب والأقوام، كما خاطب بها الملوك والحكام! ومن هنا كانت غزوة تبوك وغزوة مؤته، وما أدراك ما غزوة مؤته؟ ولولا أنها نابعة من طبيعة التبليغ الثابتة التي لا تقبل التبديل أو التحويل، والذي حرص النبي الكريم على أن يقوم به في عصره، بل أن ينهض به بنفسه، ولايدعه لخلفائه من بعده . . لكانت هذه الغزوة - لاحظ هذه التسمية- أشبه بالمغامرة العسكرية في ظروف بالغة الشدّة والقسوة والصعوبة!

ثم ما وجه الربط، علمياً، ومنطقياً، بين وصول الإسلام إلى البلاد المفتوحة على أيدي العرب، أو اقترانه بهم في الفتح العربي الإسلامي، بل بين «توافق مفهوم العروبة والإسلام» خلال القرنين الأولين -على حد قول الدكتور الدوري- وبين الزعم أن الإسلام رسالة عربية؟ وهل يمكن القول بناء على ذلك إن الإسلام بعد هذين القرنين وعبر الشعوب التي حملته وبلّغته في

الفتح الأفغاني الإسلامي في الهند، أو الفتح العثماني الإسلامي في أوروبة، أضحى رسالة أفغانية أو تركية؟!

النقطة الثانية: أن هذه الدعوة العامة والرسالة الإنسانية اختار الله تعالى لها العرب، لينزل كتاب الله المعجز بلغتهم، وبين ظهرانيهم، وعلى قلب رجلٍ منهم: (الله أعلمُ حيثُ يجعل رسالته) ولينهضوا من ثم بحمل أعبائها، وتبليغها في العالمين.

ولا تعارض بين الأمرين، كما تقتضي بذلك طبيعة الأشياء! لأنه لا يوجد عاقل ينتظر أن ينزل القرآن الكريم، من أجل تأكيد عموم الرسالة، بكل لغات الأرض! ما كان منها وقت التنزيل، وما سيكون منها إلى يوم الدين![1] أو أن تنزل هذه الرسالة في كل الأقوام.. وعلى قلب رسلٍ وأنبياء من جميع الشعوب والقبائل! ولكنّ أمرين اثنين هما مطلب كل عاقلٍ في هذا السياق: الأول: الأسس والاعتبارات التي قامت عليها هذه الرسالة، هل كانت

---

(١) إذا كان من تحصيل الحاصل أن نقول إن لسان النبي صلى الله عليه وسلم لسان قومه، في الوقت الذي قال تعالى بشأن عامة الرسل: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)(إبراهيم: ٤)فإن من اللافت للنظر، ونحن أمام القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين، أن يخاطب الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم، بقوله: (فإنما يسّرناه بلسانك لتبشّر به المتّقين وتُنذر به قوماً لُدّاً)(مريم: ٩٧) فيضيف اللسان-العربي- إلى النبي الكريم لا إلى قومه.. إشارة فيما يبدو إلى أن المسألة في هذه الرسالة العامة الخالدة رُوعي فيها لسان المبلِّغ لا لغة القوم! أو لأن المسألة تبدأ من النبي لا من قومه، أو تبدأ منه ولا تنتهي عندهم.. لأنهم جزء من المكلّفين لا جميعهم، والله أعلم. وغني عن البيان أنه ما من عقيدة أو فلسفة-أو بيان- أو مذهب وضعي يحمل طابع (العالمية) إلا وكتب أول ما كتب بلغة صاحبه، أو بلسانٍ واحد!

إنسانية أم قومية؟ والأمر الثاني: الأسباب التي من أجلها اختير العرب من بين سائر الشعوب الأخرى لتنزل فيهم هذه الرسالة، ويؤمروا بحملها وتبليغها لجميع الأمم.

أما الأمر الأول: فأوجز ما نقول فيه إن الرسالة الإسلامية قامت على أسس واعتبارات إنسانية، ولم تقم -عقيدة وشريعة ومنهج حياة- على أسس بيئية عربية، أو على أي لون من ألوان الاعتبارات المحلية أو الموقوته أو الطارئة! أي أنها جاءت وفقاً لحاجات الإنسان، أو مفصلة عليه إن صح التعبير خارجاً من إطار البيئة أو الزمان.. ولم تأت وفقاً لحاجات العرب أو المجتمع العربي حتى تكون رسالة عربية أو مفصحة عن يقظة العرب القومية.. أو تجديداً للعروبة.. إلخ هذه الدعاوى والمزاعم! وإذا كنا نعود في جميع العصور في فهم القرآن الكريم بوصفه كتاباً عربياً مبيناً إلى معهود العرب في الخطاب أو اللسان، فليس معنى ذلك أن كتاب الله تعالى جاء استجابة لأوضاع العرب الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية.. علاجاً لها، وإصلاحاً لحالها دون سائر الناس. أو بعبارة أخرى: لم ينزل القرآن علاجاً لأوضاع العرب -وإن كان قد نزل بلغتهم- ولكنه جاء هادياً لجميع الناس، أو للإنسان في كل زمان ومكان، ففي الوقت الذي قال تعالى في شأن بني إسرائيل: (فَبظلم من الذين هادوا حَرَّمنا عليهم طيّبات أُحلَّتْ لهم وبصَدِّهم عن سبيل الله كثيراً)(النساء ١٦٠) قال في وصف خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام: (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويُحلُّ لهم الطيّبات ويحرِّم عليهم الخبائثَ، ويضع عنهم إصْرهم والأغلال التي كَانت عليهم)(الأعراف ١٥٧) ونكتفي بهذه الخلاصة السريعة لأن المتابعة في هذه المسألة تخرج بنا إلى ساحة الحديث عن مناهج الاعتقاد وقواعد التشريع.. وكيف قامت

جميعها على أسس إنسانية عامة.

أما الأمر الثاني، وهو نزول الرسالة الإسلامية فيهم، واختيار الرسول منهم، فلما تمتعوا به من المزايا والصفات النفسية والذهنية، وما عرفوا به من الفضائل الحميدة، والصفات الكريمة، كالصبر والصدق والكرم والشجاعة والأمانة والغيرة وصلة الرحم والدفاع عن المظلوم، والوفاء بالوعد . . إلخ. فضلاً عن تأثرهم الشديد بالكلام وما ينطوي عليه من أسباب البلاغة والبيان . . خصوصاً إذا تذكرنا أننا أمام رسالة كان معجزتها -ودستورها- كلاماً يُتلى لا آية كونية أو معجزة حسيّة تخضع لها الرقاب.

والذي نودّ التأكيد عليه في هذا السياق: أن هذا الاختيار الإلهي للعرب- قوماً ولساناً- يدل بوضوح تام على الطابع الإنساني -لا القومي- لرسالة الإسلام، لأن جُملة الفضائل الإنسانية التي جاء بها القرآن الكريم، بوصفه الكتاب الإلهي الأخير للإنسانية، وجملة الملكات والخصائص النفسية والعقلية التي تؤهل أصحابها للنهوض بتبعات هذا التكليف، على نحو موضوعي شامل ومتوازن . . اجتمع منها في العرب ما لم يملك مثله أو قريباً منه قوم من الأقوام، أوأمة من الأمم أو شعب من الشعوب . . !

كما أن المعجزة البيانية لهذه الرسالة -القرآن العربي المبين- تومئ إلى هذا الطابع الإنساني وتدلّ عليه، لأن الكلام والبيان هو ما امتاز به الإنسان، فجاءت معجزة النبي العربي صلى الله عليه وسلم «بيانية» للإشارة إلى أن هذه الرسالة هي رسالة الإنسان حيث كان الإنسان، وفي أي زمان وجد ! ولم يكن البيان بمعناه الأدق من «النطق» كما توحي بذلك بعض الآيات القرآنية وقفاً على لغة من اللغات، أو أمة من الأمم . . ولكن اختيار لغة العرب لينزل

بها القرآن، وليُحمل بها إلى العالم رسالة الإنسان يشير إلى فضيلة بيانية جامعة امتاز بها اللسان العربي على كل لسان!».

وهذا ما حملنا في وقت سابق على ضرورة التمييز بين كون معجزة هذه الرسالة -القرآن- بيانية، وبين كون هذا البيان جاء بلغة العرب! لقد جاءت هذه المعجزة بيانية كما أوضحنا للدلالة على أن رسالة الإسلام رسالة إنسانية، وليس لأنها نزلت في قوم أولي فصاحة وبيان، ومن ثم فإن ميدان البحث الحقيقي هو لماذا جاء هذا البيان بلغة العرب . . أي البحث عن المزايا البلاغية والبيانية التي تمتعت بها اللغة العربية بالقياس إلى سائر اللغات»[1].

وهكذا يجب علينا التفريق بين كون الرسالة الإسلامية نزلت في العرب، وكونها رسالة إنسانية عامة، وليست للعرب وحدهم. والتفريق كذلك بين كون معجزتها بيانية، وكون هذا البيان جاء بلغة العرب.

والخلاصة أن العرب -جنساً ولساناً- كانوا مهيئين لهذا الاختيار الإلهي . . من أجل النهوض بتبعات رسالة إنسانية . . بكل ما تحمله هذه الرسالة من معاني العموم والخلود . .

---

(١) انظر دراسة موسعة حول هذه النقطة في بحثنا: سمات البلاغة النبوية، المنشور في مجلة مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر. العدد الخامس ١٩٩١م ص٢٥٨ فما بعدها.

النقطة الثالثة: وجوب التفريق في الشخصية العربية بين الواقع والاستعداد.

والنقطة المهمة التي تحسم الخلاف حول مكانة العرب ومنزلتهم في العصر الجاهلي، والتي بلغت في التقدير القومي إلى حد اعتبار الإسلام من إفراز العبقرية العربية -على حد تعبير الدكتور شاكر مصطفى!- والتي نزل بها بعض أدعياء الدعاة إلى حد عدّهم أسوأ الشعوب والأمم في الجاهلية، وأن الإسلام بمعجزته في إعادة صياغة الأمم ارتقى بهم إلى مقعد القيادة والسيادة على مسرح التاريخ! أقول: النقطة الهامة التي تحسم الخلاف بين هذين الفريقين حول هذه المنزلة: هي وجوب التفريق في الشخصية العربية- الجاهلية- بين الفطرة والموهبة والاستعداد، وبين الأوضاع التي كانت قائمة في العصر الجاهلي، والواقع الذي انتهى إليه العرب أو انتهت إليه القبائل العربية بين يدي بعثة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. فالعرب أصلح شعوب الأرض قاطبة لحمل أعباء هذه الرسالة.. فطرة واستعداداً، ومواهب وملكات، لا واقعاً وسلوكاً وممارسات.. في لحظة تاريخية غلبت عليها الحروب والمنازعات، أو سرت إليها بعض الأخطاء والنقائص في الاقتصاد والاجتماع وسائر شئون الحياة! ومن هنا جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم: «تجدون الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه». -رواه مسلم- وهذا أيضاً مادل عليه دعاء النبي صلى الله عليه وسلم -في الحديث الذي أخرجه الترمذي والإمام أحمد-«اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب» فإن الدعاء لأحدهما على هذا النحو يدل على إمكانية ترقي كلٍ منهما، بناءً على

موهبته واستعداده، في المعارج التي ارتقى إليها ابن الخطاب يوم أسلم، والمكانة التي تبوّأها في التاريخ الإسلامي والإنساني، في حين توارت مواهب عمرو بن هشام -أبي جهل- وإن شئت قلت: عبقريته، وراء رمال الجزيرة . . قتلتها العداوة، ودفنها الصلف والجحود! لا نخطئ إذن إذا قلنا -على عكس ما ذهب إليه بعض دعاة الفكر القومي- إن الإسلام نزل في العرب، وأُمروا بحمله وتبليغه في العالمين بناء على عبقريتهم، أو نظراً للصفات العبقرية التي امتازوا بها! أما أن نقول إن الإسلام هو من إفراز هذه العبقرية!! فهذا قلبٌ للأوضاع والمفاهيم . . فضلاً عن مخالفته الحادّة ومناقضته لما عُلم من دين الله: ضرورة وعقلاً وعلماً وتاريخاً، وأدلة وشواهد . . عصراً بعد عصر، وجيلاً بعد جيل.

وقد يكون في وسعنا أن نذهب في تأكيد هذا التفريق الذي قلناه، إذا لاحظنا أن جزءاً كبيراً من واقع العرب الفاسد أو السيء في الجاهلية، إن لم يكن الجزء الأكبر والأهم، كانت دوافعه نبيلة، ومقاصده حسنة! وإنما لحقه الخطأ والفساد من اختيار الطرق والوسائل، أو من المغالاة التي توقع صاحبها في أسوأ مما كان يحذر، ، كوأد البنات خشية العار على سبيل المثال!

وأخيراً، فإن فحوى ما قلناه في هذه النقطة، والنقطة الثانية السابقة: أن مكارم الأخلاق: سلوكاً وممارسة، وغاية ومطلباً -مع ما اكتنفها من أخطاء ومظالم- كانت لُحمة حياة العرب في الجاهلية، وإن كان سُداها حروباً ومنازعات وتفرق قبائل!

٢- تضخيم العصر الجاهلي والانتماء إليه!

أما التجاوز الثاني على صعيد الفكر القومي، وهو تجاوز يتصل بالمقولة التي ناقشناها في هذا التجاوز، كما يتصل بفلسفة التاريخ التي تحدثنا عنها في الفقرة السابقة، والتي أفصحت -كما رأينا- عن محاولة فصم عُرى التاريخ العربي عن التاريخ الإسلامي، فهو محاولة (تضخيم) تاريخ الجاهلية، أو تاريخ العرب قبل الإسلام، والاعتداد به، وجعله في الغالب مصدر انتماء واعتزاز، وتصوير العرب في الجاهلية، أو في تاريخهم الطويل قبل الإسلام على أنهم أصحاب حضارة أو حضارات ممتدة، وأن تطورهم الطبيعي كان سيفضي بهم في وقت قريب إلى المكانة التي تبؤوها -أو قريب منها- في ظل الإسلام. وربما وصل الغلوّ ببعضهم إلى حد الزعم بأن الإسلام دفع بهم في حركة الفتح قبل أن يستكملوا ذلك الطور الطبيعي! .. أو إلى حد الدعوة إلى الجاهلية بوصفها المثل الأعلى، والمرحلة العربية الذهبية، أو عصر العرب البطولي الذهبي[1].

ويقابل هذا كله محاولة(تحجيم) دور الإسلام، أو التهوين من شأنه بالنسبة للعرب خاصة، وذلك من خلال تسليط الأضواء على المشكلات

---

(١) تجلّت هذه الدعوة في كتابات زكي الأرسوزي على وجه الخصوص ! يقول: «أي مهد من تاريخنا انبلج فيه المثل الأعلى عن طبيعة أمتنا كقرارة لها أمنية كما انبلج في الجاهلية؟ ونحن بالعودة إلى جاهليتنا نلتقي مع أصول الثقافة الحديثة، التي تقوم على الاعتقاد بأن النفس تنطوي على مقوماتها، على عقل يؤهلها لمعرفة الحقيقة، ووجدان ينير لها سبيل المعرفة. وفضلاً عن ذلك، إننا لنتحاشى بهذه العودة ما أورثنا التاريخ من حزازات من المذاهب والأديان» المؤلفات الكاملة، ٢/ ٢٩٧ مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلّحة، دمشق ١٩٧٢.

التي عانوا منها في البلاد المفتوحة، والتركيز على حركات الرفض والمناقضة التي قامت في وجه الإسلام، كالقرامطة، والزنادقة، والزنج، والحشاشين، وإخوان الصفا . . وربما التعاطف مع هذه الحركات أو الدفاع عنها في كثير من الأحيان. إلى جانب العناية الملحوظة بنقاط الضعف أو الجوانب السوداء في التاريخ الإسلامي . . بوجه عام، كالنزاعات والفتن والحروب التي قامت بين الدويلات والأسر الحاكمة، أو بين أرباب الفرق وأصحاب المذاهب!

ويبدو لنا أن الغرض من هذا كله: تحقيق قدر معقول أو لا بأس به من(التعادل) بين العصر الجاهلي والعصر الإسلامي حتى يستقيم (التاريخ القومي) أو يقف على قدميه ! أو حتى تتّسق الشخصية القومية العربية عبر عصور التاريخ! تأكيداً على الفكرة التي يمكن وصفها بالمحورية في الكتابات القومية، وهي أن الحقبة الإسلامية لا تعدو أن تكون حقبة تاريخية أو تاريخاً من التاريخ.

ونذكّر في تعليقنا على هذه المحاولة الغريبة بضرورة إعادة قراءة التاريخ- الإسلامي- قراءة موضوعية تأخذ بعين الاعتبار جميع العناصر الفاعلة والمؤثرة في صنع هذا التاريخ! بعيداً عن القولبة التي يفرضها التفسير المادي، من جهة. وبعيداً عن الأغراض والأحكام المسبقة، من جهة أخرى.

ونكتفي في ردّنا وتصحيحنا لهذا التجاوز الثاني، بجملته، بالإشارة إلى أمرين مهمّين:

الأمر الأول: أن المعنى القومي الذي يراد إحياؤه وإبرازه في مقابلة الفحوى الإسلامي للشخصية العربية-وكما يفهم من محاولة التضخم والتحجيم

هذه- لم يكن له وجودٌ من الأصل في العصر الجاهلي! لأن وجوده ارتبط بالقرآن والإسلام، فولاء العربي في الجاهلية إنما كان لقبيلته ولم يكن لقومه! كما دل على ذلك الشعر الجاهلي الذي كان شعراً «قبلياً»، وشعراء الجاهلية الذين كانوا شعراء قبائل لا شعراء أمّة أو قوم! ولهذا لم ترد كلمة «عرب» في الاستعمال للدلالة على مدرك قومي جامع! وإنما ورد هذا الاستعمال في القرآن الكريم. وفي هذا يقول الأستاذ العلامة المؤرخ الدكتور عمر فروخ رحمه الله:

«ونمرّ بالشعر الجاهلي الذي وصل إلينا، فلا نجد فيه صيغة من جذر «ع-ر-ب» للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس، ولا على معنى يتعلق باللغة التي نتكلّمها، وهذا أمرٌ له تعليله في تاريخنا السابق على الإسلام. لقد كان الجاهليون غارقين في منازعاتهم القبلية فلم يكن لديهم، فيما بين يدينا من التراث اللغوي، مايدل على المدرك القومي الجامع».

ويضيف الدكتور فروخ قائلاً: «ولكن لما وقف الجاهليون في أعقاب العصر الجاهلي أمام الفرس على حدودهم الشرقية، ثم كرهوا الحكم الفارسي الذي كان قد استطال في شبه الجزيرة، بدأوا يستشعرون شيئاً من البُغضة للفرس، وشعر عنترة بهذه البُغضة، فقال في معلّقته عن ناقته:

شربتْ بماءِ الدُّحرُضَيْن فأصبحت   زوراء تنفِر عن حياض الدَّيلم

إن عنترة قد أحسّ بالدافع القومي الجامع، ولكن لم يجد الكلمة التي تعبّر عنه فاضطر إلى أن يدور حول المعنى ببيت كاملٍ من الشعر».

وبعد أن يشرح الدكتور فروخ ورود كلمة «عربي» في القرآن الكريم، يقول «إن استعمال كلمة عربي في القرآن الكريم دلّت الشعراء على التعبير الذي لم يقع عليه عنترة .. وهكذا بدأ في الشعر العربي مَدْرك لم يكن معروفاً من قبل، هو أن العرب جماعة واحدة ذات نطاق من الوحدة الجامعة. على أن مَدرك العروبة يومذاك، أو المدرك القومي العام على الأصح، كان والإسلام شيئاً واحداً .. وجرى المدركان جنباً إلى جنب عصوراً..».

ويقول أخيراً: «هذا كله من الناحية اللغوية في تاريخ كلمة «عرب». ولكن يبدو لنا أيضاً أن الإسلام هو الذي جعل لكلمة «عرب» هذا المقام في شعور الجماعة، ولكن نهى عن أن يكون هذا الشعور عاملاً مفرّقاً بين صفوف الأمة التي وحّدها الإسلام»[1].

ونقول تأكيداً لما ذكره الدكتور فروخ رحمه الله، وتعقيباً عليه: إن المجتمع الجاهلي لايمكن وصفه بأنه مجتمع مدني، لأنه كان مجتمعاً قبلياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. ولا يمكن وصف العرب في الجاهليّة بأنهم أمة .. إلا إذا قلنا -مع بعض الباحثين- إنها أمّة مشتتة الأركان، مهدّمة البنيان .. ومع التسلم بأن بعدها عن المدنية إنما كان لشدة إبائها وحميّتها، وصعوبة قيادها! حتى كأن القرآن الكريم- على حد تعبير الفراهي- «أَخرج

---

(١) تاريخ الجاهلية الدكتور عمر فروخ رحمه الله، ص٤١-٤٣ ط٢ بيروت ١٩٨٤م

أمة متمدّنة من الأسود الضواري»[1]. قال تعالى: ﴿لو أنفقتَ ما الأرض جميعاً ما ألّفتَ بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم إنه عزيزٌ حكيم﴾ (الأنفال: ٦٣).

أما الأمر الثاني: فهو أن هذه المقولة تذكّرنا بالشعوبية التي عرفت في العصر العباسي! فقد قامت هذه الفرقة أو الحركة على الانتقاص من قدر العرب، والحط من منزلتهم في المدنية والحضارة! .. وصولاً إلى محاربة الإسلام والانتقاص من قدره بوصفه دين العرب! ولهذا قام بها نفرٌ من الأعاجم من أبناء البلاد المفتوحة الذين لم يفارقهم الحنين إلى جاهلية آبائهم!. أما هذه المقولة -القومية- الجديدة! فقد حاول أصحابها الرفع من قدر العرب في الجاهلية .. كما حاولوا تضخيم تاريخهم «وحضارتهم ومدنيتهم»! على حساب الإسلام .. أو وصولاً إلى الانتقاص من قدره! فكأننا اليوم أمام شعوبية جديدة! لأن الغاية واحدة وإن تعددت الطرق والوسائل .. ولا مانع عندنا من تسمية هذه الشعوبية بالشعوبية القومية! أو الشعوبية الجديدة! على الرغم من «المفارقة» التي تحملها مثل هذه التسمية. وقد تكون هذه الشعوبية أسوأ من سابقتها وأشد ضرراً إذا أخذنا برأي ابن تيمية القائل إن لقب الشعوبية أطلق في التاريخ على الفرقة التي تقول «إنه لا فضل لجنس العرب على جنس العجم» ولم تذهب إلى أبعد من ذلك. وقد قال ابن تيمية في حكمه على هذه الفرقة معقباً: «والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع نفاق إما في الاعتقاد، وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس، مع شبهات اقتضت ذلك» قال: «فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن

---

(١) الزميل الفاضل الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات، مجلة كلية الشريعة، العدد١٣ جامعة الكويت.

جنس العرب أفضل من جنس العجم: عبرانيهم وسُريانيهم، رومهم وفرسهم وغيرهم»[1].

٣ - القومية عقيدة ودين:

ومن أغرب تجاوزات الفكر القومي: إعطاء القومية بوصفها انتماءً مضموناً عقدياً أو عقائدياً بحيث تصبح القومية «ديناً» أو عقيدة تحل محل العقائد والأديان!

- ومن أخطر هذه التجاوزات وأسوئها أثراً كذلك: ربط القومية ببعض الأفكار والمذاهب الاجتماعية، التي ليست داخلة في بنائها، ولا تقتضيها طبيعتها.. كما قلنا في مطلع هذا البحث.

ويبدو أن هاتين المقولتين جاءتا من خلال أن الطرح القومي تجاوز أصحابه الإسلام، بوصفه المضمون الحقيقي والمقوّم الأساس للشخصية العربية على الدوام وليس في عصر دون عصر، فكان لابد من جعل القومية ديناً، أو ربط القومية بعجلة الماركسية أو العلمانية أو أي نموذج آخر مستعار أو منقول أو مستورد!

وربما حَمَلَنَا النظر في تاريخ نشأة الفكر القومي، الذي أوجزنا خطوطه العامة فيما سبق، وفي المفاهيم المتعددة للقومية التي عبّرت عنها كتابات الروّاد الأوائل -وبخاصة المفهوم العرقي[2]- على الاعتقاد بأن تلك النماذج

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ص ١٤٨، ١٤٩

(٢) راجع ما كتبه سامى الجندى عن زكى الأرسوزى فى كتابه: البعث.

المستعارة أو المنقولة التي روّجوا لها تحت عنوان «الحداثة أو المعاصرة»!! أو الالتقاء مع الحضارة الحديثة[1] وأصول الثقافة الحديثة كانت هي الخيار المسبق عند الكثيرين من أولئك الروّاد! وإنما تم اختيار الدعوة إلى القومية بوصفها شعاراً أو «غطاء» مقبولاً، أو يمكن فهمه وتبريره في أواخر العهد العثماني. وتحمل ملاحظتنا هذه تفسيراً إضافياً لارتباط هذه الدعوة لا بالنصارى وحدهم، بل بجميع الأقليات الدينية والمذهبية في العالم العربي على وجه العموم، وفي بلاد الشام على وجه الخصوص.

ونخصص هذه النقطة للحديث عن التجاوز الأول الذي جعل من القومية ديناً! في زحمة الصيغ والأشكال التي أخذتها الفكرة القومية، أو التي تقلّبت فيها خلال ما يزيد عن نصف قرن من الزمان. وقد لخّص أستاذنا محمد المبارك هذه الصيغ في سياق حديثه عن هذا التجاوز الحادّ، فقال رحمه الله:

«ولقد أخذت الفكرة القومية أشكالاً وصيغاً مختلفة: فكانت شعوراً طبيعياً في بداية الأمر لا يتجاوز شعور الإنسان بانتمائه إلى أسرة معينة أو قبيلة أو نسب. وهي في هذه الحدود أمرٌ طبيعي لا يتعارض لا مع الشعور الإنساني ولا مع الأخلاق ولا مع العقيدة الدينية. ثم اشتد هذا الشعور في نطاق ظروف معيّنة بدأت من رد الفعل عند العرب مثلاً تجاه العصبية التركية التي غذّاها ملاحدة الأتراك من جماعة تركية الفتاة والاتحاد والترقي، واستمرت واشتدت في عهد الاستعمار الفرنسي والإنجليزي في بعض البلاد العربية، واتخذ هذا الشعور حينئذ شكل مذهب أو خطة سياسية هدفها توحيد البلاد

---

(١) راجع زكي الأرسوزي: المؤلفات الكاملة ٤/ ٣١٢.

العربية وتحريرها. وكانت هذه الصيغة في الحقيقة تمهيداً لمرحلة ثالثة خطيرة، وهي اتخاذ القومية مبدأ، بل فلسفة بل عقيدة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة! وإليكم بعض تعابير هذا الاتجاه:

«القومية بالنسبة إلينا نحن القوميون العرب دينٌ له جنّته وناره، ولكن في هذه الدنيا»(علي ناصر الدين).

«لا ينهض العرب حتى تصبح العربية أو المبدأ العربي ديناً يغارون عليه كما يغار المسلمون على القرآن الكريم، والمسيحيون على إنجيل المسيح الرحيم»(عمر فاخوري).

«وتجد مثل هذه التعابير في كتاب (مع القومية العربية) وغيره»[1].

ونضيف إلى هذا الذي ذكره الأستاذ المبارك ما سمعناه من بعض زملاء الدراسة وقد سئل مرّة عن دينه؟ وكان قد انضم إلى الركب القومي، فقال: قومي عربي!!

وغني عن البيان أن هذا التجاوز الذي يدعو إلى الإشفاق من هذا الجهل بالدين والقومية جميعاً! غير قابل للحياة والاستمرار! بل لعل مثل هذه

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر، ص ١١٧ الطبعة الخامسة ١٩٨٠ دار الفكر. والكتاب الذي أشار إليه الأستاذ المبارك رحمه الله من تأليف: الحكم دروزة وحامد الجبوري. ويضيف علي ناصر الدين قائلاً: «العروبة نفسها دين عندنا نحن المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا، مع دعوتها إلى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات، وفضائل وحسنات»!!

الصيحات قد ولدت ميتة! وقد لا يخالجنا الشك في أن أصحابها كانوا ملاحدة أو متشككين من الأصل. وإنما رفعوا شعار القومية ليخفوا به نزعتهم هذه! أو ليوهموا الناس أنهم مازالوا مؤمنين!!.

٤ - ربط القومية ببعض المذاهب والفلسفات:

وأخيراً، فإن التجاوز الثاني -المشار إليه- والذي انبنى على إقصاء الإسلام بوصفه المقوّم الأساس للشخصية العربية، أو على الانتقاص من دوره -انتقاصاً حاداً بلغ حدّ الانحسار- في بناء هذه الشخصية: ربطُ القومية ببعض المذاهب والفلسفات التي لا تقتضيها طبيعتها كما قلنا أكثر من مرة. وأبرز ما تجدر الإشارة إليه من هذه المذاهب والفلسفات: الماركسية والعلمانية.

أ - فقد ظهر في نطاق الربط بالماركسية والاشتراكية، على الصعيد السياسي والفكري والاجتماعي، شعارات مناقضة كثيرة للإسلام وللثقافة الإسلامية. وأهمها على الصعيدين الأخيرين: الربط بين الثقافة القومية والثقافة الإشتراكية[1]. والربط بين ما سُمّي النضال القومي والنضال الطبقي!

---

(١) حذّر المدرّس العجوز، «بني كاتس نلسون» أحد مؤسسي الكيبوتزات في إسرائيل -أسس مع خمسة عشر من رفاقه كيبوتز شفاعيم عام ١٩٣٥- من أن الصهيونية قامت على مزيج من الاشتراكية والقومية، وأن زوال العنصر الاشتراكي من الفكرة الصهيونية يشكل خطراً على وجود إسرائيل، وخصوصاً عندما تصبح جزءاً من الشرق الأوسط. جريدة الحياة، العدد رقم ١١٧٦٢ تاريخ ٥/٥/١٩٩٥، ص١.

والمتأمل في هذين الربطين لا يخامره شك في أن القومية في هذه المرحلة، أو من خلال هذا الطرح، لم تكن أكثر من جسر عبرت عليه الماركسية إلى العالم الإسلامي. فكأنها فرّغت الشخصية العربية الإسلامية من محتواها الإسلامي تمهيداً لملئها بعد ذلك بالاشتراكية والماركسية. وكأنها قبل ذلك قطّعت أوصال الدولة العثمانية، أو قطّعت صلة العالم العربي بالعالم الإسلامي لتصله بعد ذلك بالمعسكر الاشتراكي أو الوثني! والعجيب حقاً أن تكون الثقافة الاشتراكية أقرب إلى «الثقافة القومية» من الثقافة الإسلامية! وأن تكون الدول الاشتراكية أقرب إلينا من الدول الإسلامية التي تربطنا بها أوثق الروابط اللغوية والثقافية والتاريخية وغيرها -حتى من خلال الطرح القومي نفسه!- الأمر الذي يلقي الضوء على حقيقة الدعوة القومية التي رفع أصحابها هذا الشعار، أو ذهبوا إلى هذا الربط . . وأنها ليست من القومية والعروبة والتاريخ العربي والثقافة العربية والشخصية العربية بسبيل! وأنها لم تكن تعني عندهم سوى تجاوز الإسلام والتعفية على آثاره ، والتحلّل من روابطه . . وهجر ثقافته . . إلى هذه العقائد الفاسدة والأديان المنحولة!

ونأمل، بهذه المناسبة، أن يكون في السقوط الاشتراكي الماركسي، فكراً ونظاماً، أو ديناً ودولة!!، وفي هذه الصحوة الدينية والعودة إلى الجذور، في المجتمع الروسي وسائر المجتمعات الأوروبية والإنسانية، ما يحمل هؤلاء الدعاة على العودة إلى المضمون العقائدي الإسلامي للوعاء القومي بعد هذه المحاولات التي استمرت لأكثر من نصف قرن في البحث عن دين بديل!. قلت: ويبدو أن مثل هذه الرحلة قد بدأت بالفعل.

ب- أما الربط مع (العلمانية) فقد قُصد به إضفاء الصبغة اللادينية على القومية . . أو على الحركة العربية الحديثة كما تُدعى. والذي نفهمه من هذا الربط:

عزل الإسلام في الحقيقة، نظراً لعلاقته الخاصة والوثيقة من دون الأديان الأخرى بالعرب والعروبة، ثقافة ولغة وتاريخاً كما قدمنا. أو التأكيد على عزله واستبعاده من أن يكون أساساً للنهضة في العالم العربي مرة أخرى. بغض النظر عن الأسباب والدواعي الدينية والمذهبية أو الطائفية! ويؤكد ذلك من وجه آخر أن «التلازم بين القومية والعلمانية غير قائم علمياً ولا منطقياً، بل غير قائم تاريخياً كذلك» على حد تعبير الدكتور كمال أبو المجد[١].

والبحث في هذا الاستبعاد، وفي مدى صلاحية العلمانية أو قدرتها على أن تكون أساساً جديداً أو «معاصراً» للنهضة في العالم الإسلامي، سواء اقترنت بالقوميّة أو قُرِنتْ بها القومية أم لا، والبحث قبل هذا كلّه في العلمانية: هل تعني حقاً اللادينية أم لا، حتى يكون هذا الربط مفهوماً أو مبرّراً؟ أو قادراً على استبدال العلمانية -الأوروبية- بالإسلام؟

كل هذا يفضي بنا إلى الحديث عن العلمانية في البحث التالي.

** **

---

(١) جريدة القبس الكويتية، ص١١ العدد رقم ٦٠٠٩ تاريخ ٢/ ٢/ ١٩٨٩.

نظام

+ الحكم الديني - السلطة الكنسية فصل الدين عن الدولة

قارن بين نظام الحكم في الاسلام ونظام الحكم في المسيحية

موقف الكنيسة من العلم

فطرة المنهج العلمي في القرآن والاسلام)

قارن بين موقف كل من الكنيسة والاسلام

أوروبا والمسيحية

الانجيل والقرآن .

٢٢

العلمانية

أ.د. عدنان محمد زرزور

أولاً: الإلحاد والعلمانية

ثانياً: الإلحاد ومناقضته للفطرة

ثالثاً: الدين ليس مرحلة

رابعاً: العلمانية (أو الدنيوية) في المجتمع الأوروبي

خامساً: الدعوة إلى العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي

الإلحاد والعلمانية

جمعنا بين هذا العنوانين، أو بين هذين الموضوعين في العنوان لنفرق بينهما في الطرح والتناول، تمهيداً للتأكيد على أن العلمانية لا تعني الزندقة أو الإلحاد، أو مناصبة العداء للدين، أو لبيان أن العلمانية لم تكن تعني ذلك في تاريخ نشأتها في المجتمع الأوروبي، على أقل تقدير. وبغض النظر عن «الفكر العلماني» الذي ارتبط بالإلحاد أو أفضى إليه في بعض صور الغلوّ والتطرّف في مراحل تاريخية لاحقة.

حول تاريخ التدين:

من المعلوم أن تاريخ الإنسان هو تاريخ التدين والإيمان، وليس تاريخ الزندقة والإلحاد. هذه هي الخلاصة التي ينتهي إليها الناظر في تاريخ التدين عند الإنسان، والباحث في ينابيع النزعة الدينية في النفس الإنسانية:

فقد وجدت في الماضي، وقد توجد في الحاضر أو المستقبل، كما يؤكد مؤرخو الأديان: أمم بدون علوم أو معارف أو فنون. ولكن لم توجد قط أمّة بغير دين. قال بعض هؤلاء المؤرخين -بلوتارك-: «من الممكن أن توجد مدن بلا أسوار، وبلا ثروة، وبلا آداب، وبلا مسارح، ولكن لم يرَ إنسانٌ قط مدينةً بلا معبد، أو لا يمارس أهلها الصلاة».

ولكن الذي ينبغي ملاحظته و التأكيد عليه هو أن تاريخ الإنسان إذا كان تاريخ الإيمان. . فإنه لم يكن تاريخ الإيمان الحق أو الإيمان الصحيح. ومن أجل ذلك تتابع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتعاقبوا، أي أن تتابعهم

وتعاقبهم لم يكن من أجل إنشاء التصور الاعتقادي عند الإنسان، أو من أجل زرع العقيدة في نفوس الناس، ولكن من أجل تصحيح عقيدتهم، وتعليمهم توحيد الألوهية والربوبية جميعاً، من وجه، ووضعهم أمام مسئولياتهم في اليوم الآخر، من وجه آخر.

قلنا: إن تاريخ الإنسان هو تاريخ الإيمان، وليس تاريخ الإلحاد.. والذي نضيفه هنا: هو أن ذلك لم يمنع من وجود نزوعٍ إلى الإلحاد عند بعض الأفراد في جميع العصور، أو في بعض المجتمعات في بعض العصور.

والواقع أن الإلحاد لم يشكل تياراً إلا في بعض الأوقات لأسباب عارضة ترجع في أغلب الأحيان إلى الجهل أو الغرور، سواء أكان هذا الغرور بنوعٍ من القوة، أو بشيء من العلم!

يضاف إلى ذلك أن هذا التيار -على ضعفه وعدم قدرته على الاستمرار- لا يمكن فهمه أو تفسيره بعيداً عن المجتمع الذي وجد فيه، والبيئة التي ظهر فيها وما يسودها من قيم واعتبارات دينية مغلوطة . . ولهذا فإن الإلحاد يظهر أو ينتشر في مناخ العقائد التي تصادم الفطرة، وتعارض العقل، وتخالف العلم أو طبائع الأشياء!

ومن هنا فإننا نلاحظ أن الإلحاد لم يشكل تياراً في أي عصر من عصور الحضارة الإسلامية، فضلاً عن أنه لم يكن من لوازم أو معالم عصر النهضة في الإسلام -الذي بلغ ذروته في القرن الرابع الهجري- وإنما جاء على لسان بعض الأفراد، والتصق لذلك بأسمائهم!! فقالوا: «ابن الراوندي الملحد» وعدّوا ممن رُمي بالزندقة مع ابن الراوندي هذا: عبد الله بن المقفّع، وحَمّاد

عَجْرد، وبشّار بن بُرد. وليس كذلك الحال في المجتمع الأوروبي في القرن الثامن عشر -عصر فولتير- الذي عرف عندهم بعصر الإلحاد! بل يمكننا القول إن الإلحاد كان يمثل في الأسماء السابقة في التاريخ الإسلامي خروجاً على عصر النهضة في الإسلام، ومحاولةً لتشويهه ومناقضته وتعويقه أو القضاء عليه -على عكس التاريخ الأوروبي -الأمر الذي يدل على مدى ارتباط الزندقة بالشعوبية في تاريخ الحضارة الإسلامية.

الإلحاد ومناقضته للفطرة الإنسانية

يمكن تعريف الإلحاد بأنه إنكار لوجود الله تعالى، وبأنه ضد الإيمان، فإذا كانت حقيقة الإيمان تتمثل في الاعتقاد بالله واليوم الآخر -طرفا الإيمان أو ركناه الرئيسان- فإن الإلحاد يقوم بالمقابل على الجحود بالله، وعدم الإيمان بالخلود، أو هو بكلمة واحدة: يقوم على إنكارالغيب (الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة). . ولهذا ارتبط الإلحاد بالقول إن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته وارتبط بالفلسفة المادية والنظرة المادية إلى الكون والحياة والإنسان.

والإلحاد يناقض الفطرة الإنسانية مناقضة حادّة! لأن نوازع الإيمان أصيلة في النفس الإنسانية وليست عارضة. أو بعبارة أخرى: هي جزء من خلق الإنسان وتكوينه، وليست من صنع المجتمع أو التاريخ، ولهذا فإن الإنسان لو خُلّي وشأنه لاختار الإيمان. ولا شك في أن الإنسان من حيث هو مخلوق فيه دلالة على الخالق جلّ وعلا. قال النبي ﷺ: «كل مولود يولَد على الفطرة، حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه» ولم يقل النبي ﷺ: «أو يُسلمانه» لأن الإيمان بالله الواحد الأحد -جل وعلا- هو دلالة الفطرة والخلْق الإلهي.

ولهذا كان ما يناقض هذه الفطرة من الإلحاد أو الشرك، هو الذي يأتي من البيئة والقدوة والمجتمع، ومن التعليم الذي يشوّه هذه الفطرة، أو يطمسها و«يرين عليها» - ويمثل ذلك كله الأبَوان بوجه خاص، أو في هذه المرحلة المبكّرة -قال تعالى: ﴿كلا بلْ رانَ على قلوبهم ماكانوا يكْسبون﴾ ولكنه في جميع الأحوال لا يفسد «طبيعتها» أو خلْقها . . بحيث لا تستجيب للهداية، أو لا تعود إلى دلالتها الإيمانية التوحيدية مرة أخرى، ولهذا قوبلت

«التزكية» في قوله تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها فألهَمها فجُورها وتقواها. قد أفلحَ من زكّاها، وقد خابَ من دسّاها﴾ بالتّدسية، أي التغطية -والرَّين!- ولم تقابَل بالهبوط أو النزول.. فضلاً عن المسخ، أو التحوير والتبديل. وعلى هذا فالفطرة ليست حيادية، ولكنها إلى الإيمان بالله تعالى أقرب، والإلحاد ليس عقلاً أو علماً أو منزعاً إنسانياً، ولكنه تكلّف ومناقضةٌ وتشويه! فإذا لاحظنا أن النبي ﷺ لم يقل كذلك: «أو يُلحدانه»- أو يُزندقانه مثلاً! - أدركنا كذلك أن هذه المناقضة لا تبلغ في الغالب، أو عبر العصور الإنسانية بعامّة، حد الخروج عن الدين، أو إلى ساحة لا يكون فيها الإنسان بغير دين.. ولكنْ سوف يخرج به المجتمع أو التعليم إلى عقيدة فاسدة، أو مذهب محرَّف أو دينٍ مدخول!

وتأتي الآية التالية محكمة الدلالة على هذه النقطة، وعلى ما تجب الإشارة إليه في باب الفطرة والتدين بوجه عام، قال تعالى: ﴿فأقمْ وَجهَك للدِّين حنيفاً، فطرةَ الله التي فَطر الناسَ عليها، لا تبديلَ لخلْق الله ذَلك الدِّين القيّمُ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون﴾ (الروم: ٣٠).

١- فقد أمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم- وكلَّ مكلَّف من بعده- بإقامة وجهه للدين، أي بأن يتجه ويلتفت تلقاء الدِّين ونحوه. وإقامةُ الوجه -كما يقول المفسّرون- «هو تقويم المعتقد، والقوّة على الجدّ في أعمال الدين. وذكر الوجه لأنه جامعُ حواسّ الإنسان»[1] ولأن إقامة الوجه إنما تعني في الحقيقة: القصد والتوجه، بل إن كلمة التوجه إنما جاءت من انصراف الإنسان بوجهه نحو الشيء.!

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١١/ ٤٥٢

عليك إذن بالدين، فانصرف إليه، وتوجه نحوه!

والسؤال الآن: لماذا الدّين؟ والجواب: لأن هذه النزعة أصيلة وخالدة في النفس الإنسانية، ولأن في تلبيتها تلبية لتطلع إنساني، يقول الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله:

«وفي الطبع الإنساني جوعٌ إلى الدين كجوع المعدة إلى الطعام، والإنسان الذي يرفض فكرة الدين كالمعدة التي ترفض الطعام الجيد لا بسبب رداءة الطعام، ولكن بسبب ضعف المعدة».

ويقول أيضاً: «إذا كان البعض ينكر فكرة الدين والعقيدة، ويتجاهل أهميتها، فإن ذلك **لا يعود إلى رداءة العقيدة (أو الاعتقاد)**، وإنما يعود إلى ضعف التكوين العقلي فيه» أي أن الأمر من باب الشذوذ والاستثناء، أو من باب الضعف الطارئ -أو الإضعاف- بسبب المرض الذي لحق بالإنسان من جراثيم الشبهات والشكوك الخارجية أو الطارئة. والتي يمكنه لذلك- كما أشرنا- أن يتعافى منها في يوم من الأيام.

ويقول الفيلسوف آرنست ريتان: «إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبّه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي -الإلحاد- الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية».

وجاء في معجم لاروس للقرن العشرين «إن الغريزة الدينية مشتركة بين جميع الأجناس البشرية، حتى أكثرها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية،

وأن الاهتمام بالمعنى الآلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية».

قلت: فإذا كان الدين كذلك، فلابد من طلبه والتوجه إليه، ولا بد من التسليم معه بأن الإلحاد واحد من الشرور أو من الأمراض الطارئة على النفس الإنسانية، وأنه ليس من طبيعتها ولا متأصلاً فيها، أو بعبارة أدق: ليس من طبيعتها حين تبقى هذه الطبيعة على حالة الصحة والاستقامة والاعتدال!

٢ - **أما الحنيفية**، فيراد بها في الآية -**ثانياً**- الميل عن جميع الأديان المعوجّة أو الباطلة -التي وقع أصحابها في الشرك أو عبادة الأوثان-إلى الدّين الحق.. دين التوحيد. لأن الحنيف مأخوذ من الحَنَف، وهو الميل، أي عليك أن تختار، وأنت تتجه نحو الدين، دين التوحيد مائلاً عن كل ما عداه! كما فعل إبراهيم عليه السلام حين توجه إلى فاطر السموات والأرض.. ورفض ما كان عليه قومه من الشرك وعبادة الأصنام، حتى إن بعض المفسرين ذهب في تفسير الحنيفية -مباشرة- بأنها دين إبراهيم لأنه عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وكان لا يعبد إلا الله تعالى. وقيل: الحَنَف في اللغة: الاستقامة -فهو من الأضداد- قالوا: والحنيف في الدين: المستقيم على التوحيد، وعلى جميع طاعات الله عزوجل. ويبدو أن المعنى أو التفسير الأول أرجح، وإن كانت النتيجة واحدة أو متفقة في نهاية المطاف.

٣ - ثم توضح الآية -**ثالثاً**- أن هذا الدين المطلوب هو الفطرة في الواقع وحقيقة الأمر، لأنها-أي الفطرة- جاءت في الآية في موضع الدين، وفي معنى المبدل منه، والحالّ محلّه؛ (فأقم وجهك للدين حنيفاً، **فطرة الله**) أي دين الله، أو أعني دين الله. والمعنى: أقم وجهك للدين الحنيف-أو الذي

هو الحنيفية- والذي هو كذلك أو في الوقت نفسه فطرة الله.

وقد أكدت الآية هذا المعنى بقوله تعالى: (التي فَطَرَ الناس عليها) أي أن الناس أو البشر مخلوقون على هذا النحو الإيماني، مطبوعون عليه، لأن هذا يمثل نزعة أصيلة ثابتة في نفوسهم. وإن كانت تعرضهم أو تعرض لهم العوارض، والتي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأبوين مثالاً لها، أو تنبيها على أوّلها . . وربما أخطرها كذلك.

وهكذا تأتي كلمات: «الدين» و«الفطرة» و«الخلق» في الاستعمال القرآني في هذا السياق مترادف أو كالمترادف! قال ابن عطية في تفسير الفطرة: «والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدودة مهيَّأة لأن يميِّز بها مصنوَعات الله تعالى، ويستدل بها على ربّه جلّ وعلا، ويعرف شرائعه، ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطَر البشر، لكن تعرضهم العوارض. .»[1]

٤ - وأمر بارز رابع تدل عليه الآية الكريمة، يتمثل في الإجابة عن سؤال أو اعتراض فحواه: ألا تتحول هذه الفطرة وتتبدل، أو «تتطور» -كما يقال- في قادمات الأيام، وبعد دهور وعصور. . بحيث تستغني عن الدين والإيمان؟ أو بعبارة أخرى أو سؤال آخر: ألا تستغني هذه الفطرة عن الدين حين يرتقي ويتقدم (علم) الإنسان، فيرتقي به إلى الفضاء، أو يحمله إلى الجوزاء؟ أو يصل به إلى اللجج وأعماق البحار؟ أو حين يقفه على طائفة كبيرة من قوانين

---

(١) المحرر الوجيز ١١/ ٤٥٣

الطبيعة، وسنن الإنسان؟ . . الجواب: كلا ، والله تعالى يقول: (لاتبديل لخلْق الله) أي لا تبديل لفطرة الله التي خلق عليها الإنسان. . إنها لا تتبدل من تلقاء نفسها، بفعل التطور أو زيادة المعلومات والمعارف، ولا تبديل لها من جهة الخالق، كما أعلمنا سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة.

٥ - وأخيراً: تأتي كلمة «الدين» في الآية الكريمة حالّةً محلّ «الفطرة» ومبدلة منها أو في معنى المُبدلة منها والمعطوفة عليها: «ذلك الدّين القيّم»-أي وليس: تلك الفطرة المستقيمة- فعادت للحديث عن الدين الذي صُدّرت به الآية، وذلك للتأكيد القاطع على أن دين التوحيد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يكافيء الفطرة الإنسانية ويساويها، ويلبّي جميع أشواقها وتطلعاتها . . وأنه لابد منه للحياة الإنسانية السويّة.

الدين ليس مرحلة

يقتضينا الواجب العلمي أمام هذا التأكيد على أن التدين خلقٌ وفطرة، وأن «الدين» مطلب إنساني عام في مختلف العصور، وعند جميع الأمم . . أن نشير إلى الخطأ الجسيم الذي وقع فيه من ظنّ أن التدين مرحلة من مراحل الفكر الإنساني، أو أنه لا يعدو أن يكون مرحلة من المراحل التي مرّ بها هذا الفكر عبر تاريخ البشرية الطويل. وقد أطلقوا على هذه المرحلة : مرحلة الدين أو الفلسفة الدينية، قالوا: وقد ذهبت هذه المرحلة لتعقبها وتحلّ محلّها: مرحلة الفلسفة العقلية . . قبل أن تأتي في أعقابها أخيراً: الفلسفة التجريبية أو الحسيّة أو المنطق الوضعي: (الدين - العقل - الحسّ).

هذا الخطأ الجسيم يمكن أن يُعزى إلى جهل أصحابه بأن هذه المراحل ليست مراحل إنسانية، ولا تعبر عن تاريخ الفكر الإنساني، كما لا تعبر بطبيعة الحال عن حقيقة الإنسان، ولكنها تعبير عن تاريخ تطور الفكر في المجتمع الأوروبي وحده دون سواه!

وإذا كان الأوروبيون يتحدثون عن هذه المراحل بوصفها مراحل تنطبق على جميع الأمم والشعوب-على عادتهم في تعميم الأفكار والمصطلحات- أو بوصفها المراحل التي وقفوا عليها من خلال تاريخهم على أقل تقدير؛ فإن المشكلة بالنسبة إلينا تكمن في التعميم الذي وقعنا فيه نحن- وربما شعوب أخرى كذلك-من خلال النقل والترجمة، وتقليد ما يقوله الآخرون!

ومن المعلوم أن الإسلام ينظر إلى هذه النواحي أو الأبعاد الثلاثة على أنها أمور متجاورة في النفس الإنسانية في الوقت الواحد . . وليست أدواراً

متعاقبة يذهب دور أو ينقضي دورٌ ليحلّ محلّه ويأتي في أعقابه دور آخر، فالإنسان حسّ وعقل وروح . . بل إن الشخصية الإنسانية السويّة أو بمعناها الحق لا تتحقق أو لا تبرز في نظر الإسلام إلا حين يستجيب الإنسان لمطالب هذه الجوانب الثلاثة في وقت واحد. ونشير في هذا السياق إلى أن العقيدة الإسلامية تستجيب على نحو شامل ومتوازن-وإيجابي بطبيعة الحال- لهذه الجوانب، ولا تهمل واحداً لحساب آخر! وإذا صادف أن المجتمع الأوروبي لظروف خاصة تعامل مع هذه الأبعاد -نظرياً وفلسفياً- على أنها **أدوار متعاقبة لا أمور متجاورة**، فليس معنى ذلك أن يتابعهم جميع الناس، أو جميع الأمم والشعوب على هذا الخطأ والفساد. . وبخاصة في المجتمعات الإسلامية التي لا يجهل فيها مثقف، ولا عاميّ، أن العقيدة الإسلامية-أو الفلسفة الدينية الإسلامية- لا تتعارض مع العقل، ولا تهمل المادة أو الحسّ. . فضلاً عن تعاملها المعهود مع الروح.

ومن أجل تأكيد أن هذا تعبير محضٌ عن «واقع» تطور الفكر في المجتمع الأوروبي، وأنه لا يمكن أن يكون «إنسانياً» ينطبق على جميع الشعوب والأقوام . . نقول: إن هذه الأمور المتجاورة في الإنسان الواحد- أو الجوانب والأبعاد المختلفة- لو جاز أن تكون أدواراً متعاقبة، فينبغي تصورها أو تصور وقوعها، في تاريخ الفكر الإنساني، على نحو معاكس لما كان عليه الحال في«واقع» المجتمع الأوروبي، أي: الحسّ، ثم العقل، ثم الروح، لأن هذا هو الترتيب الذي يتلاءم مع تطور الفكر البشري و«ترقّيه» من أدنى الدرجات إلى أعلاها! **فالنظرة الواقعية** -كما يقرر الأستاذ العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله- تمثل مرحلة الطفولة النفسية، لا مرحلة النضج والكمال، لأن مبعثها الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليومية، ولأنها

من معدن القابلية والانفعال، لا من معدن الفاعلية والإنشاء. ولهذا فهي تقع في أول الطريق لا في نهايته!!

«**أما نظرة التعليل بالمعاني العامة** فإنها تنبثق في النفس على أثر ذلك، متى استيقظت ملكة التجريد والتعميم في التصورات والأحكام، فلا يكتفي الذهن حينئذ بجمع الحوادث المترابطة في سلسلة متعاقبة، كما تجمع الأعواد في الحزمة، بل يحاول ربطها برباط معنوي تدور في فلكه، ويكون كالسلك الداخلي الذي ينظم حبات العقد» ويؤكد الدكتور دراز أن المعارف الإنسانية لا تستحق اسم العلم حتى تأخذ بنصيب قليل أو كثير من هذا التجريد والتعميم الذي يضع كل مجموعة في نطاق يضبطها، تحت لقب مشترك يسهل به استحضارها، ويكون لها بمثابة قانونٍ كلّي تعلّقّ به جزئياتها. وهذا هو دور العقل أو عمله. وتبقى بعد ذلك **النظرة الروحية أو الدينية**، وواضح أنها لا تولد في النفس إلا حين يتسع أفقها، فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه، فهي أوسع النظرات مجالاً، وأوسعها مطلباً.

قال: «وهكذا ينقلب الترتيب الذي تخيّله الفيلسوف -أوغست كونت- رأساً على عقب، وتعود الحاجات النفسية الثلاث إلى أوضاعها الطبيعية المعقولة: حاجة الحسّ، فحاجة العقل القانع، فحاجة العقل المتسامي»[1].

وأياً ما كان الأمر، فإن الذي نضيفه هنا: هوأن هذه المراحل، أو هذا التقسيم المدرسي للمعرفة أو لعصور الفلسفة والفكر، لم يؤثر على واقع

---

(١) الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، للدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله تعالى. ص٨٧

الحياة والمجتمع الأوروبي، الذي بقي على ولائه لعقيدته الدينية على كل ما فيها من تناقض، ومن مخالفة للعقل والعلم، بل الذي بقي الكثير من فلاسفته ومفكّريه على هذا الولاء، محاولين تفسير هذه العقيدة على نحو لا يناقض العقل، من أجل أن يلبّوا في أنفسهم الحاجة إلى الإيمان، والرغبة في عدم مناقضة العقل في الوقت نفسه، يقول: «جورج سينتيانا» الإسباني المولد١٨٦٣- «إن الكاثوليكية أجمل ما في الوجود، على شرط ألا تُفهم بتفسيرها الحرفي، وإلا لكانت متناقضة»! ويقول في الإيمان-أي في الإيمان المسيحي الذي انتهى إليه- «إنه غلطة جميلة أكثر ملاءمة لنوازع النفس من الحياة نفسها»[1] قلت: وما كان أكثر ملاءمة للنفس من الحياة ذاتها لا يكون غلطة!! سواء أكانت جميلة أم قبيحة . . علماً بأن الدين أو الإيمان إذا كانت تطلبه النفس أكثر مما تطلب الحياة، أو نحواً مما تطلب الحياة ذاتها، فلا يمكن أن يكون خطأ أو غلطاً، ولكنه عين الحق والصواب! . . ليست المشكلة إذن في الدين، أو في الإيمان والاعتقاد، ولكنها في «عناصر الإيمان» أو في العقيدة المغلوطة نفسها التي انتهت إلى الفيلسوف الإسباني الأمريكي المشهور.

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة، تأليف زكي نجيب محمود وأحمد أمين، ص٤٠٢

العلمانية (أوالدنيوية) في المجتمع الأوروبي

١ - ظروف النشأة وأبرز التعريفات :

فُهمت العلمانية في العالم الإسلامي على أنحاء مختلفة ، ووضعت لها تبعاً لذلك تعريفات كثيرة قد تصل -في بعض الأحيان- إلى حد التعارض ، وهذا ما حملنا على تقديم هذا العرض لظروف نشأتها في المجتمع الأوروبي ، تمهيداً للوقوف على التعريف الذي يبلور أسباب هذه النشأة، من جهة ، ويفسّر طبيعة هذا المجتمع بعد سيادة العلمانية فيه ، من جهة أخرى . ونعتقد أن التعريف الأقرب إلى الصواب هو الذي يتوافر فيه هذان الأمران .

أ) يجمع المؤرخون على أن أوروبة عاشت «عصورها الوسطى» ليوم الدينونة حيث كان الإيمان والرغبة الملحّة في (الخلاص) هاجس الفرد الأوروبي ودافعه إلى العمل ، ومبرره للحركة والحياة! وحيث كانت الكنيسة -كذلك- أو لذلك ، تمثل كلَّ شيء ، أو أهم شيء في حياة أوروبة في تلك العصور!

وعلى سبيل المثال- الذي يوضح هذه الحقيقة- فإن أي زائر من أي مكان في العالم يقف اليوم أمام كاتدرائية نوتردام أو كولونيا أو الدومو في إيطاليا . . أو سائر الكاتدرائيات العظيمة التي بنيت في غرب أوروبة -في تلك العصور- سوف يشعر في قرارة نفسه بالإعجاب ، أو الانبهار المقرون بالتساؤل عن السبب الذي حدا بالألوف من البشر ، من معماريّين وحرفيين وحمّالين ونحّاتين ورسّامين . . أن يواظبوا على العمل المستمر من أجل هدف غاب عن أنظار معظمهم ، بسبب ضخامة المشروع وطول مدة إنجازه؟ ثم لا يجد سبباً أو دافعاً إلى ذلك أكبر ولا أعظم من الإيمان والرغبة الملحّة

للخلاص يوم الدّينونة، كما قال بعض الباحثين والمؤرخين «تلك كانت ذهنية العصور الوسطى في أوروبة، وهي التي حدت بالإنسان إلى الجدّ من أجل بناء لن يراه بكامله على الأرجح، لكنه يثق بدوامه، بل بخلوده كقدوة لما يتكره المؤمنون بتضامن وتناغم يلهمه التطلع نحو الأعالي، إن العامل المساهم في بناء كاتدرائية بلدته، يرى عمله المنهك والبعيد المنال فعلَ حبٍ وإخلاص لربّه. وهكذا رأى العديد من الأوروبيين آنذاكَ عملهم وحياتهم»[1].

ويمكن القول باختصار شديد: إن العصور الوسطى الأوروبية كانت عصور التطلع إلى السماء، أو التعويل عليها، والعمل لها، والالتفات نحوها. وقد كان ذلك على حساب «الأرض» و«الإنسان»! أي إن هذا التطلع الشديد إلى «الآخرة» أو الدّينونة ويوم الحساب، كان على حساب العمل للدنيا، واكتشاف طاقات الإنسان! أو كما يقول بعض الباحثين: **لقد نظر القوم إلى أنفسهم وإلى الدنيا بتهاون واستخفاف!**

ثم حدث للأوروبيين ما حملهم على إعادة النظر في أسلوب تفكيرهم وحياتهم، فأوقفوا تعويلهم على السماء أو الإلهيات والغيبيات، بعد أن غبروا في ذلك قروناً متطاولة! وقرروا أن يعودوا إلى أنفسهم، أو إلى (جذورهم الإنسانية) في الحضارة الإغريقية الرومانية، ليصلوا ما انقطع - من هذه الجذور- بُعيد تحول الدولة الرومانية إلى المسيحية في القرن الرابع الميلادي. وعادوا مرة أخرى للنظر في الأرض بعد هذا النظر الطويل إلى

(١) من مقالة للدكتور ريتشارد الخوري : الأكاديمي و المفكر اللبناني المقيم في واشنطن جريدة الحياة، ص٢٠ العدد رقم ١١٧٥٤ تاريخ ٢٧/ ٤/ ١٩٩٥م

السماء! فانتقلوا بذلك من الآخرة إلى (الدنيا)، وصار همّهم مصروفاً إلى «الدُّنيوية» لا إلى الأخروية أو الدَّينونة.

هذا هو مبدأ ظهور العلمانية -أو الدنيوية- في أوروبة.

والسؤال الآن: ما الذي حدث للأوروبيين حتى سلكوا هذا المسلك أو تحولوا هذا التحول؟ لقد حدث في ذروة ذلك التدين والتوجه إلى الآخرة، أو في ظل هذه الثقافة المسيحية، والمناخ الديني الذي ساد في العصور الوسطى، أن اجتاح الطاعون -أو الموت الأسود- أوروبة في القرن الرابع عشر، فمات ربع سكانها على الأقل! وفقد من بقي منهم على قيد الحياة الأقرباء أو الأصدقاء! ثم عانوا من المجاعة التي فتكت -بدورها- بالكثير ممن نجوا من الطاعون! ولم يلبثوا بعد ذلك حتى تغير مناخ القارة الأوروبية فجأة، فقاسوا شتاءً شديد البرودة لمدة مائتي عام. . وزادت بينهم الحروب الدينية المذهبية التي كانت طاعوناً من نوع جديد! حتى قيل: إن تاريخ معظم العائلات الألمان -وكانت ألمانيا أكبر الخاسرين في حرب الثلاثين الدينية (١٦١٨-١٦٤٨) - يصطدم بحاجز عند وصوله إلى النصف الأول من القرن السابع عشر!

أمام هذه الكوارث الشديدة والمتلاحقة، بدأ الأوروبي يطرح على نفسه الأسئلة التالية الهامّة والمصيرية: «لقد كنت مؤمناً، وقدمت أنا وأسلافي كل ما في إمكاني من الأعمال الصالحة: ضحّينا، بنينا، ابتهلنا، لم نتطلع لشيء غير الدينونة ويوم الحساب! في حين أننا نظرنا للحياة الدنيا بتهاون واستخفاف. أهذه هي المكافأة؟ طاعون، ومجاعة، وبرد قارس، وحروب دينية قاسية»!!.

لقد اجتاح أوروبة الغضب والشك، وإن لم ينته بها إلى الإلحاد! كل ما في الأمر أن الأوروبي أدرك إدراكاً عميقاً أنه لا يجوز له أن يستهين بالحياة الدنيا، وأن ينصرف بكل ما لديه من همة ومهارة وذكاء واندفاع نحو الآخرة أو الدينونة، بل يجب عليه أن يوجه نظره وفكره ليتغلب على العوز والجور والأوبئة وشتاءات بلاده الباردة والطويلة ! فإن الإيمان والدعاء وشفاعات القدّيسين، وتقديم النذور والقرابين، لم ينفع كله في التغلب على هذه الرزايا والبلايا والمشكلات.

«وتبعاً لهذا التغيير الجذري في الأولويات، أظهر الأذكياء من الشباب الأوروبي فضولية -أو اهتماماً ملحوظاً- تجاه كل من«الجسد» و«الطبيعة» لمعرفة أسرارهما، والتحقوا بكليات الطب والعلوم التي أُسِّست في مدن شمال إيطالية وجنوب فرنسة وشرق إسبانية، ومن ثم في سائر البلدان الأوروبية الغربية. وهي النخبة ذاتها التي كانت تستقطبها الأديرة وكليّات اللاهوت قبل حلول تلك الكوارث، وقبل أن يوضع منظور -واهتمامات العصور الوسطى- موضع الشك»[١].

ويمكن القول إنه تم في هذه المرحلة، وبخاصة بعد أن أثمرت هذه الحماسة نحو معرفة الدنيا اكتشافات وثورات هائلة (في الطب والزراعة والفلك) انتقال الفكر الأوروبي أو المجتمع الأوروبي **من عصر الدين إلى عصر العقل**. . على النحو الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة (الدين ليس مرحلة) وغني عن البيان أن هذه النقلة المعرفية، أو هذا التحول الحاسم، كانت له إرهاصاته وبداياته ومعاركه التاريخية الطويلة. . لأن العجز

---

(١) ريتشارد الخوري: المصدر السابق.

ادى هذا الاصطدام الى انتصار العلم وظهور العلمانية .

الأوروبي المشار إليه أمام الكوارث السابقة، كان يثير يوماً بعد يوم، أو مع كل كارثة وعجز «إنساني» التساؤلات، ويوحي بالشكوك، ويمهد لهذه المرحلة أو هذه النقلة في نهاية المطاف. . حين اجتاح الغضب أوروبة، وأذكى حماسة شعوبها لمعرفة الدنيا، وحل مشكلات الإنسان على الأرض!

ومن الطبيعي أن تقع تلك المعارك الطويلة مع (الكنيسة) أو أن تكون موجهة ضدّها حصراً أو إلى حد بعيد؛ نظراً للطبيعة الدينية لمرحلة العجز السابقة، ونظراً للموقع القيادي الذي كانت تتمتع به الكنيسة في هذه المرحلة، وعلى كل صعيد. بالإضافة إلى الممارسات الخاطئة التي وقعت فيها، والموقف السلبي الذي كانت تتخذه باستمرار من تحرك علماء الطبيعة، أو من اتجاههم -الدنيوي- نحو تعليل ظواهرها واكتشاف سننها وقوانينها. ومن المعلوم أن هذا التحرك -أو التحول- جاءت نتائجه مضادة تماماً «لآراء» رجال الكنيسة التي كانت قائمة على موروثات تاريخية مغلوطة، أو على التفسير بالمعجزات والكرامات وشفاعات القدّيسين! ولهذا فإن هذه الآراء الكنسية بدأت تتهاوى أمام العقل والتجربة والعمل الإنساني مع رحلة الفرد الأوروبي في البحث في الأرض، أو في مواقع أقدامه. . بعد هذا التعويل الطويل على السماء.

ويمكن عدّ هذا الصدام الذي انتصر فيه (العلماء) على (الكنيسة) في نهاية المطاف، آخر مراحل بروز العلمانية، أو مرحلة تكاملها ونجاحها وسيادتها على مسرح التاريخ الأوروبي.

ب- يمكننا بعد هذا العرض الذي أوضحنا فيه الظروف العامة أو البعيدة لنشأة العلمانية، أن نورد بعض تعريفاتها، كما جاءت على لسان الأوروبيين

أنفسهم، والتي أضحت مفهومة ومعروفة البواعث، ولا تحتاج منا لغير تعليق يسير:

١- مصطلح «العَلمانية» -بفتح العين- ترجمة غير دقيقة لكلمة "Secularism" الإنجليزية. وقد قالت دائرة المعارف البريطانية في تعريفها- أو في شرح هذه الكلمة أو المادة- «هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف توجه الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها. وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا، والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ "Secularism" -العلمانية- تعرض نفسها من خلال تنمية **النزعة الإنسانية**، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطامحهم في **هذه الدنيا القريبة**. وظل الاتجاه إلى العلمانية "Secularism" يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادّة للمسيحية»[1].

وجاء في المعجم الدولي الثالث الجديد في بيان هذه الكلمة أو المادة "Secularism" - «اتجاه في الحياة، أو في أي شأن خاص، يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب ألا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعاداً مقصوداً، فهي تعني مثلاً: السياسة اللادينية البحتة في الحكومة. وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن

---

(١) عن كتاب الأستاذ الدكتور سفر الحوالى : العلمانية، ص ١٢.

الاجتماعي، دون النظر إلى الدين»[1].

يتضح من هذين التعريفين-وغيرهما كثير- أن (العلمانية) نسبة إلى العالم (بمعنى الدنيا) أو العالمية "Secularism" ، وإن كانت نسبة على غير قياس، لأنها جاءت بزيادة الألف والنون، كما قالوا: نوراني وروحاني. ولكنها ليست نسبة إلى (العلم Science) على الرغم من أن المواقف المتشددة التي اتخذتها السلطات الكنسية ضد العلماء، والتي بلغت حدّ التحريق، كان لها تأثير كبير أو دور حاسم في نشوء العلمانية وتطورها في أوروبا. ولهذا فقد كان الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله يدعوها بـ«الدنيوية» ولا يطلق عليها اللفظ السابق المشهور أو المتداول في اللغة العربية.

وهذا هو ما دعانا إلى استعمال هذين المصطلحين: العلمانية والدنيوية في وقت واحد؛ إيضاحاً لفحوى العلمانية، أو لمعناها العام، وإسهاماً منّا كذلك بوضع مصطلح «الدنيوية» موضع التداول.

والواقع أن النسبة إلى «الدنيا» -كما رأينا- جاء من خلال ما أشرنا إليه، ونصّت عليه دائرة المعارف البريطانية، وهو التحول أو الاتجاه نحو الدنيا بدل الاهتمام بالآخرة والتوجه نحوها.

وكان من أبرز نتائج هذا التحول: تكريس القسمة أو المقابلة بين «الديني» و«الدنيوي» حتى إن لنا أن نقول: إن هذه القسمة أو المقابلة بينهما هي فحوى العلمانية، وخلاصتها؛ وإن شئتَ قلت: تعريفها، أو ما يشبه

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣.

التعريف؛ فالعلماني "Secular" -الأمر أو الشأن- هو ما يتعلق بالحياة الدنيوية، ومن ثم فليس له قداسة؛ يقابله: الأمر الديني أو الشأن الكنسي. ومنه: الموسيقى الدنيوية مقابل الموسيقى الدينية أو الكنسيّة، والمدرسة الدنيوية أو«المدنية» مقابل المدرسة الإكليركية.. فهاهنا إذن: حياة دنيوية غير مقدّسة، وحياة أخرى كنسية لها قداستها، هذه حياة الرهبان ورجال الدين، وتلك حياة سائر الناس في المجتمع المدني. وإذا كانت الحياة الكنسية تحكمها قيم الدين وأخلاق الكنيسة؛ فإن الحياة الدنيوية تحكمها القيم السلوكية والخلقية القائمة «على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي» كما جاء آنفاً في تعريف المعجم الدولي للعلمانية، أي تحكمها القيم التي يرتضيها الناس أو يقرّها المجتمع! أو بعبارة أخرى: التي يضعها الإنسان لنفسه «دون النظر إلى الدين» كما قال أيضاً أصحاب المعجم المذكور.

وهاهنا كذلك: الدولة والكنيسة، والمدني والديني، أو: الوضعي والديني -الذي صار مرادفاً «للغيبي» في كثير من الأحيان-.. إلى آخر هذه الثنائيات الكثيرة والحادّة، والتي لا يخلو بعضها من الغرابة والطرافة!

٢- العلمانية: أبرز الأسباب وأخطر النتائج:

إذا أنعمنا النظر في هذه الثنائيات، في ضوء ملابسات النشأة التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة، من جهة. وفي ضوء (الواقع) العلماني الذي ساد أوروبة في أعقاب تلك الملابسات، أو في نهاية المطاف، من جهة أخرى؛ وجدنا أن أبرز ما يميز العلمانية:

أ - ثنائية الدولة والكنيسة. أو فصل الدين عن الدولة.

ب - وثنائية التعليم الديني والمدني. أو فصل التعليم عن الكنيسة.

وفي كلتا الحالتين، أو أمام هذا الفصل وهاتين الثنائيتين تبرز الكنيسة بوصفها السبب الرئيس أو السبب الحاسم في ظهور العلمانية وسيادتها في أوروبة؛ الأمر الذي يفرض علينا الإشارة إلى طرف من واقع الكنيسة في هذين الموضوعين، أو إلى ممارساتها فيهما في العصوّر الوسطى، لأن هذه الممارسات هي التي حملت الأوروبيين على الفصل المشار إليه، أو هي التي انتهت بهم إلى تكريس هاتين الثنائيتين، وسائر الثنائيات الأخرى في العلمانية الأوروبية.

ونورد فيمايلي شرحاً موجزاً لكلٍ من:

أ - **التسلط الكنسي وحكم رجال الدين**، بوصفه السبب الأول لنشأة العلمانية. وما انبنى عليه وأفضى إليه من فصل الدين عن الدولة.

ب - **ولموقف الكنيسة من العلم واضطهادها للعلماء**، بوصفه السبب الثاني لهذه النشأة، وما أفضى إليه من فصل التعليم عن الكنيسة.

السبب الأول: التسلط الكنسي وحكم رجال الدين (الإكليروس):

لم يكد ينته القرن الثامن الميلادي إلا كان شارل ملك البرابرة قد نجح في تكوين دولة مترامية الأطراف في غرب أوروبة، وفي حماية البابوية ونشر

المسيحية، وإحياء كثير من مظاهر الحضارة الرومانية في الغرب[1]، وحين فكّر البابا في وسيلة يرد بها الجميل لهذا الملك الفرنجي الذي أنقذ البابوية، وأثبت في كل مناسبة أنه أخلص حليف لها، وأقوى دعامة للكنيسة الغربية؛ قام بمنحه لقب «إمبراطور»- بعد أن ظل العالم الغربي بدون إمبراطور منذ أواخر القرن الخامس- في الاحتفال الكبير الذي أقيم بكنيسة القديس بطرس تمجيداً لعيد رأس السنة(٨٠٠) وكان ذلك على النحو التالي: عندما انتهت الصلاة، تقدم البابا ليو الثالث بخطى وئيدة ممسكاً تاجاً ذهبياً في يده ووضعه على رأس شارل، الذي كان لا يزال راكعاً أمام المذبح، وقال: «اللهم امنح الحياة والنصر لشارل العظيم الذي تُوِّج بفضل الله إمبراطوراً عظيماً على الرومان» ولم يلبث أن علا صياح الحاضرين من محاربي الفرنجة ورجال الدين الإيطاليين، وأخذ الجميع يحيّون شارلمان بالطريقة التي كانت متّبعة مع الأباطرة الرومان[2].

ولقد لعبت هذه **الإمبراطورية الرومانية المقدّسة** التي أسّسها شارلمان، وهذه الطريقة التي تم بها تتويجه إمبراطوراً، والتي بدا فيها التاج الإمبراطوري في صورة منحة من البابا.. لعبت دوراً حاسماً في تدخل البابا في شئون الحكم والدولة، أو في سلطة البابا السياسية، والتي انحدرت في كثير من الأوقات إلى حدّ النزاع بين الإمبراطورية (المقدّسة) والبابوية (المتغطرسة)!

---

(١) راجع تاريخ أوروبة في العصور الوسطى، تأليف الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ص١٦٠، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٢ - ١٦٣.

وقد أوضح البابا جريجوري السابع موقف البابوية الحاسم في أحد صور هذا النزاع، عندما قال عبارته المشهورة: **«إن قوى الملوك مستمدة من كبرياء البشر، وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله، إن البابا سيد الأباطرة لأنه يستمد قداسته من تراث سلفه القدّيس بُطرس»**[(١)] كما جاء في الأوامر البابوية التي جمعت بعد وفاته بقليل (حوالي سنة ١٠٨٧) المواد التالية:

- البابا وحده هو الذي يتمتع بسلطة عالمية.
- البابا وحده يمتلك سلطة تعيين الأساقفة أو عزلهم.
- جميع الأمراء يجب أن يقبّلوا قدم البابا وحده!
- للبابا الحق في عزل الأباطرة.
- لا يجوز عقد أي مجمع ديني عام إلا بأمر البابا.
- ليس لأي فرد أن يلغي قراراً بابوياً، في حين أن من حق البابا أن يلغي قرارات بقية الناس.
- لا يسأل البابا عما يفعل، ولا يحاكم على تصرّفاته.
- للبابا أن يجيز لرعايا أي حاكم التحلل من العهود وأيمان الولاء التي أقسموها لحاكمهم[(٢)].

ويقول البابا أيضاً: إن من حق الكنيسة أن تحارب بالأسلحة الروحية والمادية كل حاكم يمتنع عن تنفيذ تعاليمها!

---

(١) الدكتور عاشور: تاريخ أوروبة فى العصور الوسطى، ص ٣٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٤ - ٣٠٥

ويبدو من هذه الآراء أن البابا كان يؤمن إيماناً جازماً بأنه هو صاحب السلطة العليا في حكم المجتمع المسيحي، وأنه يملك الحق في عزل الملوك والأباطرة بوصفه نائباً عن القديس بطرس.

وقد مرت العلاقة هذه بين الأباطرة -أو الحكام- والبابوات بمد وجزر طيلة القرون التالية، وتقلّبت بين السيادة البابوية المطلقة، والنزاع والشقاق والتحالف بين البابوية وكل من الأباطرة ورجال الإقطاع.. وهي الصورة التي كانت قائمة في نهاية العصر الأوروبي الوسيط.

وعلى الرغم من انحياز عامة الشعوب الأوروبية للكنيسة (الإكليروس أو طبقة رجال الدين) بحكم عقيدتها وقيمها وثقتها برجال الدين، ومنذ أن أصبحت الكنيسة وريثة للإمبراطورية الرومانية بعد انهيار النفوذ الإمبراطوري في الغرب خلال القرن الخامس، وبعد أن ظلت -بين ربوع العالم الروماني الذي اكتسحته جحافل البرابرة -المعقل الوحيد لمبدأ الوحدة والمركزية الروماني[1]. أقول: على الرغم من هذا الانحياز الذي كان له ما يبرره لقرون عديدة.. فإن الأمر وصل في نهاية العصر الأوروبي الوسيط إلى الحد الذي لا يمكن استمراره أمام التسلط الكنسي أو السلطان الكنسي الذي يمكن تعريفه -في هذه المرحلة الحاسمة- بأنه: سلطة رجال الدين التي تحالفت مع الملوك والنبلاء وأمراء الإقطاع، من جهة، والتي قاومت اتجاه العلماء نحو تعليل ظواهر الطبيعة واكتشاف سننها، من جهة أخرى.

---

(١) بالإضافة إلى ما منحته لرعاياها من أمن وحماية في ذلك العصر المضطرب. راجع: تاريخ أوروبة فى العصور الوسطى للدكتور عاشور، ص ١٩٢

فإذا تذكرنا أضرار هذا الحلف التي لحقت بالشعوب، وأضفنا إليها الأوضاع الفاسدة التي انحدرت إليها الكنيسة، مثل بيع المناصب الدينية وصكوك الغفران، وامتلاكها لعشرات الألوف من الأرقاء أو الأقنان. إلى جانب أملاكها الإقطاعية والأوقاف والضرائب التي باتت تشمل معظم الأراضي! أدركنا معنى المبدأ العلماني أو الفكرة القائلة: «إن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب ألا تتدخل في الحكومة» وأدركنا معنى استبعاد هذه الاعتبارات استبعاداً مقصوداً، كما قال أصحاب المعجم الدولي الذي أشرنا إليه.

إن هذا المبدأ أو هذا الفصل بين الدين والدولة أصبح مفهوماً ومبرراً.. بل مطلوباً كذلك بوصفه رد فعل على تلك الأوضاع، وتصحيحاً لها أو ثورةً عليها، فلابد أن ينتهي الحكم الدِّيني أو حكم رجال الدين المقدس الذي سام العباد الخسف، وهو يزعم أنه يستمد سلطانه من القديس بطرس، أو من الله! ليحل محلّه حكم يستمد فيه الحاكم العلماني سلطانه من الإنسان أو من الشعب، أو بعبارة موجزة: من الأرض لا من السماء!

ومن هنا ولدت هذه الثنائية العلمانية الهامة والخطيرة: الدولة والكنيسة، والتي كانت تعني إبعاد الكنيسة أو طبقة الإكليروس (رجال الدين) عن شئون الحكم والدولة، لتحل محلها(الدولة)[1]، ولتصبح -من ثم- هي المسئولة عن تنظيم العلاقات الدنيوية بين الأفراد، أو عن السلطة الزمنية -كما دُعيت- في حين تختص الكنيسة بتنظيم العلاقات (الدينية) أو

---

(١) يمكن القول إن العلمانية، أو (الدنيوية) استبدلت رجال الدنيا برجال الدين! ورجال الدنيا هؤلاء يمثلون (الدولة) أو هم الدولة في هذه الحالة. ومن هنا جاء المبدأ العلمانى: فصل الدين عن الدولة.

الروحية بين هؤلاء الأفراد. وحين تم للمجتمعات الأوروبية هذا الفصل بين هاتين السلطتين: الزمنية والروحية، وتم إقصاء رجال الدين عن السياسة وشئون الحكم، انتقلت أوروبا من الحكم الديني إلى الحكم المدني -كما دُعِي- أو انتقلت في ظل هذا الفصل من عصر إلى عصر.

ملاحظتان أو أمران مهمّان:

وعلينا أن نلاحظ هنا-في سياق الحديث عن هذه الثنائية التي جاءت رداً على الحكم الديني- أمرين: **الأول**: أن هذه الثنائية -ثنائية الدولة والكنيسة، أو السلطة الزمنية والسلطة الروحية- تدل على أن العلمانية تعني في الحقيقة: **اللاكهنوتية، وليس اللادينية!** لأن مضمون هذا الفصل أو فحواه سياسي لا صلة له بالعقيدة أو الدين، ولأن الغرض منه كان «اتقاء الاصطدام مع الكنيسة، وليس محاولة تخريب قيمها الدينية»[1] على حدّ قول الأستاذ الدكتور محمد البهي -رحمه الله تعالى- وبعبارة أخرى جامعة: **كان الغرض من هذه الثنائية أو هذا الفصل: رفع عدوان الكنيسة عن الناس، وليس إقصاء العقيدة الدينية عن الحياة، أو مناصبة الدين نفسه العداء!**

الأمر الثاني: أن فصل الدين عن الدولة، أو ثنائية الكنيسة والدولة هي التي بلورت فكرة (المواطنة) في المجتمع الأوروبي، أو حق المواطنة والمساواة بين رعايا(الدولة) بعد أن كان هذا الحق مقصوراً في الدولة الدينية على(الرعايا)من أصحاب مذهب الكنيسة، بل إن الكنيسة في حكمها

---

(١) الإسلام في حل مشكلات المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ص١٧، ط. مكتبة وهبه، القاهرة.

لا يتمتع بحق المواطنة سوى المسيحي الذي يتبع الكنيسة التي تحكم وعلى هذا هم ليس كذلك ليس له حق مواطنة .

(الديني) السابق لم تمارس فقط التمييز ضد أتباع (المذاهب) الأخرى، بل تعدته إلى أبشع صور الاضطهاد. وقد لعب الخلاف على طبيعة المسيح -على سبيل المثال- دوراً خطيراً في النفي والقتل، وإذكاء نار الحروب . . هذا، فضلاً عن موقف الكنيسة الذي كان أكثر رفضاً وشراسة ضد أتباع الأديان الأخرى، كما جرى مع المسلمين في ظل محاكم التفتيش، وفي حركة اضطهاد اليهود، وفحوى ذلك أن هؤلاء جميعاً لم يتمتعوا بحق (المواطنة) في ظل الحكم الكنسي -الديني والمذهبي- السابق، أو أن هذا الحق انتُقص وجرى العدوان عليه من قبل هذا الحكم.

ولهذا، فإن في وسع الباحث أن يعدّ **تكريس فكرة(المواطنة) من أبرز الإنجازات (العلمانية)** أو أحد أهم الإنجازات التي انبنت على التفريق بين الديني والمدني، أو بين الدولة والكنيسة. ويمكن لمن يتتبع تاريخ الحكم والسياسة أن يميز المرحلة التي انتقلت فيها الشعوب الأوروبية من الحكم الديني إلى الحكم المدني، أو من (الثيوقراطية) إلى (الديمقراطية)، حيث حلّ البرلمان محل الكنيسة، والنوّاب محلّ رجال الدين، ورئيس الدولة محل البابا، وحيث صار (الشعب) هو مصدر السلطات، وليس (القدّيس بطرس) أو حلّ الشعب محل الحق الإلهي المقدّس الذي استندت إليه الكنيسة في حكمها الطويل والمرير للشعوب الأوروبية.

وأخيراً، فقد تدل هاتان الملاحظتان بوضوح على **أن العلمانية قامت في أوروبة لضمان حرية المعتقد، وليس لكبته والعدوان عليه!** على خلاف مادلّت عليه فهوم وممارسات دعاة العلمانية في العالم الإسلامي، وكما سنتحدث عنه فيما بعد.

السبب الثاني : موقف الكنيسة من العلم والعلماء :

أما هذا الموقف، الذي انبنت عليه ثنائية التعليم الديني والمدني، أي التعليم الذي تختص به (الكنيسة) والتعليم الذي تقوم عليه (الدولة)؛ فقد كانت دوافعه وأسبابه في ممارسات الكنيسة أوضح من ممارساتها السابقة في باب السياسة والحكم، لأنها وصلت في هذا الموقف أو السبب إلى حد قتل العلماء وتحريقهم، ولم تكتف الكنيسة فقط بمطاردتهم أو تسفيه نظرياتهم وآرائهم، فكان لابد للعلمانية التي فصلت بين الدولة والكنيسة سياسياً أن تفصل بينهما (علمياً) كذلك، أو أن ترتب هذا الفصل العلمي أو المعرفي على ذلك الفصل أو العزل السياسي. والحقيقة أن هذين الأمرين من باب واحد، أو جاءا رداً على موضوع واحد هو الإرهاب الكنسي، سواء أكان في باب السياسة والحكم، أم في باب العلم والعلماء.

وقد أقدمت الكنيسة على تلك الأعمال الرهيبة، لأنها عدّت النظريات العلمية التي قال بها هؤلاء العلماء هرطقة (إلحاداً) وخروجاً عن الدين؛ إما بسبب مخالفتها للتوراة والإنجيل، أو لمخالفتها لأفكار أرسطو وبطليموس القديمة، التي تبنّتها الكنيسة في وقت سابق، وتتصدّى للدفاع عنها الآن!

تقول دائرة المعارف البريطانية: «إن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية رفضت أي نتيجة خالف فيها العلمُ الإنجيلَ»[1]، ويقول موريس بوكاي: «ففي الوسط النصراني وعبر قرون كثيرة بادرت سلطات مسؤولة بمعارضة

---

(١) يقول موريس بوكاي: «وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ» دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص١٤٥ دار المعارف ١٩٧٧.

تطور العلوم، واتخذت هذه السلطات ضد العلماء الذين كانوا يحاولون تطوير العلوم الإجراءات التي نعرفها، تلك التي دفعت بعض العلماء إلى المنفى، تلافياً **للموت حرقاً**، أو إلى طلب المغفرة بتعديل مواقفهم وبالتماس العفو»!.

أما لماذا الحرق؟ والجواب: لأنه الوسيلة لتطهير الجسد من الأفكار التي اعتبرتها الكنيسة هرطقة أو خروجاً عن الدين، كما قلنا؛ مثل القول بكروية الأرض، أو أنها ليست مركز الكون، أو أنها تدور بين الكواكب -وهي الآراء والنظريات التي قام العلماء بإثباتها بالتجربة والمشاهدة والحساب- وقد نسبت الكنيسة هذه الآراء إلى الشيطان!، قالت الكنيسة: والأجساد التي يسكنها الشيطان لا تتطهر إلا بالحرق وفق الطقوس الدينية، ولمصلحة أصحابها!![1].

وقد قامت الكنيسة بإحراق العالم الفلكي «جوردان برونو» سنة ١٦٠٠ بسبب إصراره على أن الأرض ليست مركز الكون، وجعلته بذلك عبرة لمن يعتبر.. أو جعلت مصيره هذا «أمثولة ما انفكت ترتسم في جباه العلماء سنين طويلة» على حد تعبير بعض المؤرخين، فقد جاء في حكم المحكمة التي مَثُل أمامها في روما سنة ١٦٣٢ أستاذ الرياضيات والميكانيكا والفلك: «غاليلي» بسبب قوله بدوران الأرض، مايلي: «إن نظرية دوران الأرض بعيدة منطقياً، وخطأ فلسفياً، وهرطقة دينياً، والقول بها يؤدي إلى مصير جوردان

---

(١) انظر مقالة بعنوان «غاليلي» للمؤرخ الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى، في صحيفة القبس الكويتية، ص٢٦، العدد ٥٨١٣ تاريخ ١٨/ ٧/ ١٩٨٨.

برونو»[1] وقد تمكن «غاليلي» من تأييد هذه النظرية التي سبقه إليها «كوبرنيق» عام ١٥٤٣ من خلال «التلسكوب» الذي توصل إلى صنعه بعد موت سلفه «برونو» ببضع سنوات!

وأمام هذه الممارسات التي ذهب ضحيتها الكثير من العلماء، أو علماء (الدنيا) و الطبيعة بعبارة أدق، كان لابد للعلم (التجريبي) المستند إلى الدليل الحسّي والبرهان المادي من أن يشق طريقه منتصراً في النهاية! خصوصاً وأن المعارضة التي قادتها الكنيسة في وجه هؤلاء العلماء كانت معارضة جدلية كلامية، أو دينية قامت على مبدأ التحريم والتحليل، وإطلاق الفتاوى ومصادرة الآراء! ولم تقم على الملاحظة والتجربة، ومعارضة نظرية علمية بأخرى مثلها، كما تقضي بذلك طبيعة القضية وواقع الحال! وفي «حيثيات» الحكم السابق الذي صدر ضد «غاليلي» بسبب قوله بدوران الأرض، ما يؤكد هذه الطبيعة الجدلية الكلامية لموقف الكنيسة.

١- ليست المسألة صراعاً بين الدين والعلم

والعجيب أن تُصوَّر هذه القضية أو المسألة: مسألة مقاومة الكنيسة لاتجاه العلماء نحو تعليل ظواهر الطبيعة واكتشاف سننها، أو موقفها السلبي هذا من العلماء وحركة العلم والتقدم العلمي بوجه عام، على أنها صراع بين (الدين) و(العلم) في التاريخ الأوروبي، أو أنها صراع بين الدين -أي دين، أو كلّ دين!- والعلم! علماً بأن المسألة كما لاحظنا في التاريخ الأوروبي نفسه لا تعدو أن تكون خطأً جسيماً وقعت فيه الكنيسة، أو رجال الدين المسيحي

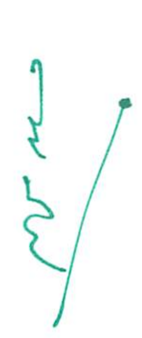
---

(١) المصدر السابق.

حين أقحموا أنفسهم في الدفاع عن آراء وأفكار عن الكون والطبيعة، قال بها القدماء، أو تسرّبت إلى الكتاب المقدس في تاريخ التحريف والتبديل، وأثاروا في وجه (العلماء) معارضة جدلية دينية، ليحموا تلك الآراء والأفكار بالدين، أو بمبدأ التحريم والتحليل!! ثم تعرضوا لبعض هؤلاء العلماء بالقتل أو الاضطهاد!

لا علاقة للدين المسيحي، بوصفه ديناً سماوياً قبل أن يتسرّب إلى كتابه التحريف، بشيء من هذا الموقف، أو هذا الاضطهاد. فضلاً عن أن يكون الأمر تعارضاً بين الدين، أي دين، والعلم، وبخاصة الإسلام كما سنرى في فقرة قادمة.

وهكذا فُصل التعليم عن الكنيسة، ونُزع حق هذه المؤسسة في الإشراف على التعليم العام، الذي أضحى من حق (الدولة) واختصاصها، في حين ترك للكنيسة الحرية في رعاية شئون التعليم الديني!.



٢- موقف العلمانية من معارف الدين والوحي

ولكن النتيجة التي أعقبت هذا الفصل، وبُنيت عليه، والتي لم تخل في الوقت نفسه من ردود الفعل تجاه تحريق العلماء واضطهادهم، من جهة. ومن انعدام الثقة بسائر المعارف (الدنيوية) التي تبنّتها الكنيسة أو جاءت في الكتاب المقدس، من جهة أخرى، هي: عدم التسليم بما جاء من هذه المعارف عن طريق الدين، أو نُقل عن طريق الوحي، مثل وقائع التاريخ، وقصص الأنبياء، وغير ذلك من المعارف (الدنيوية) المتعلقة بالإنسان.

ومن هنا جاء إنكار مؤرخي الأديان-العلمانيين- للوجود التاريخي لبعض الأنبياء، مثل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لأن الآثار والعاديّات والوثائق وسائر مواد التاريخ التي وقف عليها هؤلاء المؤرخون، أو انتهى إليها عصرهم، لا تؤكد هذا الوجود! قالوا: وإن مجرّد ذكر هؤلاء الأنبياء في (الكتاب المقدس) لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي!

ولا شك في أن القوم معذورون في مثل هذا الموقف، لأن هذا الكتاب وقد دخله التحريف والتبديل، انطوى على كثير من الأخبار والمواقف التي ثبت لهؤلاء العلماء أنها غير صحيحة، أو أنها مخالفة للواقع! ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما مصيبة المسلم الذي (يسحب) مثل هذا الموقف على القرآن والإسلام؟ وما السبب الذي يدفعه إلى ذلك؟ أهو الجهل؟ أم النقل والتقليد الأعمى؟ أم الزندقة والإلحاد؟! أم غير ذلك من الأسباب؟.

وأخيراً، يمكننا القول بهذه المناسبة، أو عند هذه النقطة: إن العلمانية الأوروبية، سواء انتهى بها المطاف إلى القطيعة الكاملة مع (النص الديني) أم لا، فإنها استبعدت بوجه عام معارف (الوحي) وأكّدت على أن«العلم» لا يكون علماً، أو لا تستحق مسائله هذا الوصف، إلا إذا ثبت بالتجربة، كما انتهت مع هذا كله، ومن خلال التاريخ الأوروبي وردود الفعل السابقة على الكنيسة، إلى دراسة (الإنسان) أيضاً، كما تدرس(الطبيعة) وسائر الأشياء! حتى كأن «الدنيوية»لا تتحقق إلا بالمادّة و(التجربة)! أقول: إن هذه المحصّلة تعد من أخطر ما واجه نظام المعرفة أو نظرية المعرفة عند سائر الأمم التي نقلت عن الأوروبيين، بوجه عام، وعند المسلمين بوجه خاص؛ نظراً للموقف السلبي الذي اتخذه المتغرِّبون من نقلة المسلمين ومترجميهم من (العلم) أو المعارف التي جاءت من طريق الوحي، وكان موضوعها التاريخ وسائر علوم

الإنسان والاجتماع.

وعلى أية حال، فإن أحداً لا ينكر أن ما ثبت بالتجربة يرتقي إلى درجة العلم، أو يستحق هذا الوصف، ولكن الذي يجب أن ننكره أشد الإنكار أن يكون «العلم» وقفاً على هذا النوع من المعرفة وحده دون سواه! والله تعالى أعلم.

** **

وتبقى هنا مسألتان أو نقطتان هامّتان: الأولى: موقف العلمانية -أو الدنيوية- من الإيمان الغيبي أو العقيدة الدينية، والتسليم بما وراء المادّة أو الغيب. والنقطة الثانية: مدى نجاح «الثقافة العلمانية» التي أفرزها عصر النهضة عندهم في الانقطاع عن المسيحية، وعن رواسبها وجذورها في المجتمع الأوروبي، أو بعبارة أخرى: مدى انفصال الفكر الأوروبي الذي ولد في ظل العلمانية، أو جاء تعبيراً عنها- في معظم الأحيان- عن الدين المسيحي!

٣ - موقف العلمانية من العقيدة الدينية:

يمكن القول: إن أقصى ما يدل عليه موقف العلمانية إزاء الأمور المتعلقة بالإيمان الغيبي أو العقيدة الدينية المسيحية، يتلخص في تأكيد قصر الدين على الدائرة الفردية، بحيث لا يتعدى حدود العلاقة بين المرء وربه -سبحانه- من جهة، وفي الزعم بأن التسليم بحقائق «الدين» أو بأخباره ومعتقداته، إنما يتم من غير طريق المعرفة بحقائق الكون وسنن الطبيعة! أي من غير

طريق«العلم»الذي تحدثنا عنه قبل قليل، فإذا كان «العلم» يثبت بالعقل والتجربة، فإن «الدين» يثبت عن طريق الفطرة، أو من خلال نصوص الكتاب المقدّس، أو التسليم-مجرّد التسليم- بما وراء الطبيعة، أو باختصار من أي طريق يراه المرء ويختاره لنفسه، وقد ارتأى الفيلسوف الكبير «كانْت» على سبيل المثال، في ظل هذا المناخ، أو في ضوء التعارض القائم بين العلم والدين، أو بين العقل والدين، أن يسلّم بالدين -المسيحي- وبما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) من خلال ما أسماه «العقل العملي»، فزعم أن العقل نظري وعملي، وأن وظيفة العقل النظري: التعامل مع الطبيعة، أما العقل العملي فوظيفته الإيمان، يقول كانْت: «لا يجوز أن يُقام الدين عى أساس من العقل النظري، ويقول أيضاً: «لا يمكن أن يقوم الدين على أساس من العلم والعقل، ولكنه يجب أن يرتكز على دعامة من الأخلاق»! وغني عن البيان أن «كانْت» يتحدث عن الدين المسيحي الذي انتهى إليه، لأنه خلط في حديثه هذا بين الدين والكنيسة، ورجال الدين ،والطقوس الكنسية .. إلخ[1]، وكأنه في خلطه هذا يومئ إلى طرفٍ من مبررات العلمانية التي أشرنا إليها.

وعلى الرغم من هذا الموقف المنهجي الذي اتخذته العلمانية من الدين والعقيدة المسيحية، والذي يمكن وصفه بأنه كان **موقفاً حيادياً** -وقد خلعت عن عاتقها سلطة الكهنوت ورجال الدين- إلى حدٍ كبير، فإن هذه العقيدة

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة، فقرة «نقد العقل العملي»ص١٩٤، وانظر الصفحات١٩٨-٢٠٠ ونشير هنا إلى أن تعميم آراء «كانْت» على الأديان، أو سحبها على الإسلام بوجه خاص يمثل خلطاً وجهلاً شنيعاً أو مركّباً لا يتسع المقام هنا لبيانه أو لبسط القول في أسبابه ونتائجه!

تعرضت بلا ريب لهزة وتشكيك، وقد ساعد على ذلك: شيوعُ بعض النظريات العلمية- وبخاصة نظرية التطور- في الأوساط الأوروبية عموماً، حتى عُرف عصر فولتير عندهم بعصر الإلحاد . . كما قلنا في مطلع هذا البحث.

ولكن ذلك- فيما نرجح- لم يكن أكثر من «رد فعل» موقوت أياً كان أمده . . من جهة. كما أنه بقي محصوراً في نطاق جمهور من الفلاسفة والمفكرين وبعض المثقفين . . ولم يتسع ليشمل جميع الأوساط . . من جهة أخرى.

بل يمكننا القول: إن الموقف السابق لفيلسوف مثل «كانْت» الذي يوصف عادة بأنه أبعد الفلاسفة غوراً! يدل -فيما نرى- على مدى حرص الفرد الأوروبي على الإيمان والاعتقاد، ومدى شعوره بأهمية العقيدة الدينية وضرورتها، أو ضرورة الدين للنفس الإنسانية، فإذا لم يكن في وسع «العقل» أن يؤمن، أو يبرهن على عقيدة أو ميتافيزيقا هي في الحقيقة ليست فوق العقل، ولكنها ضدّه ومناقضة لهً، لتجاوزها قانون السببية أو أحد قوانين العقل الفطرية -مثل عقيدة التثليث والعشاء الرباني أو عقيدة الاستحالة! -فلا بأس بقسمة العقل عند «كانْت» حتى يقف بالعقل النظري عند حدود عالم الشهادة (الطبيعة/ العلم) في حين يدع للعقل العملي- كما أسماه -مهمة الإيمان والاعتقاد ، والتسليم بما وراء الطبيعة (عالم الغيب)!

وأياً ما كان الأمر، فإن الذي نرجحه هو أن العلمانية -في تاريخ المجتمع الأوروبي على وجه العموم- كانت **موقفاً حيادياً بالنسبة للدين أو العقيدة المسيحية**. ولا يمكن أن يُفهم من هذا التاريخ أن العلمانية ذهبت إلى

تحريم الإيمان أو تجريم التدين! بل إنها في الحقيقة، وكما أشرنا فيما سبق، حمت حرية الإيمان والاعتقاد، واحترمت اختيار الإنسان.

وقد يتصور البعض أمام هذا الموقف الحيادي من الدين، أن أثر المسيحية في الثقافة والفكر الأوروبي من ثم قد تلاشى أو اضمحل! أو أن الفكر الأوروبي الذي ولد في ظل العلمانية، أو عبّر عن نفسه في مناخها السائد.. لم يعد له صلة بالدين!. وهو الأمر الذي لا نستطيع التسليم به، كما سنوضح ذلك في النقطتين التاليتين:

٤ - أثر المسيحية في الثقافة الأوروبية:

نريد أن نقرر أولاً صلة الثقافة بالدين، أو مدى عمق هذه الصلة واستمرارها. وسبيلُنا إلى هذا التقرير: مقدّمتان أو معادلتان، تنص الأولى على أثر العقيدة الدينية في انبعاث جميع الحضارات، وتقول الثانية: إن كل حضارة في التاريخ عبّرت عن نفسها من خلال ثقافة معينة. فإذا صح لنا هذا التقرير كانت النتيجة: تقرير أو إثبات صلة الثقافة بالدين.

أ - أما أثر العقائد الدينية في انبعاث جميع الحضارات، فيمكن الوقوف عليه من خلال استقراء حضارات التاريخ، هذا الاستقراء الذي دل على أن الدين كان عنصراً لازماً لكل حضارة من هذه الحضارات، بوصفه «عاملاً مركبا» لعنصري: الطبيعة والإنسان، أو لعناصر الحضارة الثلاثة التي ذكرها الأستاذ المفكر مالك بن نبي رحمه الله، على هذا النحو: (إنسان + تراب + وقت = حضارة).

يقول الأستاذ مالك: «فالحضارة لا تنبعث -كما هو ملاحظ- إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في كل حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، ولعله ليس من الغلوّ في شيءأن يجد **التاريخ** في البوذية نواة الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية. .»[1]

قلت: ولم تكن الحضارة الأوروبية بدعاً أو استثناء من حضارات التاريخ حتى تستغني عن النصرانية، أو عن دينها المسيحي!

ب- ثم إن كل حضارة في التاريخ عبّرت عن نفسها من خلال ثقافة معيّنة، أو من خلال ثقافتها الخاصة، ويعود السبب في ذلك إلى أن خصائص كل حضارة من الحضارات لا يمكن الوقوف عليها من خلال منجزاتها المادية، أو في حقل (العلم) التجريبي، لأن هذه المنجزات مشتركة، أو يمكن لأي حضارة أن تشارك فيها، ولكن يمكن الوقوف على هذه الخصائص من خلال «الثقافة»الخاصة بهذه الحضارة، أو من خلال تعاملها مع الإنسان كفرد، أو بوصفه عضواً في جماعة.

إن هذا الربط بين الدين والحضارة، ثم بين الحضارة والثقافة . . يصل بنا إلى ربط الثقافة بالدين، وإلى التأكيد على هذه الصلة بينهما على وجه العموم. علماً بأن مثل هذه الصلة يمكن تأكيدها كذلك من خلال ملاحظة التوافق القائم في العالم اليوم، أو في واقع الأمر، بين خارطات «الدين والثقافة والحضارة» فضلاً عن أسباب أخرى سوف نشير إلى بعضها في سياق الحديث عن أثر الدين المسيحي، على وجه الخصوص، في الثقافة الأوروبية

(١) شروط النهضة للأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، ص ٤٥ ط. دار الفكر بدمشق.

-موضوع هذه الفقرة- والذي حالت الشعارات العلمانية بين علمائنا ومثقفينا وبين ملاحظته ورصده لوقت طويل!

يقول الفيلسوف الشاعر الناقد: ت. س إليوت: «إن القوة الرئيسية في خلق ثقافة مشتركة بين شعوب لكلٍ منها ثقافتها المميزة هي الدين. وأرجو ألا تخطئوا عند هذه النقطة بتصور معنىً لم أقصده، فهذا ليس حديثاً دينياً، ولست أرمي إلى تحويل أحد عن دينه، وإنما أنا أقرر حقيقة. ولست شديد الاهتمام بوحدة المسيحيين اليوم، وإنما أتحدث عن سنن المسيحية المشترك الذي جعل أوروبة على ماهي عليه».

ثم يقول: «في المسيحية نمت فنوننا، وفي المسيحية تأصلت -إلى عهد قريب- قوانين أوروبة. وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الإطار المسيحي. وقد لا يؤمن فرد أوروبي بأن العقيدة المسيحية صحيحة، ولكنّ كل ما يقوله ويفعله يأتيه من تراثه في الثقافة المسيحية، ويعتمد في معناه على تلك الثقافة. ما كان يمكن أن تخرج فولتير أو نيتشه إلا ثقافة مسيحية. وما أظن أن ثقافة أوروبة يمكن أن تبقى حيّة إذا اختفى الإيمان المسيحي اختفاء تاماً، ولا يرجع اقتناعي بذلك إلى كوني مسيحياً فحسب، بل إني مقتنع به أيضاً بوصفي دارساً لعلم الأحياء الاجتماعي!»

ويضيف: «إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا، وعندئذ يكون عليك أن تبدأ البداية المؤلمة من جديد. ولن تستطيع أن تنشيء -أو تلبس- ثقافة جديدة جاهزة!! يجب أن تنتظر والألم يعصف بك، حتى ينمو العُشب ليغذو الضأن ليعطي الصوف الذي سيصنع منه رداؤك الجديد! يجب أن تمر بقرون كثيرة من الهمجية، ولن نعيش إذن لنرى الثقافة الجديدة، لا نحن ولا

أحفاد أحفادنا . . ولو عشنا لما سعد بها واحدٌ منّا»[1].

ويطول التعليق على هذه الآراء الهامة التي قالها «إليوت» وقد يحتاج الكثير منها إلى الشرح والبيان. وأكتفي بالقول: إن أبرز ما ذهب إليه بناءً على قوله: إن الثقافة الأوروبية ثقافة مسيحية: أمران: **الأول**: قوله بوحدة هذه الثقافة، الذي عقد له فصلاً خاصاً في كتابه الهام، وذلك على الرغم من تعدد القوميات واللغات الأوروبية، **والثاني**: قوله الأخير هذا، والذي تنبأ فيه بتلاشي «الحضارة الأوربية» -المؤسسة على هذه الثقافة- حين تفقد أصلها الديني . . والذي صوّره على هذا النحو المفزع الذي يعود بالإنسان إلى العهد الرعوي!! بعد أن يسقط من تاريخه كل أطوار الحضارة التي عرفها عبر ارتقائه الطويل . . والباهظ الثمن!!

والقدر الذي لانشك نحن فيه هو أن الثقافة الأوروبية ما تزال تحمل روح المسيحية وطابعها، وتمتد إليها جذورها ورواسبها. وهذا واضح في الفكر الأوروبي الديني، أو الذي لا يزال ينطلق من المسيحية أو يدور في فلكها، وهو كثير لا يستهان به . . وربما دلّت عليه الجهود العلمية المتصلة لرجال الدين المسيحي، الذين أضحى الكثير منهم معدوداً في الفلاسفة والمفكرين.

كما أن **الفكر الوضعي** -أو العلماني- ليس بعيداً جداً عن هذه الصورة، لأنه لم يأت على هذا النحو إلا من خلال أوضاع الكنيسة وتاريخ تكوّن العقيدة المسيحية، وما لحقها من أفكار ومفاهيم وثنية . . هذا فوق ما في هذا

---

(١) كتاب: ملاحظات نحو تعريف الثقافة، ترجمة د. شكري عياد.

الفكر الوضعي من ردود فعل، من وجه. وتأثر عميق بعيد المدى بالمناخ التوراتي والتلمودي. والذيً ولد واضعو ذلك الفكر فيه، ونشأوا في ظله. . من وجه آخر، ولهذا فإنه ليس من قبيل المصادفة -على سبيل المثال أو الاستطراد الذي لا بد منه -أن نجد أثر هذا المناخ في «النظريات العلمية» الرئيسة التي مازال تبنّيها والدعوة إليها يتم تحت عنوان «الوضعية» و«العلمانية» أو أنها نظريات لا علاقة لها بالدين! فالتفسير الجنسي للسلوك الإنساني الذي نادى به «فرويد» تمت بلورته من خلال التراث اليهودي التوراتي والتلمودي[1]. والتفسير الإقتصادي للتاريخ الإنساني، الذي قال به «ماركس» لا يعدو أن يكون جمعاً وتلخيصاً للنزعة المادية عند اليهود، أو في الفكر اليهودي عبر عصور التاريخ . . والتي لم يستطع اليهود أن يفهموا أيَّ عقيدة أو غيب، أو أي أمر من شئون الدنيا إلا في ظلها وانطلاقاً منها، بدءاً من وَجود اللهَ تعالى، حيث فهموا هذا الوجود فهماً حسياً، وشبّهوا الله تعالى بخلقه كما هو معلوم، وانتهاءً ببذل ما لا يُبذل في سبيل المادة والمال! ومروراً بعد ذلك بمقياس النبوة، وطبيعة المعجزة، ومؤهلات الزعامة والملك، والجزاء الحسّي في الدنيا. . إلخ هذا، فضلاً عن أثر مقولاتهم أو مأثوراتهم الدينية، كدعواهم بأنهم شعب الله المختار، وأن الإنسان ابن شعبه أو قومه، في كل من النزعة القومية العنصرية، والمذاهب الجماعية أو الاشتراكية التي عرفهاً الفكر الأوروبي بصورته «العلمانية» التي نتحدث عنها! ولعل هذا يفسّر النسبة الطاغية لليهود في العلماء هؤلاء أصحاب النظريات العلمية، ومدى تمتعهم -من ثم- بحق الهيمنة الفكرية في إطار الثقافة الغربية والحضارة الأوروبية.

---

(١) راجع كتاب: التراث اليهودي الصهيوني وأثره في فكر فرويد، للأستاذ الدكتور صبرى جرجس. دار المعرفة القاهرة: ١٩٦٧.

وهكذا يصعب -بل يستحيل- علينا أن نسلّم «بإنسانية» هذا الفكر وموضوعيته، أو بانقطاع صلته بالدين، كما يصعب علينا كذلك أن نفهمه وندرك أبعاده خارج ملابسات النشأة الشخصية، والبيئة الأوروبية ومفاهيمها الخاصة عن الدين والعلم، والدولة والكنيسة، وما لحق بهذه المفاهيم من تطور، وما أصاب تلك البيئة أو جرى عليها عبر عصور التاريخ.

٥ - الحد الأدنى لتأثر مقولات الفكر العلماني بالدين:

وأياً ما كان الأمر بشأن هذه النقاط، وسواها، فإن القدر الهام، والذي في وسعنا تأكيده، في هذه العجالة، والذي يَبعد عندنا أن يجري حوله الخلاف، هو:

أ - أن أصحاب الفكر (الوضعي) -أو العلماني أو غير الديني- لم يكن في مقدورهم إغفال **الميراث الثقافي** الذي انحدر إليهم ونشأوا عليه! حتى ولو لم يتجاوزا فيه -وهذا أضعف الإيمان- حدود **اللغة أو اللسان**! فاللغة هي أداة الاتصال بين الفرد والجماعة، وبين الفرد والعالم الخارجي، أو بين الفرد والأشياء! بل إن الفرد لا يعي ذاته إلا بواسطة الكلمات! وهكذا يتم تلقي «الثقافة» كلها بواسطة اللغة، ولهذا فإن الأستاذ العلامة «فيليب فينكس» لم يُبعد حين وصف اللغة بأنها «مرآة الثقافة كلها»[1].

ب - يضاف إلى ذلك أن أصحاب هذا الفكر (الوضعي) لم يغفلوا بطبيعة الحال المشكلات التي كانت تعاني منها مجتمعاتهم، في المرحلة التاريخية،

(١) راجع كتاب «فلسفة التربية» للدكتور فيليب فينكس، ترجمة الدكتور محمد لبيب النجيحي، ص ٦٤٨، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٥.

التي وجدوا فيها أو عاصروها. ولهذا فإن ممارساتهم المبنية على هذا الفكر جاءت مبررة، أو على الأقل مفهومة! وهذا هو السبب في مُغايرة هذه الممارسات لفهوم وممارسات النقلة والمترجمين لهذا الفكر من أبناء الثقافات الأخرى، وبخاصة أبناء الثقافة الإسلامية، كما سنرى بعد قليل. إن فهم أبناء الثقافة الأوروبية للعلمانية-ولسائر ماجاء في سياقها من مذاهب وأفكار كالماركسية والوجودية - كان مغايراً لما جرى عليه العمل والفهم عند النقلة والمترجمين!!

ولهذا أيضاً بقيت العلاقة قائمة بين مبادئ وشعارات هذا الفكر الوضعي العلماني الأوروبي، وبين تلك الأوضاع التاريخية والميراث الثقافي اللغوي، لم تنبتّ ولم تُقتلع جذورها . . فالعلماني أو الماركسي الأوروبي سرعان ما تعود شخصيته المسيحية التي بدا للناظر أنها اختفت وراء القشرة العلمانية أو الطّلاء الماركسي إلى الظهور مرة أخرى أمام خيار حاسم . . بل في عملية «حك جلدٍ» عابرة في بعض الأحيان!!

إن بذور (الفكر العلماني) وجذوره، وتربته، وقوالبه . . ليست علمانية في نهاية المطاف!

وعلينا أخيراً أن ننعم النظر في «ممارسات» أوروبة «النصرانية» . . أو في الممارسات المسيحية -وليس العلمانية- لأوروبة، وبخاصة في شقها الاشتراكي السابق . . ضدّ المسلمين، أو في مواجهة العالم الإسلامي اليوم، لندرك الفرق بين الشعارات والممارسات، ولنقرأ بواطن وبواعث «الشخصيات» ولنقف على جذور الثقافات والحضارات.

والخلاصة : أننا قد نسلّم بعلمانية الدولة والنظام، ولكن لا يمكننا أن نسلم بعلمانية الفكر والثقافة، وإذا سلم بعضنا بعلمانية الفكر والثقافة، فليس في وسع أحد أن يسلم بعلمانية الحياة والسلوك.

الدعوة إلى العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي

كان للمفاهيم الدينية السائدة في العصور الوسطى الأوروبية -كما رأينا- أثرها في جعل اهتمام الناس مصروفاً إلى الآخرة على حساب الدنيا، كما كان لها أثرها -مع بعض الأسباب الأخرى- في التسلّط الكنسي الذي شكّل المناخ الحقيقي لنشأة العلمانية ونموّها في تربة المجتمعات الأوروبية المسيحية في تلك العصور.

ورأينا كيف قامت هذه العلمانية على مبدأ الفصل بين الديني والدنيوي، أو الديني والمدني بوجه عام، وكيف أفضت إلى ذلك الانشطار لسريرة الإنسان عبر تلك الثنائيات التي تحدثنا عنها، والتي كان أبرزها: ثنائية الدّولة والكنيسة، وثنائية التعليم الديني والمدني، وإن شئت قلت: ثنائية السلطة (الزمنية والروحية) وثنائية التعليم!

وغني عن البيان أن الثقافة الإسلامية لم تعرف تلك المفاهيم التي تحمل الناس على التوجه للآخرة، والعزوف عن الدنيا! لأن الجمع المتوازن بينهما يعدّ من خصائص الإسلام التي لا تخفى على أحد. وقد أشرنا كذلك في فقرة (الدين ليس مرحلة) إلى أن الإسلام لم يتعامل مع أبعاد الإنسان (الجسم والعقل والروح) على أنها أدوار متعاقبة -كما فعل الأوروبيون في تاريخهم- ولكن على أنها أمور متجاورة، لابد من الاستجابة لحاجاتها وضروراتها، وتلبية تطلعاتها وأشواقها على صعيد واحد، أو في وقت واحد.

ومعنى ذلك أن تلك المفاهيم الدينية المسيحية المغلوطة والتي مثّلت الأسباب البعيدة للفكر العلماني في أوروبة لم تعرفها الثقافة الإسلامية، أو

لا وجود لها في مبادئ الإسلام.

كذلك لم يعرف التاريخ الإسلامي -أو الإسلام في واقع الحياة والتطبيق- ذلك التسلط الكنسي، ولا حكم رجال الدين، ونحو ذلك من الأسباب التي سبقت الإشارة إليها. وعلينا أن نقف هنا عند السببين البارزين السابقين: الحكم الديني، والصراع بين الكنيسة والعلم؛ إذا أردنا أن نثبت أن العلمانية في العالم الإسلامي لا داعي لها، أو ليست هي طريقه إلى النهضة والتقدم كما حصل في أوروبة، مع التذكير مرة أخرى بأن الحكم الديني هو السبب في القول بثنائية السلطة. وأن الصراع بين الكنيسة والعلم، أو موقف الكنيسة من قضية التقدم العلمي واكتشاف سنن الكون هو السبب في القول بثنائية التعليم!

وسوف نرتب البحث هنا في مطلبين اثنين: نتناول في الأول موقف الإسلام والتاريخ الإسلامي من هذين السببين، لبيان أن الدعوة إلى العلمانية في العالم الإسلامي تفتقد جميع أسبابها ودواعيها ومبرّراتها! ونتحدث في المطلب الثاني عن أبرز النتائج السلبية والمفجعة التي انبنت -وسوف تنبني- على نقل هذه التجربة العلمانية إلى العالم الإسلامي، والتبشير بها والدعوة إليها، فضلاً عن فرضها عليه بأي وسيلة من وسائل الفرض والتعميم.

المطلب الأول: رفض مبررات الدعوة إلى العلمانية في العالم الإسلامي

١ - الحكم الديني:

أما الحكم الديني (الثيوقراطي) فلا نقف أمامه طويلاً، لأن من المعلوم أن الإسلام ليس فيه طبقة «إكليروس» أو كهنوت ورجال دين حكموا- أو يحكمون- بالحق الإلهي المقدس. والحاكم في الإسلام مجتهد وليس بمعصوم، وهو ليس وكيلاً عن الله، ولكنّه وكيل عن الأمة .. ويرتقي فيها إلى مقعد الإمامة بالاختيار والبيعة والشورى، و«العَقدُ الاجتماعي» بينه وبين الأمة قائم على طاعته لله في أبنائها، بأن يحكمهم بالعدل، ويأخذهم بأحكام الله، أو بعبارة جامعة: بأن يطيع الله تعالى فيهم، كما قال الخليفة العظيم أبو بكر رضي الله عنه في أول خطبة سياسية جامعة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيتُه فلا طاعة لي عليكم» أليس هذا هو «العقد الاجتماعي» بين الخليفة والأمة، أو بين الحاكم والرعيّة، يتجلى في هذا النص الدستوري الجامع- وفي هذا العصر المبكرّ -في أزهى صوره، وأوجزها عبارة، وأصدقها قولاً! .. إنه عقد عبّر عنه الخليفة كذلك بوصفه عقداً «مكتوباً» أو مدوّناً نزل به القرآن، ونطق به الوحي .. قبل أن تمضي عليه سنة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين .. أطيعوني مادمت مطيعاً لله تعالى فيكم! فإن لم أفعل فلا طاعة لي عليكم أو في أعناقكم؛ إنه -إذن- وبكل وضوح حق الخروج على الحاكم إن لم يأخذهم بأحكام الله، ويسوسهم بالعدل، وليست طاعة مطلقة أو عمياء بحكم النيابة عن الله، أو بالحق الإلهي المقدس! فالشريعة أو الأحكام الثابتة

المنزلة من عند الله في هذه الحال ليست افتئاتاً على الأمة، ولا ميزة للحاكم، -لأنه ليس في وسعه تبديلها أو تعديلها أو الاحتيال عليها- ولكنها الضمانة الحقيقية والثابتة للحق والعدل. وليست هي من «الثيوقراطية» أو الحكم الديني -الأوروبي- أو حكم رجال الدين بسبيل! لأن الأمّة هي مصدر السلطات، وليس (الدين) أو الحق الإلهي، لأن الدين عندنا هو مصدر التشريع، وليس مصدر السلطة، بل إن الشريعة هي التي تقف في وجه السلطة إن صح التعبير؛ بمعنى أن العلماء والفقهاء وسائر حملة الشريعة والمدافعين عنها كالقضاة والمفتين ونحوهم، كانوا يتقدمون الصفوف لمقاومة الظلم والطغيان وسائر وجوه الاستبداد.

ومن هنا تبدو الأهمية البالغة لفلسفة الاتباع التي تحدث عنها أبوبكر رضي الله عنه في الخطبة المذكورة حين قال: «إنما أنا متَّبع ولست بمبتدع» لأن الاتباع في هذه اللحظات الحاسمة بعد انقطاع الوحي، هو آكد الأمور وألزمها لتحقيق العدل الذي رسم معالمه القرآن الكريم، ومضت آياته البيّنات في تقريره إلى يوم الدين، فضلاً عن أن فلسفة الاتباع بعامّة هي الطريق المؤكدة لخلود القرآن وصلاحية أحكامه لكل زمان ومكان، لأن هذه الفلسفة تعني أول ما تعني استنهاض العقل للنظر والاجتهاد في نصوص القرآن بدل التعسف في «ابتداع» ما قد يصلح لتلك اللحظة، أو يناسبها.. وقد لا يصلح أو لا يناسب غيرها بعد دهور وعصور!! لله ما أشد نفاذ هذه البصيرة الصدِّيقيَّة في ذلك الموقف التاريخي الحاسم! هذا فضلاً عن المعاني السياسية الدستورية الهائلة التي انطوت عليها هذه الخطبة القصيرة الجامعة.

أ- حكم ديني أم مدني:

وقد يمكن وصف الحكم الإسلامي، إن جاز لنا أن نأخذ بالثنائية العلمانية التي أشرنا إليها، وأن ننطلق منها ونبني عليها، بأنه ديني ومدني معاً. . ديني من حيث تأسيسه على الأحكام الثابتة في الإسلام (أحكام الكتاب والسنة) ومدني من حيث البيعة والشورى والأحكام الاجتهادية، ومن حيث **المعارضة السياسية المشروعة** -والتي لا وجود لها بالطبع في دولة رجال الدين «الثيوقراطية»- علماً بأن هذه المعارضة ربما كانت وحدها مَعْلَماً كافياً لبيان الفروق بين الحكم الإسلامي والحكم الثيوقراطي. ونستطيع التأكيد هنا على أن هذه المعارضة ترتقي في الحكم الإسلامي إلى درجة الواجب السياسي الاجتماعي الأخلاقي- ومحاولة تكوين رأي عام أو التأثير عليه- عملاً بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتطبيقاً لمقولة الصِّدِّيق رضي الله عنه: «إن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني»! ولمقولة الفاروق رضي الله عنه: «من رأى منكم اعوجاجاً فليقوِّمْني»!

وليست هذه المعارضة حقاً فقط كما في بعض النظم البرلمانية المعاصرة، أو واجباً حزبياً، كما في بعض النظم الأخرى. . ولكنها واجب ديني وسياسي وأخلاقي للدفاع عن الأمة ورعاية مصالحها. وفي جميع الأحوال، فنحن لا نرى أن هذه الثنائية العلمانية تصلح منطلقاً لوصف الحكم الإسلامي . . وقد تصلح مدخلاً للوقوف على مزاياه وخصائصه، كما سنوضح في الفقرة التالية.

ب - دولة إسلامية أم دولة دينية؛

وقد تحرّج بعض العلماء والباحثين[1] من وصف دولة الإسلام بأنها دولة دينية، ووصفوها بأنها دولة إسلامية، **نظراً** لمخالفة هذه الدولة لمفهوم الدولة الدينية التي عرفتها أوروبة في قرونها الوسطى، **ونظراً** لأن الإسلام أوسع وأكبر من كلمة «دين»!

وفي هذا يقول الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي: «ونريد أن نقول لهؤلاء الذين يتهمون دعاة الإسلام بأنهم يدعون لإقامة دولة دينية: إنكم تقولون على دعاة الإسلام غير الحق، وتقوّلونهم ما لم يقولوا، فهم يدعون أبداً إلى إقامة دولة إسلامية ولم يدعوا يوماً -ولن يدعوا- إلى دولة دينية.

«وفرق كبيرٌ بين الدولة الإسلامية، أي الدولة التي تقوم على أساس الإسلام، والدولة الدينية التي عرفها الغرب النصراني في العصور الوسطى، وعلّة ذلك أن هناك خلطاً كبيراً بين ما هو إسلامي وما هو ديني، فكثيرون يحسبون أن كل ما هو إسلامي يكون دينياً. والواقع أن الإسلام أوسع وأكبر من كلمة دين. حتى إن علماء الأصول المسلمين جعلوا الدين إحدى الضروريات الخمس أو الست التي جاءت الشريعة لحفظها. وهي الدين والنفس والعقل والنسب والمال، وزاد بعضهم: العِرض.

«أضرب مثلاً موضحاً، نحن ندعو إلى تربية إسلامية متكاملة، وهذه التربية تشمل أنواعاً من التربية تبلغ بضعة عشر نوعاً، إحداها: التربية الدينية، إلى جوار التربية: العقلية والجسمية والخلقية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والأدبية والمهنية والفنية

---

(١) الأستاذ الفاضل الدكتور يوسف القرضاوي، والكاتب الصحفي السيد فهمي هويدى

والجنسية . . إلخ. فالتربية (الدينية) شعبة واحدة من شعب التربية (الإسلامية) الكثيرة[1]» أهـ.

قلت: ونحن لا نذهب إلى هذا الرأي ، لأننا لا نرى مانعاً من وصف الدولة الإسلامية بأنها دولة دينية، ووصف الحكم الإسلامي بأنه حكم ديني ، بل نرى ذلك أصوب وأعدل ! وليس من الضروري أن يلحق الحكم الديني الإسلامي في هذه الحال ما وصفت به الدولة الدينية في أوروبة . . فالحكم غير الحكم، والدين غير الدين، والممارسات غير الممارسات . . والتاريخ غير التاريخ ! وليس من الضروري أن نعيد قراءة مصطلحاتنا ، أو أن نعدّلها -سعةً وضيقاً- حتى تكون متفقة مع مصطلحات الآخرين، أو مفهومة في ضوء ممارساتهم! نقول: دولة الإسلام دولة دينية، ونقول: الحكم عندنا حكم ديني، ولا يلحق بذلك أي شبهة في أنه من نوع الحكم الديني الإلهي الذي عرفته أوروبة في العصور الوسطى. وإذا كان خطاب دعاة العلمانية عندنا يستدعي أكثر من ذلك حتى يعقلوا عنا مصطلحاتنا ومصطلحات قومهم، وأصول ثقافتهم ، وواقع تاريخهم! فلا مانع من القول: إن دولتنا دينية، ولكن مفهومها وممارساتها وأسس بنائها أقرب ما تكون إلى ما يسمَّى عند الآخرين دولة مدنية! هذا إذا سلّمنا بأن لهذه المقابلة -أصلاً- بين الديني والمدني معنىً، سواء أكان مقبولاً أم غير مقبول، في غير نطاق التاريخ الأوروبي، أو في نطاق التاريخ الإسلامي على أقل تقدير.

ونؤكد هنا مرة أخرى على أن هذه المقابلة لا تعدو أن تكون واحدة من الثنائيات التي أشرنا إليها في هذا البحث، فإذا تذكرنا أن هذه الثنائيات لا عهد

---

(١) كتاب بينات الحل الإسلامى للأستاذ القرضاوى ، ص ١٥٨

للإسلام بها، لا على مستوى النظر، ولا في واقع التطبيق، أدركنا أن استعارة بعضها قد ينطوي على التسليم ببعض مقولات العلمانية الأوروبية!.

أما أن يقال إن هناك خلطاً كبيراً بين ما هو إسلامي وما هو ديني!! بحجة أن الإسلام أوسع وأكبر من كلمة «دين» فنحن ممن يذهبون إلى هذا الخلط، أو يقولون بهذا الرأي، عملاً بما نفهمه من قوله تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام) ونسمّيه في هذه الحالة تطابقاً، ولا نسمّيه خلطاً.. مع الإشارة إلى أن كلمة «دين» قد تأتي في مصطلح بعض علمائنا القدامى بمعنى العقيدة أو أركان الإيمان، وإلا فنحن مضطرون إلى الارتقاء بسند العلمانية إلى هؤلاء العلماء لأنهم فصلوا بين «الدين» وسائر الضروريات الخمس أو الستّ الأخرى!

كما قد تُستعمل «التربية الدينية» بمعنى التربية الروحية، ولا يقصد من هذا الاستعمال: التفريق بين التربية الدينية والتربية الإسلامية، أو أن التربية الإسلامية -بمختلف شعبها- لا تسمى تربية دينية.. أو العكس.

ونشير بهذه المناسبة إلى أن الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله الذي فصّل القول في نحو هذه الأنواع من التربية، في سياق حديثه عن علاقة علم الأخلاق بالتربية.. أراد أن يوضح أن علم الأخلاق-النظري- يبسط سلطانه على جميع أنواع التربية بدون استثناء، ولا يقتصر أثره كما قد يظن على «التربية الخلقية» وحدها[١]. والمسألة هنا، كما نرجح، مسألة فنّية بعيدة

(١) راجع رسالته القيمة: كلمات في مبادئ علم الأخلاق. وانظر فيها حديثه عن علاقة علم الأخلاق بجميع أنواع التربية: الدينية والأدبية والفنية والخلقية والوطنية والعسكرية.. إلخ.

عما استشهد به أو ذهب إليه الأستاذ الفاضل الدكتور القرضاوي. وربما كان هذا التقسيم على الرغم من ضرورته التعليمية قد سرت إليه أو تسربت إليه الروح العلمانية التي صنعت في التاريخ الأوروبي مثل هذه التقسيمات. والأرجح أن تكون التربية الدينية في حديث الدكتور دراز رحمه الله يراد بها التربية الروحية أو الإيمانية على كل حال.

ولايقال أخيراً إن (الدولة الدينية) قد تكون مرفوضة أو موضع نظر من قبل غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية، لأن هذا الموقف ينطبق بدوره على(الدولة الإسلامية)! علماً بأن المسألة ليست مسألة تسميات ومصطلحات، ولكن مسألة حقوق وممارسات. إن حق المساواة وسائر حقوق (المواطنة) التي يتمتع بها جميع أبناء المجتمع في دولة الإسلام، - سواء وصفنا هذه الدولة بأنها دولة دينية، أو دولة إسلامية، أو دولة دينية إسلامية! - بغضّ النظر عن أديانهم السماوية ومذاهبهم، لم تكن في يوم من الأيام موقوفة على النقلة التي لم يكن لها وجود في هذه الدولة من الحكم الديني إلى الحكم المدني.. ولا على وصف هذه الدولة بأنها دولة مدنية لا دولة دينية، ولا على وصفها بأنها دولة إسلامية لا دولة دينية؛ لأن مثل هذا التفريق في النطاق الأوروبي، أو هذه الثنائية بين الدولة والكنيسة (أو بين سلطة رجال الدين وسلطة الدولة) هي التي بلورت فكرة (المواطنة) وكرّست من ثم مبدأ المساواة بين المواطنين على اختلاف مذاهبهم الدينية كما أوضحناه فيماسبق عند حديثنا عن فصل الدين عن الدولة في العلمانية الأوروبية، وفي جميع الأحوال فإن الأمر الحاسم في هذه المسألة أن الإسلام ليس عقيدة، أو ليس عقيدة إيمانية أو روحية فحسب، بل هو كذلك شريعة ونظام حياة، وإذا انفصل غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية عن الإسلام في جانبه العَقَدي

أو الإيماني، فإنهم متصلون به في جانب الشريعة والنظام، أو في الجوانب الأخرى على وجه الإجمال. فإذا كانت هذه الجوانب هي التي سُمِّيت «مدنية» أو هي المرادة بالجانب (المدني) في الإسلام، فإن الموقف لا يسمح لنا فيما نقدر بالفصل بينها وبين العقيدة.. بحيث نقصر وصف (الدِّين) على العقيدة وحدها، ونجعل (الإسلام) وصفاً شاملاً للعقيدة ونظام الحياة! والله أعلم.

قلت: هذه خلاصة سريعة عن مدى مغايرة مفهوم الحكم في الإسلام لمفهوم الحكم الديني (الثيوقراطي) الأوروبي. وقد اتضح لنا من خلالها أن أحد مبرري الدعوة إلى العلمانية في المجتمعات الأوروبية لا وجود لها أو لا نظير لها في الإسلام.

٢- موقف الإسلام من العلم والتقدم العلمي

ويبقى المبرر الثاني المتمثل في الصراع بين الكنيسة والعلم، والذي نعرض له من خلال بيان موقف القرآن الكريم -بوصفه المصدر الأول للثقافة الإسلامية- من العلم ومن اكتشاف سنن الكون والطبيعة.

ولكننا نبدأ أولاً ببيان أنه كان في وسعنا أن نعرض لهذا المبرر الثاني من خلال (**الواقع التاريخي**) للحضارة الإسلامية فقط لبيان أن هذا الواقع لم يعرف ذلك الصراع الذي شهده (التاريخ) الأوروبي بين الدين والعلم، أو بين الكنيسة والعلم. وقد يكون مثل هذا البيان كافياً لبيان الفروق بين التاريخين، والتأكيد على أن المجتمع الإسلامي ليس بحاجة إلى العلمانية. ولكننا آثرنا الإشارة إلى هذا (الواقع) في نهاية هذا الحديث عن موقف القرآن

الكريم من هذه القضية، وآثرنا التركيز هنا على هذا الموقف -النظري- لسببين: **الأول**: بيان أن هذا الموقف قائم ومستمر، وأنه ليس (تاريخياً) بمعنى أنه لا يصيبه انقطاع في أي عصر من العصور حتى وإن نكص المسلمون على أعقابهم، ودخلوا في عصر الركود. **السبب الثاني**: بيان أن شروط التقدم العلمي في المجتمع الإسلامي كانت وسوف تبقى ثقافية قرآنية، وأن الارتقاء والكشف العلمي الذي أصابه المسلمون في الماضي لم يكن بسبب خارج عن القرآن الكريم، وعن المنهج العلمي الذي جاء به، والمناخ العقلي الذي أشاعه، والشروط النفسية والاجتماعية التي وفّرها. إن الحضارة الإسلامية لم تبدأ بعصر الترجمة، كما زعم بعض الباحثين أو النقلة المترجمين.. لأن دورة هذه الحضارة بدأت مع أول كلمات القرآن الكريم نزولاً(إقرأ).. ولكنها في عصر الترجمة بدأت تدخل في إطار العالمية، أو في دور (توظيف) معارف الأمم السابقة والحكم كذلك على (ثقافاتها).. أو بدأت المرحلة التي ظهر فيها طابعها الإنساني العام.. لأن هذه الترجمة واكبت عبور أبناء الحضارات الأخرى -الذين فتحت بلادهم- نحو الإسلام

نعود لبيان موقف القرآن من قضية التقدم العلمي، واكتشاف سنن الكون والطبيعة، فنقول: لم تعرف الثقافة الإسلامية وجود «رجال دين» وقفوا في وجه (العلماء) -التجريبيين- أو قاوموا اتجاههم نحو تعليل ظواهر الطبيعة واكتشاف سننها. كما لم يعرف التاريخ الإسلامي مثل هؤلاء الرجال -رجال الدين- الذين اضطهدوا (العلماء) أو حاكموهم حتى انتهوا بهم إلى التوبة أو المحرقة!

ولا يعود السبب في ذلك إلى عدم وجود مثل هذه الطبقة في الإسلام، فحسب.. بل يعود قبل ذلك إلى أن النصوص القرآنية -أو النصوص

الدينية كما يقال بلغة القوم- كانت صريحة في الحث على العلم والتقدم العلمي، وواضحة الدلالة في الأمر بالتفكر والملاحظة والنظر والاعتبار.

ونلخص فيمايلي موقف القرآن الكريم من هذه المسألة من خلال الحديث عن المنهج العلمي الذي جاء به الكتاب العزيز:

خطوات المنهج العلمي في القرآن الكريم:

١- أزاح القرآن الكريم عن كاهل العقل الإنساني كل ما ينوء به ويعوقه عن الملاحظة والتفكر، سواء أكان ذلك:

أ- من موروثات البيئة(أي الماضي) قال الله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تُغني الآيات والنُّذر عن قوم لا يؤمنون﴾ (يونس: ١٠١) وقال تعالى: ﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يَخرُصُون. أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون. بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مهتدون، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قالَ مَترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾ (الزخرف: ٢٠-٢٣).

ب- أو من ضغط المجتمع (أي الحاضر من حول الإنسان) قال تعالى: ﴿قُل إنّما أعظُكُم بواحدة أن تقوموا لله مَثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾ (سبأ: ٤٦).

٢- أوضح القرآن الكريم بجلاء، وفي آيات كثيرة، أن الكون خاضع لسنن كونية ثابتة، وأنه يتصف بالحركة، والانتظام، والكمية، والتقدير

والتصنيف. فوق ماجاء فيه من وصف شامل للطبيعة لم يقتصر على السماء دون الأرض، ولا على الجماد دون النبات، ولا على الإنسان دون الحيوان . . إلخ.

وقد جاء التعبير عن هذه السنن الكونية، وعن ثباتها وديمومتها، على النحو التالي، المثير للتأمل، والآخذ بيد العقل الإنساني نحو تفهم خطواتها ومراحل تكوينها وعملها! قال تعالى: ﴿ألم تر أنّ الله يُزجي سحاباً ثم يؤلّف بينه ثم يجعله رُكاماً فترى الودق يخرجُ من خلاله﴾ (النور: ٤٣) وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يُخرج به زرعاً مختلفاً ألوانُه ثم يَهيج فتراه مصفَرّاً، ثم يجعله حُطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ (الزمر: ٢١) وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبحُ الأرضُ مخضرّةً إن الله لطيف خبير﴾ (الحج: ٦٣) وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفُلك تجري في البحر بأمره ويمسكُ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ (الحج: ٦٥) وقال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربّك كيف مَدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا. ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا﴾ (الفرقان: ٤٥-٤٦) وقال تعالى: ﴿أوَلم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ (يس: ٧٧) وقال تعالى: ﴿أوَلم يَرَ الذين كفروا أنّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون!﴾ (الأنبياء: ٣٠).

والآيات في هذا الباب كثيرة كما هو معلوم، وقد نشير إلى بعضها في سياق بعض النقاط التالية، مكتفين هنا بالإشارة إلى آية أو آيتين للدلالة على الأوصاف السابقة التي وصف بها الكون في آيات الكتاب العزيز. مع

الإشارة إلى أن الآية الواحدة في أغلب الأحيان، أو في أحيان كثيرة، فيها دلالة على أكثر من صفة من هذه الصفات؛ ففي **الحركة**، يقول تعالى: ﴿أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ (الأنبياء: ٤٤) وقال تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون﴾ (الذاريات: ٤٧) وقال تعالى: ﴿وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ (إبراهيم: ٣٣) وفي **الانتظام**، قال تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقديرُ العزيز العليم. والقمرَ قدرناه منازل حتى عادَ كالعرجون القديم. لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌ في فلك يسبحون﴾ (يس: ٣٧-٤٠) وقال تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسْكَنّاه في الأرض وإنّا على ذهاب به لقادرون. فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون﴾ (المؤمنون: ١٨-١٩) وفي **الكمية**، قال تعالى: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وإنْ من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر: ١٩-٢١) وقال تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيضُ الأرحام وما تزداد وكلُ شيء عنده بمقدار﴾ (الرعد: ٨) وقال تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحسابَ، وكلَّ شيء فصّلناه تفصيلا﴾ (الإسراء: ١٢) وأخيراً جاء في **التصنيف** قوله تعالى: ﴿والله خلق كلَّ دابّة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع﴾ (النور: ٤٥) وقوله تعالى: ﴿وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يُحشرون﴾ (الأنعام: ٣٨).

٣- صوّر القرآن الكريم علاقة الإنسان بالطبيعة على أنها علاقة مخلوق بمخلوق، وعلى أنها علاقة مخلوق سام بمخلوق مسّخر! فالشمس والقمر والنجوم، والفلك والأنهار والبحار.. وكل ما في السموات وما في الأرض مسخّر للإنسان، قال تعالى: ﴿الله الذي سخّر لكم البحر لتجري الفُلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الجاثية: ١٢-١٣). وقال تعالى: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفُلْك لتجري في البحر بأمره، وسخّر لكم الأنهار. وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار﴾ (إبراهيم: ٣٢-٣٣).

إن هذه العلاقة، كما يصوّرها القرآن الكريم في وضوح أخّاذ، ليست قائمة على النديّة أو المغالبة! فضلاً عن أن تكون قائمة على الرهبة والخشية.. أو العبادة! والعجيب أن الإنسان في سذاجته القديمة أو جاهليته الأولى اتخذ من مظاهر الطبيعة التي سُخرت له وقُصد بها نفعه.. معبوداً من دون الله! حتى إذا وصل إلى مرحلة ما من مراحل اكتشاف سننها وقوانينها.. كاد أن يتجه إلى هذه السنن والقوانين ذاتها بالعبادة! حين توهم أن هذا الاكتشاف يغنيه عن تقدير خالق هذه السنن، وواضع هذه القوانين. إن قانون تشكل السحب، أو نزول المطر، أو خروج النبات، أو سير السفن، لا يمكن أن يكون هو الخالق، لأن هذا القانون ليس إلا حادثة مصنوعة، وارتباطاً بين أمرين أو أمور متعددة -ارتباط نمو النبات بنزول المطر، ونزول المطر بتكاثف السحب، وتكاثف السحب بتبخر الماء.. إلخ -ويحتاج إلى (مقنّن) وخالق لهذا الارتباط المنظم بين أجزاء الكون، وهو الأمر الذي كانت تشير إليه آيات

التسخير هذه باستمرار . . ضبطاً لنتائج الاكتشاف . . وليس تهويناً من شأنه! أو إبطالاً لقانون الأسباب! أو بعبارة أخرى: حفاظاً على وضع الإنسان ومكانته في الكون: **عبداً لله، وسيداً للطبيعة.**

نعود إلى هذا الانتفاع غير المأجور، أي التسخير الذي يمكن عدَّه الإطار لجميع السنن والأوصاف السابقة التي جاءت للكون في القرآن الكريم، لنقول: إنه لا يمكن بغير الوقوف على هذه السنن التي تحكم الظواهر حتى يتمكن الإنسان من تحقيق هذا الانتفاع، أو الارتقاء به إلى أقصى الدرجات، خصوصاً إذا علم من خلال النقطة السابقة أنه لا يتعامل مع كون مشتت أو مضطرب، أو يخضع للتبدل والتحول بدون نظام يحكمه أو قانون يخضع له، فما عليه إلا أن يلاحظ ويفكر.

ولنا أن نتساءل هنا: ماالذي فعله الفيلسوف الكبير «ديكارت» في رسالته المشهورة «مقال في المنهج» غير أنه أنزل الفلسفة إلى الأرض، ونادى -أو بشّر- بعبارات قوية ومعبّرة بعصر يسيطر فيه الإنسان على الطبيعة[1] أليست هذه السيطرة التي بدأت بولادة الحصان البخاري-اكتشاف قوة البخار- في قدْر «بابان» و«واط» بعد نحو قرنين من مقالة ديكارت تذكّرنا بمنهج «التسخَير» الأدق والأشمل الذي وجد مع نزول القرآن الكريم، حتى تم للمسلمين اكتشاف النظام العشري، والجبر، والمثلثات، وقياس محيط الكرة الأرضية في عصر المأمون، أي بعد حوالي قرنين من نزول القرآن، هذا مع فوارق أخرى كثيرة بين المنهجين -فيما وراء التسخير، والسيطرة أو القهر



(١) انظر كتاب: العلم في التاريخ، تأليف جون ديزموند برنال، المجلد الثاني ص٨٩-٩٠ ترجمة د. علي علي ناصف.

-من أهمها أن هذه العلاقة -التسخيرية- بين الإنسان والطبيعة تحدث عنها القرآن، أي جاءت في كتاب ديني -بالمفهوم الغربي لكلمة «دين»- ولذلك تم ضبط العلم والكشف والاختراع بأحكام الدين وقواعد الأخلاق، أو بقي محكوماً بالقيم وبإنسانية الإنسان، من جهة، ولم تقتصر فيه هذه العلاقة على **الانتفاع والتسخير** فحسب، بل تعدَّتها إلى صلة **التأمل والتفكير، والانتقال منها إلى الخالق المبدع عز وجلّ**، واضع تلك السنن، ومقدّر هذه القوانين من جهة أخرى، قال تعالى: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكُلُوا من رزقه وإليه النشور) (الملك: ١٤) وقال تعالى: (ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعَمه ظاهرة وباطنة ومن الناس مَن يُجادل في الله بغير علمٍ ولا هُدىً ولا كتابٍ منير) (لقمان: ٢٠) وقال تعالى: (الم تر أن الله يولجُ الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري إلى أجلٍ مسمًى وأنّ الله بما تعملون خبير. ذلك بأن الله هو الحق وأنّ ما يدعون من دونه الباطل وأنّ الله هو العليُّ الكبير)(لقمان: ٢٩-٣٠).

٤- وغني عن البيان أن نشير بعد ذلك إلى ما ورد في القرآن الكريم من أمرٍ للإنسان بالنظر والتفكر والاعتبار والضرب في الأرض، والبحث في ميادين النفس والمجتمع، والتاريخ، والطبيعة، وما ورد فيه كذلك من مادة «العقل» و«النظر» ونحو ذلك، في عشرات المواضع، وفي شتى السياقات والمجالات كما قلت: قال تعالى: (قُل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلقَ ثم الله يُنشيء النشأة الآخرة)(العنكبوت: ٢٠)وقال تعالى: (أفلم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها)(سور ق: ٥) وقال تعالى: (فلينظر الإنسان ممَّ خُلق)(الطارق: ٥) وقال تعالى: (أولَم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله

السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمّى)(الروم : ٨)وقال تعالى : (إنَّ في السموات والأرض لآيات للمؤمنيِن ، وفي خلقكم وما يبثُّ من دابَّة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزَق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريفِ الرياح آياتٌ لقوم يعقلون)(الجاثية : ٣-٥) .

والآيات في هذا الباب تغطي مساحة واسعة في النص القرآني كما هو معلوم ، حتى إنها بحاجة إلى تصنيف دقيق ، كلٌ في بابه الواسع ، وشُعبته الخاصة ، والسنة المقصودة في هذا السياق ، ونحو ذلك .

٥ - ورد في القرآن الكريم إشارات كثيرة حول بعض القضايا الكونية والسنن الطبيعية ، وحول خلق الإنسان . . جاءت كإطار أو حوافز للعقل الإنساني ، تضاف كتطبيق على هذا المنهج وتلك المقدمات ، وعلى نحو يتم إدراكه والوقوف عليه خلال العصور ، لأن هذه الإشارات لم يُرد لها أن تكون بديلاً عن العقل الإنساني أو التجربة الإنسانية ، في الوقت الذي لم يعجز فيه القرآن عن خطاب الإنسان في أي عصر ، ولم يحمّله كذلك أكثر مما يطيق . ولكنْ إذا كان المنهج يمثل الطريق الذي يهدي الإنسان حتى لا يضل في تعامله مع الطبيعة كما ضلّت من قبل أمم وشعوب كثيرة ، فإن هذه الإشارات -التطبيقية- تأتي في باب الشواهد على البعد الزماني للقرآن ، وأنه لا يلحقه باطل في قادمات الأيام! . . بل تأتي في باب التأكيد المستمر على مصدر هذا الكتاب الخالد ، وأنه تنزيل من حكيم حميد . . كلّما ارتقت بالإنسان تجاربه وعلومه . أو كلما عاد إلى تلك الإشارات ففهم منها ما لم يكن قد عرفه أو وقف عليه من

قبل! قال تعالى: (سَنُرِيهِم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنّه الحق)(فصّلت: ٥٣).

وفحوى ذلك أن «الامتثال» لهذا المنهج العلمي أو لخطوات هذا المنهج التي رسمها القرآن الكريم هي التي تؤدي إلى معرفة القوانين والوقوف على السنن . . الأمر الذي يتمكن معه العالم فيما بعد من إجراء المطابقة بين الاكتشاف وبين نصوص القرآن. أو يتمكن من إقامة الدليل الحسّي والبرهان الحسابي أو المادي على صحة (الفرضية) التي أوحت له بها بعض الآيات. . فيترجح عنده آنذاك صحة فهمه للايات التي أشارت إلى تلك الظاهرة . .

٦- وحتى لو تجاوزنا، بعُد، الحديث عن هذا المنهج -منهج التسخير- الذي تحدثت عنه الآيات القرآنية الكريمة، فإن الثقافة الإسلامية، في حقولها أو عناصرها المختلفة، تستدعي المؤاخاة بين (العلم)و(الدين) بحسب التقسيم العلماني السابق، أو تستدعي الاشتغال بالعلم التجريبي، أو رسم بداياته وصوره الأولية على أقل تقدير! فالعبادة -التي قد يظن أنها أبعد هذه الحقول عن هذا الباب- كانت تستلزم مثل هذا التقدم أو التآخي بين الثقافة الدينية والعلم التجريبي! فشروط الصلاة، على سبيل المثال، من دخول الوقت، والوضوء، واستقبال القبلة. . أوضحت حاجة المجتمع الإسلامي إلى قياس الوقت، ووضع الروزنامات أو التقاويم، وتزويد أماكن الوضوء في المساجد (المياضيء) بالماء. . فضلاً عن تحديد الأماكن، وهندسة (المحاريب) لتحديد القبلة. ويرى بعض المستشرقين أن تقنيات المياه وشبكات المياه التحتيه لم تكن ضرورية للري فحسب، بل من أجل الصلاة والعبادة، ويقول: إن المسلمين أفادوا من تقنيات إغريقية ورومانية ومصرية قديمة، في قضايا نقل الماء ورفعه وتوزيعه. . الأمر الذي أدى بدوره -أو فيما وراء العبادة وما يتصل بها- إلى

تلك الثورة الزراعية التي حدثت في مشرق العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وقد أشار كذلك إلى أثر الجهاد في تطوير آلة الحرب، وفي القيام ببعض العمليات الكيميائية، حتى تمكنوا من الحصول على الزيت السريع الاشتعال «الذي تحول لديهم إلى سلاح فعّال في عصر الحروب الصليبية» ولا نعدد هنا مآثر المسلمين أو إضافاتهم العلمية، لأن هذا له سياق آخر . . ولكننا لا نرى بأساً، نظراً لأثر اكتشاف الآلة في الثورة الصناعية، وفي دفع عجلة التقدم العلمي في الحضارة الأوروبية، من أن نشير إلى ما قاله الدكتور «هانس دايبر» أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة امستردام، حول سبق المسلمين لهذا الاكتشاف؛ يقول دايبر: «**وبالوسع إثبات أن المسلمين استخدموا تقنية الغزل والنسج على آلة حياكة ميكانيكية منذ القرن العاشر الميلادي**، بينما لم يعرف ذلك في أوروبة قبل القرن الثالث عشر»[1]

وأخيراً: فإن **التاريخ الإسلامي**، لم يشهد لهذا كله مثل ذلك الصراع الذي شهده تاريخ أوروبة بين رجال الدين ورجال العلم، وكان كما قدمنا أحد سببين جوهريين في الدعوة إلى العلمانية.

بل شهد التقدم في كلا الجانبين: الثقافي الديني، والعلمي التجريبي، في وقت واحد! وقد سبقت الإشارة في مطلع بحث القومية إلى أن تقدم المسلمين في هذين البابين، كان يسير في خط بياني واحد أو مشترك؛ كان المسلمون يتقدمون في كلا الجانبين، ويتخلّفون أو يلحقهم الركود في كليهما

(١) من مقال بعنوان: «الإسلام وعلاقته بالعلم والتقنية» نظرة في الجدل المعاصر حول تاريخ العلم والحقيقة التاريخية» ترجمة الدكتور رضوان السيد، جريدة الخليج ص٧. العدد ٣٩٥٧ تاريخ ١٤/ ٣/ ١٩٩٠.

كذلك. ولم يحدث في تاريخ هذه الحضارة أن ارتفع احدهما على حساب الآخر.

وتدل هذه الملاحظة على مدى جمع القرآن الكريم لهذين الأصلين أو الجانبين، من وجه. كما تدل على مدى شروط «التقدم»-العلمي والثقافي- الحقيقية في العالم الإسلامي.. وأنها شروط قرآنية وثقافية في نهاية المطاف. وأنها ليست نقلاً أو تقليداً لما وقع في الحضارة الأوروبية.. أي أنها ليست شروطاً علمانية بحال من الأحوال[1].

ولهذا فإن الحضارة الإسلامية التي شهدت التقدم في كلا الجانبين السابقين، شهدت في الوقت نفسه اجتماع هذين البُعدين أو الأمرين في العالم الواحد. فكم من العلماء في تاريخ حضارتنا من كان متقدماً في علوم الدين وسابقاً أو مكتشفاً في العلم التجريبي.. فابن رشد الحفيد شارح أرسطو، وصاحب كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن، له كتاب «الكليات» في الطب. وابن النفيس الدمشقي كان يتولى تدريس الطب، وتدريس الفقه! وقد قام بشرح كتاب «التنبيه» في الفقه الشافعي للشيرازي.. وألف في الطب والنحو والمنطق، وله في الطب كتاب «الشامل» وهو من الكتب التي وصلتنا، ويقع في (٣٠٠) جزء.. وهو

---

(١) نضيف هنا ما قرأناه لعميد الاستشراق في نهاية القرن العشرين: «جاك بيرك» في مقابلة نشرت بتاريخ ١٥/٦/١٩٩٢ يقول: «.. وبخلاف ما كنا نتردد بالاقتناع به منذ بضع سنوات، أعتقد أننا وصلنا اليوم إلى قناعة ملخّصها أنه بإمكان المجتمعات أن تتقدم بدون أن تكون المادية، أو العلمانية القصوى (Emsicial) شرطاً ضرورياً لهذا التقدم. بوسعنا تصور تقدم في الإسلام وبالإسلام ذاته» مجلة الأسبوع العربى، العدد رقم ١٧٠٥ ص٤٧.

موسوعة تضاهي كتاب «الحاوي» للرازي . . وكان ابن النفيس رائداً في علم التشريح المقارن، لأنه اكتشف وجود تباين في تركيب أجسام الحيوانات - وهذا يدل على مدى اعتماده على التجربة والملاحظة- فأوصى بدراسة التشريح المقارن للوقوف على هذه الاختلافات. وهو أخيراً مكتشف الدورة الدموية -الصغرى- قبل مايكل سرڤيتوس الإسباني بثلاثمائة عام، وقبل وليم هارڤي الإنجليزي الذي ينسب إليه هذا الاكتشاف بأربعمائة عام! ونشير بهذه المناسبة، وتأكيداً لدواعي العلمانية في المجتمع الأوروبي، إلى أن سرڤيتوس هذا أحرق في جنيف مع كتبه حين نشر رسالة اعتبرت تحدياً للكنيسة، وتناولت فيما تناولت الدورة الدموية!.

تعقيب أخير: (المفهوم الشامل للعلم في الإسلام):

وفحوى ذلك كلّه أن المنهج القرآني حقّق «آليّته» أو آتى ثمراته في العالم الإسلامي. وإذا كانت هذه الثمار لم تبلغ غايتها، فإن السبب في ذلك يعود إلى الظروف الداخلية والخارجية التي عصفت بالمجتمعات الإسلامية أو تعرّضت لها، والتي لا يعود شيء منها بطبيعة الحال إلى موقف القرآن الكريم والثقافة الإسلامية من الاكتشاف والتقدم العلمي، أو إلى «طبيعة» هذا الموقف الإيجابي على هذا النحو الذي أشرنا إليه.

والعجيب بعد كل هذا -وهذا غيض من فيض كما هو معلوم- أن يُفهم اشتغال المسلمين بالعلوم الطبيعية عبر تاريخهم الطويل، على أنه خروج عن مفهوم العلم في الإسلام- لأن هذا المفهوم لا يتعدى عند بعض الباحثين العلم الديني! - وأن تؤول الكلمات التي صرّح فيها علماؤنا بأن اشتغالهم بالعلوم الطبيعية إنما كان امتثالاً وتطبيقاً لهذا المنهج القرآني . . على أنها محاولة منهم

لإضفاء الصبغة الدينية على هذه العلوم . . حتى ينفوا عن أنفسهم شبهة الخروج على مفهوم العلم الديني عند المسلمين ! !

وقبل أن أذكر تعليقاً عابراً على هذا الرأي، أورد أولاً بعض هذه الكلمات التي نقلها أصحاب هذا الرأي في هذا السياق . . يقول ابن رشد، الذي سبقت الإشارة إليه : «من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله»! وقال أبو الحسن الأنباري الذي كان يشتغل بعلم الهندسة، حين سئل : ماذا تدرس : « اشتغل بتفسير قوله تعالى : (أولم يروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) . . فأنا في علومي اشتغل بتفسير كيفية بناء هذه السماء» . . إلخ .

ثم نقول في التعليق : إن المرء لا يدري ما قيمة هذه التأويلات التي يحاول أصحابها حصر مفهوم (العلم) في الإسلام بالعلم «الديني» -بالمفهوم الغربي لكلمة دين -و كيف يمكنهم تفسير حجم الخروج على هذا المفهوم إذا كانت مؤلفات المسلمين في العلوم الفلكية والرياضية بلغت الآلاف «حتى إن مكتبة القاهرة الفاطمية ضمت في هذا المجال المتخصص ستة آلاف كتاب» كما يقول جوستاف لوبون!

بل إذا كان قوله تعالى : (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء) إنما جاء في سياق الحديث عن الماء والنبات والجبال والدّوابَ والأنعام وعلم الإنسان- أو عن الجغرافية الاقتصادية والطبيعية والبشرية- ولم يأت في سياق «العلم الديني» كما يصفون، قال تعالى : (ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمرٌ مختلفٌ ألوانهاوغرابيبُ سوَد . ومن الناس والدّوابِّ والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ، إن الله عزيز غفور)(فاطر :٢٧-٢٨)

قلت: فإذا كان علماء الطبيعة هؤلاء من (العلماء) الذين يخشون الله تعالى بنص القرآن، أو بشهادة القرآن.. فما حاجتهم إلى الاعتذار عن اشتغالهم بها، أو محاولة إضفاء الصيغة الدينية عليها؟.

المطلب الثاني: آثار الدعوة إلى العلمانية:

انتهينا من تقرير أن العلمانية في العالم الإسلامي لا مبرّر لها. ويبقى أمامنا الحديث عن آثار الدعوة إليها، بعد أن تمت هذه الدعوة بالفعل. أو بعد أن أخذت العلمانية طريقها إلى العالم الإسلامي في ركاب الاستعمار السياسي والعسكري أولاً.. ثم في ظل الحكومات الوطنية التي بقيت «أمينة» على التراث الاستعماري في معظم الأحيان!

وعلى الرغم من أن أحوال العالم الإسلامي المعاصرة، أو التي سادت منذ عهد الاستعمار والاحتلال حتى وقت قريب.. أو حتى الآن- في تركية وسواها من البلاد العربية والإسلامية -تعكس هذه الآثار في مختلف حقول الحياة: الفكرية والتربوية، والاجتماعية، والإعلامية، والسياسية، والقانونية.. وسواها؛ الأمر الذي يخرج استقصاؤه عن حدود هذه الدراسة، وعن مهمتها كذلك، فإن في وسع أي دارس أن يرصد هذه الآثار، وأن يعود إلى امتحانها والنظر فيها في ضوء المعالم الهامة، والخطوط الرئيسة التي نوردها فيما يلي، والتي حرصنا على أن تكون أقرب إلى التحليل

والتعليل، منها إلى سرد هذه الأثار، أو رصدها وذكر صورها:

١ - تغرّب وتغريب:

تعد الثقافة الإسلامية بفروعها أو مكوّناتها المختلفة، من عقيدة، وعبادة، وشريعة، وسياسة واقتصاد، وأخلاق، وتربية، واجتماع .. ثقافة دينية، بمعنى أن أصولها ومنطلقاتها وثوابتها في كل هذه الحقول دينية جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ فإذا اقتصرنا في فهم الإسلام على أنه صلة روحية، أو أن دائرته-كدين- لا تتعدى البُعد الفردي للإنسان، أو حياة الإنسان الشخصية؛ والمتمثلة في علاقته مع ربّه سبحانه- كما هي الحال في ظل العلمانية المسيحية- فمعنى ذلك ومؤداه: **تفريغ الشخصية الإسلامية من محتواها الثقافي؛**

وفي هذه الحال يطرح علينا السؤال التالي: ما الثقافة التي سوف تقوم بهذه الشخصية وتملأ فراغها! لا شك في أن أقوى النماذج الثقافية الموجودة في عالم اليوم هي الثقافة الأوروبية بفروعها المختلفة السابقة، من اقتصاد، وإعلام، وتربية، وقانون .. إلخ، ولاشك في أن الحضارة التي تبسط سلطانها على العالم هي الحضارة الأوروبية، وإن كان تسليمنا بعالمية هذه الحضارة، بمعنى سيادتها على مسرح التاريخ المعاصر، لا يعنى تسلمينا بعالمية ثقافتها، أو بعبارة أدق «بإنسانية» هذه الثقافة، أو بأن هذه الثقافة خرجت، مع الفرصة التي أخذتها في التعميم وسعة الانتشار، عن كونها **أوروبية النشأة والخصائص**. ويعود السبب في ذلك إلى أن الثقافة الأوروبية إنما تبلورت وأخذت ملامحها وسماتها من خلال حركة المجتمع الأوروبي عبر عصوره التاريخية، وكانت في فحواها استجابة لحركة هذا التاريخ، كما

أوضحنا ذلك بالتفصيل في دراسة أخرى[1].

ومعنى ذلك أننا سوف نجد أنفسنا في أحضان الثقافة الأوروبية، أو واقعين تحت تأثيرها الهائل على الأقل! بغض النظر عن كون هذا التأثير مارسته الحضارة الأوروبية ضدنا أيام الاحتلال، وبقينا نمارسه من خلال هذه الثقافة ضد أنفسنا في زمن الاستقلال، وهذا هو مبدأ التفريق بين التغريب والتغرب أو الاستغراب!

لقد فُرض علينا التغريب مع العلمانية أو مع «المناخ العلماني» الذي ساد المجتمعات الإسلامية زمن الاستعمار والاحتلال، والذي فصل في «واقع» هذه المجتمعات بين «الدين» و«نظام الحياة»! ونحن اليوم مازلنا في عصر الاستقلال السياسي نعيش هذا المناخ، ونصرّ كذلك على طلب النموذج الثقافي الغربي، ونفرضه على أنفسنا، ونسعى إليه، بل ربما قاومنا، وتحت عناوين شتى وبمعاذير مختلفة، عوامل «الأسلمة» أو «الاستعراب»! وهي الحالة التي يمكن وصفها بالأمانة على التراث الاستعماري! والتي تمثل أشد صور الخيانة للأمة والدين والثقافة! ولا ندري وصفاً مناسباً آخر لمن «يجاهد» لبقاء القانون المدني الفرنسي، أو نظام التعليم الانجليزي، أو المنقول عن المدارس الإنجليزية. . أو يدافع عن جميع المؤسسات العلمانية-في التربية والقضاء والتشريع والاقتصاد- التي خلّفها الاستعمار الأوروبي قبل رحيله عن دنيا العروبة والإسلام!

---

(١) بحث منشور في حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر، العدد الثامن ١٩٩٠ (الصفحات ٢٦٩-٢٩٥) ونقوم الآن بطبعه موسّعاً في كتاب مستقل

وحين نجد أنفسنا، من خلال هذه المؤسسات -وكما قدمنا- في أحضان الثقافة الأوروبية وقيمها، فإن علينا أن نقول بكل وضوح: إنْ قبلنا بهذه الثقافة ودافعنا عنها بوصفها -كما يعتقد الكثيرون- «ثقافة وضعية -علمانية» فقد دخلنا في باب التغرّب أو التغريب. وإن قبلنا بها بوصفها «ثقافة وضعية- مسيحية» أو «أوروبية-مسيحية» وجدنا أنفسنا في باب التغريب وفي مناخ المسيحية أو النصرانية جميعاً! وهذا ما نرجحه ونذهب إليه في ضوء حديثنا السابق عن أثر المسيحية في الثقافة الأوروبية، وأخذاً كذلك من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لتتبعن سَنَن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ تبعتموهم! - وفي رواية لدخلتم فيه- قالوا: يارسول الله: اليهودَ والنصارى؟ قال: فَمَن؟»[1] أي: فمن غيرهم إذن، نعم إنهم هم.

الدعوة إلى العلمانية في الشعوب الإسلامية إذن موقف تغريب، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، وبكل ما ينبني على التغريب من مواقف ومعطيات فكرية وسلوكية واجتماعية، بل سياسية في بعض الأحيان. **وإن شئت قلت: العلمانية موقفُ تغريب وتنصير!**

٢ - تجاوز وعدوان:

إذا كانت العلمانية في المجتمع الأوروبي تمثل كما رأينا موقف حياد، أو موقف «تحييد» لرجال الكنيسة، وإقصاء، نظري أو إلى حد ما، لهم عن شئون المجتمع والدولة، لأنهم كانوا في موقف تجاوز، فإنَّها في المجتمع

---

(١) أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الإسلامي لن تكون إلا موقف عدوان على الإسلام والمسلمين، فرد التجاوز والعدوان في مجتمع يقابله التجاوز والعدوان في مجتمع آخر!

والسبب في ذلك أن العلمانية تنازع الإسلام سلطانه الثقافي، وتسلب المسلمين حقهم في إقامة نظام حياتهم وفقاً للإسلام بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة! وهذه المنازعة أو الخصومة واقعة من خلال تعارض العلمانية- على أي معنىً فُهمت -مع الأصول الدينية للثقافة الإسلامية، ومع «الفحوى الديني» إن صح التعبير للشخصية الإسلامية والمجتمع الإسلامي! وقد أثبتت كل النماذج العلمانية التي فُرضت على العالم الإسلامي هذه الحقيقة، فلم تكن «حيادية» حتى نحو الاعتقاد الفردي أو السلوك الشخصي عند المسلمين .. لأن هذه العقيدة لها مستلزماتها وتوابعها الثقافية -السلوكية، التي تتعارض مع العلمانية، أو التي جاءت العلمانية لمحاربتها وإقصائها. وإذا لم يكن في وسع أبناء المجتمع الإسلامي في فترة من فترات الضعف أو الجهل، أن ينهضوا بهذه التوابع والمستلزمات؛ فإن بقاء عقيدتهم كاملة وسليمة، سوف يدفع بهم في فترات أخرى إلى استكمال نمط حياتهم وسلوكهم في التربية والاجتماع والآداب، وفي السياسة والاقتصاد .. وفقاً لأحكام الإسلام وشريعته التي أُسِّست جميعها كما قلنا على هذه العقيدة، وانطلقت منها.

يضاف إلى ذلك أن «فحوى» العلمانية، أو خلاصتها الأخيرة عند دعاتها من أبناء المسلمين؛ لا تعدو أن تكون في واقع الأمر-بوصفها نقلاً وتقليداً ومحاكاة لما وقع في أوروبة -**إيقاعاً للمماثلة أو تحقيقاً للتشابه بين المجتمعات الإسلامية والأوروبية**، أي تحقيق «صورة» التغريب الذي أشرنا إليه! ولهذا فإن المجتمعات الأوروبية قد تقبل أو تقرّ من مسائل العقيدة

الفردية والسلوك الشخصي ما لا يقرّه أو يقبل به العلمانيون المغرّبون والمتغرّبون في العالم الإسلامي! فلا ضير على المرأة أنْ تلبس في الشارع الأوروبي ما تشاء، ولكن العلمانيين من المسلمين لا يقبلون منها بغير نزع الحجاب! ويمكن فهم جميع ما قام به (أتاتورك) من خلال هذه النقطة. علماً بأن ما قام به أقرب إلى محاكم التفتيش!.

وقد يقول بعض العلمانيين، هنا: إننا لا نريد من الدعوة إلى العلمانية، أو الدعوة إلى تكريسها وعدم الخروج عليها فصل الإسلام عن المجتمع والحياة، ولكننا نريد فقط فصل الدين عن السياسة!

وهذا القول يوازي في الحقيقة قول علمانيين آخرين إن دعوتهم إلى العلمانية لا تتعدى الفصل بين العقيدة والعبادة في حياة الفرد من جهة، وبين الدولة والنظام الاجتماعي من جهة أخرى. لأن فحوى هذين القولين واضح في عزل الإسلام عن السياسة والحكم، أو الزعم بأن الإسلام دين لا دولة! ولا يعدو هذا كله أن يكون نقلاً عن العلمانية الأوروبية ومحاكاة لها بطبيعة الحال.

ونورد في نقض هذا الزعم الملاحظتين التاليتين:

أ- إن هذا الادّعاء غير متصور على صعيد الحياة والمجتمع الإسلامي، لأن السياسة فيه جزء من الحياة اليومية.. ولم تكن مهمة الحاكم في الإسلام في يوم من الأيام قاصرة على تدبير شئون الناس وتسيير مصالحهم بعيداً عن عقيدة الإسلام وأخلاقه وشريعته ونظامه الاجتماعي.. أو بعيداً عن الأحكام المالية والجزائية التي أنيط تطبيقها أصلاً بالحاكم المسلم والدولة الإسلامية. وقد

سبق لنا الحديث عن معنى الحكم في الإسلام، حين فرّقنا بينه وبين حكم رجال الدين في أوروبة. وقد عبّر العلامة ابن خلدون عن هذه العلاقة الوثيقة التي لا تنفصم على صعيد الحياة والمجتمع الإسلامي بين الدين والسياسة.. وبين الدين والدولة- أو بين العقيدة الدينية والنظام الاجتماعي- حين وصف «الخلافة الإسلامية» أو عرّفها بأنها: حراسة الدين، وسياسة الدنيا به! قال ابن خلدون رحمه الله: «.. الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة. فهي في الحقيقة **خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به**»[1].

ب- يضاف إلى ذلك أن هذا العزل أو الفصل يتعارض مع «شمول» الإسلام في النظر والتطبيق، أو مع أحكام القرآن والسنة، وواقع السيرة والتاريخ. ويكفي للدلالة على هذا الشمول ببعديه النظري والتطبيقي معاً أن نشير فقط إلى واقعة **الهجرة النبوية**، فقد هاجر النبي صلى الله عليه سلم من مكة إلى المدينة ليقيم(الدولة) أي أنها كانت هجرة سياسية إن صح التعبير؛ لأن المسلمين لم يكونوا في مكة ممنوعين من الاعتقاد الفردي أو العقيدة الشخصية، ومن إظهار العبادة حتي في الكعبة بين مجتمع المشركين وفي ناديهم، بل بلغ الأمر بقريش أن فاوضت النبي صلى الله عليه وسلم على ما هو أكثر من ذلك!

قلت: ومع إقامة دولة الإسلام في المدينة بدأت أحكام الشريعة التي

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص١٩١.

تنتظم حياة المجتمع والدولة، وعلاقتهما بالمجتمعات والدول الأخرى في السلم والحرب، تنزل في دار الهجرة. ومعلوم أن (تاريخ) المسلمين ارتبط بهذه (الهجرة) حيث تم التأريخ بها بإجماع الصحابة وباقتراح فذ من الخليفة الفاروق رضي الله عنه! وغني عن البيان أن الصحابة رضوانُ الله عليهم أجمعين كانوا طليعة هذا التاريخ، وقاعدته الصُّلْبة أو المتينة!

الهجرة إذن عَنَت الدولة، والدولة عَنَت التاريخ! فهل نفهم من ذلك أن المسلمين إذا فقدوا (دولتهم) -كما يريد السادة العلمانيون- خرجوا من نطاق (التاريخ)، أي فقدوا تأثيرهم وانطفأت فاعليتهم، وغابت سياستهم أو ما يمكن تسميته بالسياسة الإسلامية في صنع الأحداث، وتوجيه التاريخ؟ نعم! هذا ما نفهمه من هذا الغياب، والحديثُ فيه يوجع القلوب ويقضّ المضاجع! وبحسبنا أن نقول: إن ما انتهى إليه المسلمون اليوم من الغثائية والشتات والهوان على النفس والعالم، كان أثراً مباشراً للعلمانية أو للنظام العلماني الذي ذهب بدولتهم، وألغى (خلافتهم) على يد رجل أوروبة في العالم الإسلامي: أتاتورك! **وهكذا دخلنا التاريخ أمة ودولة، وخرجنا منه قبائل ودويلات.**

ونضيف كذلك أن (البعد الفردي) الذي يتحدث عنه العلمانيون، أو (يتصدقون) به على الإسلام والمسلمين في أحسن الأحوال، قد بلغ أوجه في العهد المكي. ومع ذلك فإن المسلمين لم يؤرخوا بشيء من معالم هذا العهد، فلم يؤرخوا على سبيل المثال بنزول الوحي، ولا بمرحلة الجهر بالدعوة، ولا بصلح الحديبية -فضلاً عن التأريخ بميلاد النبي صلى الله عليه وسلم أو بوفاته- وذلك لسبب واضح هو أن (الدولة) في مكة قبل الهجرة كانت للمشركين وليست للمسلمين، أو لأن النظام الاجتماعي والسياسي

كان بيد قريش أو تقوده قريش!

ولهذا كلّه، فإن العلمانية في المجتمع الإسلامي تمثل بالنسبة لشمول الإسلام، أو لأبعاده التي جاء لتحقيقها في الفرد والمجتمع والدولة.. تجاوزاً وعدواناً، أي تجاوزاً عن بعض جوانب الإسلام، وعدواناً على بعضها الآخر.. أو بعبارة أخرى: إيماناً ببعض الكتاب وكفراً ببعض! وإن شئت قلت أو أضفت: تمثّل ردّةً عن مقومات الحياة الاجتماعية والسياسية في الإسلام.

٢- تخلف وطائفية:

والعجيب بعد كل هذا، أن تُربط الدعوة إلى العلمانية في البلاد العربية والإسلامية بدعوى «التقدمية»! وأن يصف أصحابهاأنفسهم بأنهم أصحاب الاتجاه التقدّمي العلماني! علماً بأن كل ما قدمناه حتى الآن يشير إلى أنها سبيل هذا المجتمع إلى تكريس التخلف أو الاستضعاف، ونذكّر هنا بأثر العلمانية – الخطير- الذي أشرنا إليه وحللّناه قبل صفحات، والمتمثل في ملء فراغ الشخصية الإسلامية بالثقافة الأوروبية، أو بمعطيات التاريخ الأوروبي بوصف هذه الثقافة من صنع تاريخ القوم كما قدمنا، وهذا يعني الوقوع أو التبشير بنظام الحياة الأوروبي، أو يعني بعبارة أدق: استبدال هذا النظام بنظام الحياة في الإسلام. ونتيجة ذلك كله: تأكيد التبعية للغرب، الحالة الراهنة، ولهيمنته الثقافية والحضارية؛ أي تكريس التخلف أو الاستضعاف كما قلنا.

ومن هنا جاء دعم أوروبة للدعوة إلى العلمانية في العالم الإسلامي،

وجاءت إشادتهم الدائمة بها! وماتزال تجربة «أتاتورك» أو مصطفى كمال في تركية، تعرض علينا من قبل المستشرقين والباحثين ورجال السياسة الأوروبيين، على أنها النموذج الذي يحتذى للحداثة والمعاصرة وتطوير الإسلام! وما تزال أعماله التي «ارتكبها» في حق الإسلام والمسلمين تُعرض علينا على أنها إنجازات وإصلاحات تاريخية تمكّن «الغازي» من تحقيقها!! مثل: إلغاء نظام الخلافة، وهجر الشريعة الإسلامية إلى القوانين الغربية- التي نقلت وترجمت عن قوانين أكثر من بلد أوروبي -واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، إمعاناً في قطع تركيّة عن تاريخها وثقافتها، وعن كل ما يربطها بالعروبة والإسلام، إلى جانب فرض اللباس الأوروبي، وعطلة يوم الأحد بدل الجمعة! وتحريم الحجاب وتحريم الآذان-للصلاة- باللغة العربية.. إلخ. ولم يكتف بذلك حتى جعل من (الدستور) التركي حارساً لذاته، التي لا يجوز بحكم هذا الدستور أن تنال بالطعن أو النقد، ولهذه «الإنجازات» التي يعدّ الخروج عليها خروجاً على الدستور!!

ولا يقع في الوهم أن الغرب يشيد بهذا الاتجاه العلماني ويدعو المسلمين إليه، وهو يرى فيه سبيل تقدمهم ونهضتهم، أو السبيل التي تحقق للعالم الإسلامي الوحدة والاستقلال! وربماكان السبب الحقيقي لمثل هذه الإشادة أن علمانية المسلمين -إن صحت التسمية- تقليدٌ للأوروبيين، واقتداء بهم كما أشرنا قبل قليل، **لأنها حين تفقد أسبابها أو مبررات وجودها في المجتمع الإسلامي، فلن تقع فيه إلا تقليداً واتباعاً ومحاكاة لما وقع في المجتمع الأوروبي**، وغني عن البيان أن هذا التقليد والاتباع لا يرتقي بهم إلى درجة المشاركة أو المساواة[1] فإذا ذكرنا أننا كمسلمين قد رفعنا الله تعالى إلى

---

(١) أعلن هيلموت شميت، بعد أكثر من خمس وسبعين عاماً من فرض العلمانية في

مقام الشهادة على الناس، أدركنا مدى التخلف -والتبعية- الذي تكرّسه فينا العلمانية، حين تنزل بنا إلى رصيف البطالة والتسوّل لما عند الآخرين، الأمر الذي يضيّع على المسلمين طريق النهضة والإبداع .. فضلاً عن الوراثة الحضارية الموعودة والمأمولة. قال تعالى: (هو الذي أرسل رسولَه بالهُدى ودين الحق ليُظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون)[1] (الآية ٣٣ من سورة التوبةَ. والآية ٩ من سورة الصف).

العلمانية إذن هي طريق المجتمعات العربية والإسلامية إلى تكريس التخلف .. وذلك على الضدّ مما ذهب إليه أولئك الذين ربطوا بين العلمانية والتقدمية!.

بقي أن يقال: إن نفراً من هؤلاء -إن لم يكن سوادهم أو جميعهم- حاولوا الربط بين (الدين) و(الطائفية) فدعوا إلى العلمانية من أجل محاربة النعرة الطائفية! وقد انبنى على ذلك في نظرهم ضرورة استبعاد (الدّين) أو ضرورة عزله، بوصفه عاملاً مفرقاً في الوحدة القومية، أو عاملاً يحول بين العرب وبين التقدم والوحدة!

أ - ونقول أولاً في مناقشة هذا الادعاء: إن أصحابه سوّوا بين الدّين

تركية «أن سبب رفض وزراء السوق الأوروبية المشتركة طلب العضوية الذي تقدمت به تركية، هو أن الهوية والثقافة الإسلاميتين لتركية لا يمكن مصالحتهما مع المبادئ المسيحية- اليهودية للدول الأوروبية» جريدة الخليج، العدد ٣٩٦٣، تاريخ ١٠/٣/١٩٩٠.

(١) انظر حول هذه الوراثة بحثنا: العالم المعاصر، مدخل إلى الحضارة البديل، ص٩٠-٩٨ طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠.

والطائفية، من جهة، كما سوّوا بين الإسلام والنصرانية من جهة أخرى.
وتعني هذه التسوية الثانية أن نظرتهم إلى الإسلام لا تعدو كونه علاقة فردية أو صلة روحية بين العبد وربه، وأنه لا أثر له في الثقافة ونظام الحياة! أو أن أثره في ذلك يماثل طرفاً من أثر المسيحية في حياة المجتمعات الأوروبية، وهذا تصور فاسد كما هو معلوم، لأن الإسلام ليس عقيدة وعبادة فحسب، ولكنه كذلك شريعة ومنهج حياة، وعزلُه أو استبعاده يعني عزل (الثقافة) عن المجتمع والحياة، الأمر الذي ينبني عليه تقويض دعائم الوحدة القومية، أو القضاء على المقوم الحقيقي لهذه الوحدة ذاتها، لأن الإسلام إذا كان دين الأغلبية الساحقة من العرب، والنصرانية دين الأقلية، فإن «الثقافة العربية الإسلامية» هي ثقافة المسلمين والنصارى جميعاً، وسوف ينبنى على استبعاد الإسلام: استبعاد هذه الثقافة أو عزلها بطبيعة الحال!.

وحتى إذا أخذنا بعين الاعتبار الطرح القومي لمقومات الوحدة العربية ذاتها، والتي يخشى عليها القوم من (الدين) أو (الطائفية)! وأعني بهما: اللغة والتاريخ؛ فإن من الملاحظ أن استبعاد الإسلام سوف يضعف هذين العاملين أو يقضي عليهما؛ لأنهما ليسا مفصولين عن الثقافة العربية الإسلامية، أو مغايرين لها! فاللغة هي اللغة العربية بطبيعة الحال، وهي لا تعدو أن تكون أداة للإسلام ووعاءً لثقافته وحضارته وتاريخه. ودراستها تقدم للفرد معنى الحضارة الإسلامية، وتصله وصلاً وثيقاً بهذه الحضارة.
وإذا ذهب مادوّن بهذا اللسان في ظلال الإسلام لم يبق لنا إلا الشعر الجاهلي، الذي حفظ بدوره بفضل القرآن والإسلام.. بل إن اللسان العربي ذاته ما كان له أن يبقى حتى الآن لولا القرآن الكريم، أساس الثقافة الإسلامية ومنطلقها ولسانها في الوقت نفسه. والتاريخ القومي بدوره هو

التاريخ العربي الإسلامي بأحداثه ووقائعه، وما يذكي من شعور، ويوحّد من آلام وآمال بين العرب والمسلمين أجمعين. . كما أوضحنا ذلك في مبحث القومية.

وهكذا، فإن وحدة العرب القومية، أو الوحدة العربية تستدعي لزوم حضور الإسلام لغة وتاريخاً وحضارة وثقافة، لأن هذه الوحدة لا يمكن لها أن تتم خارج إطاره. وهذا هو القدر الذي يشترك فيه النصارى العرب مع العرب المسلمين. . ولهذا فإن استبعاد الإسلام -كدين- ووضعه مع الدين المسيحي في كفة واحدة سوف يفرّغ الشخصية العربية، مسلمةٌ كانت أم مسيحية، من محتواها الثقافي، ويخل من ثم بوحدة جميع العرب.

ب- ثم نضيف إلى ذلك أن هذه النظرة السطحية إلى موضوع (الدين) و(الطائفية) أو هذا الطرح القومي العلماني الذي سوّى بينهما، هو السبب الحقيقي في بروز المشكلة الطائفية، لأن هذا الطرح عندما ينبني عليه كما قدمنا عزل الثقافة الإسلامية، سوف يستتبع لزوم حضور الثقافة الأوروبية في المجتمع والحياة. أو كما قلنا أكثر من مرة: حين تفرغ هذه الشخصية العربية - مسلمة كانت أم مسيحية- من محتواها الثقافي العربي الإسلامي، سوف لن تملأ بغير الثقافة الأوروبية، والمشكلة التي تواجهنا وتبرز أمامنا في هذا الحال، هي أن هذا الأمر يعزل أو يسهم في عزل المسيحيين -إلى حد كبير- عن جسم المجتمع العربي الإسلامي الذي ينتمون إليه، والذي ارتبط مصيرهم به، لأنه يخلق فيهم شعوراً بالامتياز في إطار هذه الثقافة -الأوروبية- نظراً لعلاقتها بالمسيحية! وبخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار موقع الغرب المتقدم! وهكذا تبدأ النعرة (الطائفية) بالظهور . . أو هكذا بدأت بالفعل الطائفية الحديثة أو المعاصرة في ظل الدعوات القومية والعلمانية منذ عشرات السنين . . ثم نمت

عند البعض حتى وصلت إلى حد الحديث عن الخصوصية الحضارية التي تتمتع بها الطائفة المسيحية في لبنان والبلاد العربية في مواجهة المسلمين، أو في إطار المجتمع العربي الإسلامي! علماً بأنهم في الأصل -أو عبر عصور التاريخ- جزء من هذا الإطار قبل أن تعدو عليه العلمانيّة! يقول المطران جورج خضر[1]: «الوجود المسيحي الشرقي إنما هو وجود مع المسلمين، وفي إطارهم التاريخي والحضاري» وهو في موقفه هذا من هذه المسألة، كما يقول الأستاذ الدكتور جورج طعمه: «ينطلق من أن المسيحية العربية تمثل استقلالاً فكرياً وروحياً وحضارياً عن الغرب، وقد ارتبط مصيرها بالمصير العربي العائش في مجتمع إسلامي طبعه الإسلام بطابع نهائي ومصيري»[2].

ثم يعود المطران خضر -أستاذ الحضارة العربية بالجامعة اللبنانية حالياً- ليؤكد هذا الموقف مرة أخرى بعد أكثر من عشرين عاماً، مرّت على قوله السابق؛ فيقول: «أنا مسيحي، لكنني عربي أعيش بين المسلمين، وأشعر أن الحضارة الإسلامية هي حضارتي وثقافتي، ولذلك فعندما أنظر إلى هذه الحضارة فأنا أنظر لها من الداخل، وعندما أدرس التاريخ الإسلامي فإنما أدرس تاريخنا، ولا يمكن أن ننظر إليه من الخارج»، ويضيف في ملاحظة أخرى عميقة الدلالة، قائلاً: «إننا كمسيحيين عرب وإن كنا غير مسلمين فنحن جميعاً إسلاميون -بمعنى الانتماء إلى الحضارة الإسلامية- وهذه العبارة قلتها منذ عشرين عاماً وسط تجمع مسيحي، وكنت في حينها أشرح انتماءنا للحضارة الإسلامية قبل أن يظهر لفظ "الإسلاميين" الحالي»[3].

---

(١) متروبوليت جبل لبنان للروم الأرثوذكس حالياً.

(٢) مجلة العربي الكويتية، عدد نيسان «ابريل» ١٩٨٠، ص٢٥.

(٣) جريدة «الشعب» القاهرية، ص٥ تاريخ ٥ شباط (فبراير) ١٩٩٣.

قلت: ليست المشكلة -إذن- في الدين والطائفية، ولكن في الأوربة والتغرب، أو في التغرب والتغريب! وهكذا يصبح من حقنا أن نربط بين العلمانية والطائفية، بدل الربط بين الدين والطائفية.

جـ - وأخيراً يمكننا تأكيد ما قدمناه، بملاحظة أن الممارسات الطائفية أو التعصب الطائفي كان أحد ظواهر عصر الانحطاط أو ثقافة عصر الركود، وأن هذا التعصب لم يعهد في عصر النهضة في الإسلام، ولا في سائر عهود الازدهار الإسلامي . . فالمشكلة -إذن- أو في جميع الأحوال ليست في الدين، ولكن في الجهل بالدين أو بفقه التدين.

ويمكننا تعليل هذه الظاهرة على نحو -ربما- أشمل وأعمق، من خلال ملاحظة التداول أو التعاقب الذي عُرف في تاريخنا بين (الولاء) و(الانتماء)، وأعني به الولاء للفكرة، والانتماء للقبيلة، أو العكس. . ففي بداية العصر الإسلامي، ومع نزول القرآن الكريم في العرب، كان الانتماء والولاء جميعاً للقبيلة، أو كانا شيئاً واحداً، حتى إذا خرج الإسلام بالعرب من جاهليتهم، وسادت فيهم قيمه الثقافية في الحرية والعدل والمساواة . . أو حين تمكّن الإسلام من نفوسهم، انتقل (الولاء) فصار للإسلام، وانفصل عن (الانتماء) الذي بقي في إطار القبيلة. أو بعبارة أخرى: أصبحت الصلة بالقبيلة مجرد «انتماء» يقوم على قرابة الدم ورابطة النسب. ولم يكن الشعور بهذا الانتماء، أو لم يكن في التعويل عليه في عصور الازدهار الإسلامي خطأ أو قصور؟ لأن دوره كان إيجابياً في تكريس «الولاء» للإسلام زمن السلم -في روابط الاقتصاد وأوضاع الاجتماع- والدفاع عنه وحمايته زمن الحرب.

حتى إذا دخل العرب المسلمون -وسائر المجتمعات الإسلامية في عصر الركود والانحطاط -وضعفت فيهم روابط الثقافة الإسلامية الفاعلة، وقيم الإسلام الحضارية؛ انقلبت الأوضاع رأساً على عقب! فصار الولاء للقبيلة، والانتماء للإسلام. أو أصبحت الصلة بالإسلام مجرد انتماء . . متحجّر تارة، ومتعصّب تارة، وليس له أثر سلوكي أو معنى حقيقي تارة أخرى! .

وكان هذا مبدأ ظهور الطائفية السياسية والدينية في تاريخ المجتمعات الإسلامية، بما حملته من فرقة وتناحر، وتجزؤ وانقسام، من جهة. وبما عُرفت به من تعصب ديني ومذهبي، من جهة أخرى.

ولهذا فإن في وسعنا أن نَعُدَّ الطائفية الدينية المعاصرة، والطائفية المذهبية كذلك، استصحاباً لعصر الركود، أو بعثاً لعصور التخلف والانحطاط! وليس استصحاباً لعصور الازدهار الإسلامي، أو استمراراً لعصر الأمة الواحدة التي أرسى قواعدها الإسلام.

والعجيب بعد ذلك، أن يدّعي العلمانيون أنهم يحاربون الطائفية بإقصاء الدين. !!

** **



مركز الصحيفة للطباعة و الكمبيوتر
يسري لبيب وشركاه
تليفاكس : ٢٩٧٨٤٧٤